تاريخ بين السطور

التمرد .. أسطورة

رمضان مصطفى سليمان

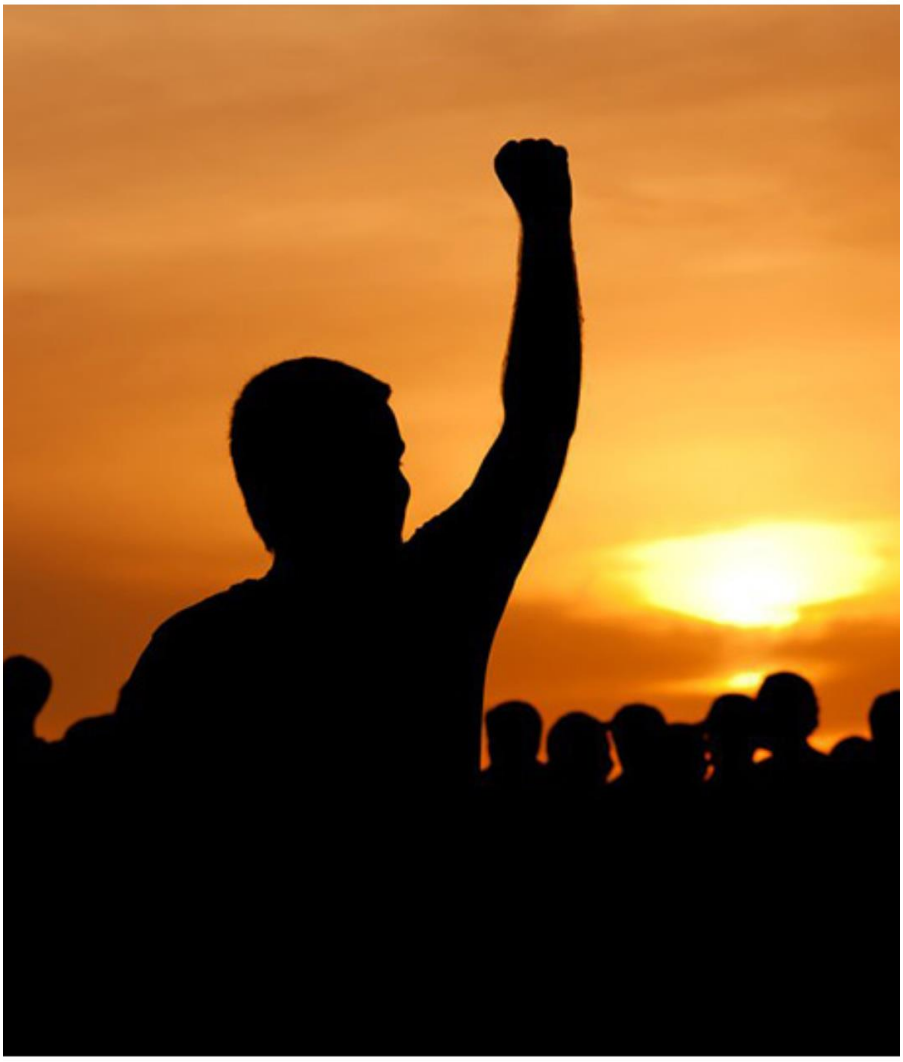

خرائط الرماد

حين تصمت الإمبراطوريات وتتكلم الجغرافيا

كان المساء يهبط بطيئًا على قاعة المكتبة القديمة، كأن الشمس نفسها تتردد قبل أن تترك الكتب وحيدة مع ظلالها الطويلة. وعلى الطاولة الخشبية العتيقة، كانت خريطة كبيرة للعالم القديم ممدودة كجسد جريح، تتقاطع فوقها الحدود والأنهار والبحار كما تتقاطع الندوب فوق صدر محارب عاد من معركة لم ينتصر فيها أحد.

ظلَّ هو يحدق في الخريطة طويلًا. لم يكن ينظر إلى ألوانها، بل إلى ما وراء الألوان ؛ إلى المدن التي اختفت ، والأسماء التي تغيرت ، واللغات التي صمتت، والصلوات التي انطفأت في بعض الأمكنة كما تنطفئ القناديل حين يهجر أهل الدار بيوتهم.

كان الغضب يتحرك في صدره ببطء، كجمرة دفنت تحت الرماد سنوات طويلة ثم هبت عليها ريح الذكرى.

انتبهت صديقته إلى وجهه المتجهم ، وإلى قبضته التي استقرت فوق حافة الطاولة حتى ابيضت مفاصل أصابعه.

قالت وهي تبتسم ابتسامة هادئة أرادت بها أن تخفف من وطأة ما يعتمل في داخله:

ما الذي يثير كل هذا الغضب يا صديقي ؟ إنك تنظر إلى الخريطة وكأنك تنظر إلى قبر مفتوح.

رفع عينيه إليها ببطء.

وفي عينيه كان شيء يشبه الحزن أكثر مما يشبه الغضب.

قال : لأن الخرائط يا صديقتي لا ترسم حدود الأرض فقط ، بل ترسم حدود الأخطاء أيضًا.

سكت لحظة ، ثم أضاف : وكلما تأملت خريطة العالم الإسلامي في تلك القرون التي كانت فيها الدولة العثمانية القوة الكبرى الوحيدة

القادرة على الوقوف في وجه مشاريع التوسع والابتلاع، انتابني غضب شديد.

رفعت حاجبيها بدهشة.

ولماذا الغضب على ما مضى وانتهى ؟ أليست الأمم مثل البشر، تمرض وتشيخ وتسقط ثم تقوم من جديد ؟

ابتسم ابتسامة قصيرة لا تحمل من الابتسام إلا شكله.

لست أغضب من القدر، فالقدر لا يُحاكم ، وإنما أحاكم البشر الذين منحهم التاريخ سلطة واسعة ومسؤولية أعظم، ثم أخطأوا أو عجزوا أو غفلوا.

ثم مال قليلًا نحو الخريطة وقال بصوت خافت :

إن السلطة يا صديقتي ليست تاجًا يزين الرؤوس، بل أمانة تثقل الأعناق، ومن حمل الأمانة ثم أضاعها حمل وزرها أمام الناس والتاريخ وربما أمام الله أيضًا.

ساد الصمت لحظة.

وفي الخارج كانت الريح تعبث بأغصان الأشجار فتطرق زجاج النوافذ طرقًا خفيفًا يشبه همسات الماضي.

قالت : ما زلت أراك تتحدث بالألغاز.

تنهد طويلًا. كان يشعر أن الكلمات الثقيلة تحتاج دائمًا إلى شجاعة كي تخرج إلى الضوء.

قال : أتحدث عن شعوب دفعت ثمن أخطاء الحكام، وعن أمم كاملة وجدت نفسها بين مطرقة الاحتلال وسندان الاستبداد، وعن ملايين البشر الذين تغيرت مصائرهم لأن رجالًا جلسوا يومًا خلف موائد السياسة واتخذوا قرارات ظنوا أنها مؤقتة، فإذا بها تتحول إلى جروح تستمر قرونًا.

سألته : وما علاقة ذلك بالغضب الذي أراه في عينيك ؟

أجاب : لأنني أرى أن التاريخ لا يقتل الناس بالسيوف وحدها ، بل يقتلهم أحيانًا بالإهمال والتردد وسوء التقدير.

ثم أضاف بعد صمت : وبعض الهزائم تبدأ قبل سقوط المدن بسنوات طويلة ، حين تسقط الإرادة أولًا.

ظلت تنظر إليه دون أن تقاطعه.

وكان هو يشعر أن الكلمات التي احتجزها داخله أعوامًا بدأت تجد طريقها أخيرًا إلى الهواء.

قال : لقد حكمت الدولة العثمانية أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، وقدمت نفسها بوصفها الحارس الأكبر لدار الإسلام، لكن الحارس الذي ينام طويلًا لا يملك أن يلوم اللصوص حين يجد الأبواب مفتوحة.

قالت بهدوء : لكنك تتحدث وكأن التاريخ أبيض وأسود، وكأن البشر ملائكة أو شياطين.

هز رأسه.

لا ، التاريخ أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير، ولذلك فإن فهمه يحتاج إلى الإنصاف لا إلى الكراهية ، وإلى الحكمة لا إلى الصراخ.

ثم أشار إلى بقعة واسعة على الخريطة.

انظري هنا.

اقتربت منه.

كانت أصابعه تستقر فوق مساحات شاسعة تمتد شمال بحر قزوين وشرقه.

قال :هذا الجزء من العالم كان يضم شعوبًا إسلامية عديدة، ومدنًا امتلأت بالمساجد والمدارس والمكتبات والأسواق، وكانت الحياة تدور فيها كما تدور في أي مدينة إسلامية أخرى.

سألته : وأين أصبحت اليوم ؟

ابتسم ابتسامة حزينة.

هذا هو السؤال الذي يجعلني أحدق في الخرائط ساعات طويلة.

ثم تابع : حين تتغير الجغرافيا تتغير معها أشياء كثيرة؛ اللغة، والذاكرة، والأسماء، وحتى طريقة الناس في النظر إلى أنفسهم.

صمت قليلًا، ثم قال : خذي مدينة أستراخان مثلًا.

ترددت الكلمة في القاعة كأنها اسم قادم من زمن بعيد.

كانت تلك المدينة إحدى البوابات المهمة على بحر قزوين، ومركزًا للتجارة والثقافة والعلم.

سألته : وماذا حدث لها ؟

أجاب وهو يمرر أصابعه فوق الخريطة :

دخلتها القوات الروسية مع بدايات القرن التاسع عشر ، وكانت تلك اللحظات بداية فصل جديد من تاريخ المنطقة.

ثم أضاف :

في السياسة كثير من الوعود، لكن التاريخ علمنا أن الوعود التي لا تحرسها القوة تبقى مجرد حبر على الورق.

قالت : وهل كان الناس هناك يدركون ما ينتظرهم ؟

ابتسم بمرارة.

الشعوب نادرًا ما ترى العاصفة قبل وصولها، إنها ترى الغيوم فقط، أما الرعد الحقيقي فلا يسمع إلا حين يصبح فوق الرؤوس.

ساد الصمت مرة أخرى.

كان هو غارقًا في أفكاره. وفي داخله أخذ صوت آخر يتكلم.

كم مرة خدعت الأمم نفسها؟ وكم مرة ظنت أن الزمن سيتوقف احترامًا لمجدها القديم؟ إن الحضارات التي تعيش على ذكريات القوة تشبه الشيوخ الذين يكتفون بالحديث عن شبابهم بينما العالم يركض من حولهم.

تنبه على صوت صديقته وهي تقول :

يبدو أنك تحمل عبئًا شخصيًا تجاه هذه الأحداث.

ابتسم.

ربما لأنني أؤمن أن التاريخ ليس قصصًا عن الموتى، بل مرايا نرى فيها أخطاء الأحياء.

ثم قال : هناك حكمة قديمة تقول : من لا يقرأ التاريخ ، يضطر إلى أن يعيشه مرة أخرى.

قالت : وهل تعتقد أن الأمم تتعلم حقًا ؟

أجاب بعد تفكير طويل : الأفراد يتعلمون بسرعة، أما الأمم فتتعلم ببطء شديد، لأنها تدفع ثمن الدروس من دماء أجيال كاملة.

كانت عيناها معلقتين بالخريطة.

أما هو فكان يرى ما هو أبعد من الورق والألوان. كان يرى قوافل تسير عبر السهوب الباردة. ويرى مآذن ترتفع فوق المدن الصغيرة. ويرى أطفالًا يركضون في الأزقة الضيقة وهم لا يعرفون أن الزمن يخبئ لهم مستقبلًا مختلفًا تمامًا.

قالت فجأة : أخبرني، ما أكثر ما يؤلمك حين تنظر إلى كل ذلك ؟

لم يجب مباشرة.

ظل ينظر إلى النافذة.

كانت السماء قد تحولت إلى لون رمادي شاحب.

و أخيرًا قال : يؤلمني أن الإنسان لا يدرك قيمة الأشياء إلا بعد ضياعها.

ثم أضاف : الحرية لا يشعر بقيمتها إلا الأسير، والوطن لا يعرف معناه الحقيقي إلا المنفي، والسلام لا يفهمه إلا من عاش الحرب.

سكت قليلًا.

وكذلك الحضارات.

اقتربت أكثر و قالت : وما الذي تخشاه على حاضرنا ؟

أجاب : أخشى الغرور.

نظرت إليه متعجبة.

قال : لأن الغرور هو المرض الذي يسبق سقوط الأمم دائمًا.

ثم تابع : حين تظن أمة أنها أكبر من الخطأ تبدأ في السير نحوه دون أن تشعر، وحين تعتقد أنها لا تحتاج إلى العلم تتراجع، وحين تتصور أن الماضي يكفي لصناعة المستقبل تبدأ الشيخوخة الحقيقية.

قالت : إذن فالمشكلة ليست في الجغرافيا وحدها.

أبدًا.

ثم ابتسم لأول مرة ابتسامة صادقة.

الخرائط تتغير دائمًا، لكن ما يحدد مصير الأمم في النهاية ليس مكانها على الخريطة، بل مكان العلم والعمل والعدل داخلها.

ارتفع صوت المطر خارج النافذة. وكان الليل يقترب ببطء.

قالت وهي تجمع أوراقها :

يبدو أنك لا تدرس التاريخ بوصفه ماضيًا فقط.

قال : لأن الماضي لا يموت يا صديقتي .

ثم أشار إلى صدره.

إنه يعيش هنا.

وأضاف : كل مدينة تسقط تترك حجرًا صغيرًا في قلب من يتذكرها.

ابتسمت و قالت : وربما لهذا تبدو حزينًا كلما فتحت كتاب تاريخ.

ضحك للمرة الأولى.

ربما.

ثم عاد ينظر إلى الخريطة.

وفي داخله كان الحوار مستمرًا.

هل نحن أبناء الماضي أم أبناء المستقبل ؟ وهل خُلقت الذاكرة كي نبكي فوق الأطلال أم كي نتجنب بناء أطلال جديدة ؟

أغلق عينيه لحظة. ثم قال لنفسه : ليست الحكمة أن نحاكم الموتى وحدهم، بل أن نسأل أنفسنا ماذا سنترك للأحياء بعدنا.

فتح عينيه من جديد.

كانت الخريطة ما تزال أمامه. لكنها لم تعد تبدو له مجرد ورقة. كانت تبدو كمرآة ضخمة. مرآة يرى فيها انتصارات البشر وأخطاءهم، شجاعتهم وضعفهم، حكمتهم وحماقتهم.

وربما لهذا السبب كان التاريخ مؤلمًا. لأنه لا يحدث في الماضي وحده. إنه يحدث في كل يوم. وفي كل قرار. وفي كل جيل.

قالت وهي تستعد للمغادرة :

وما الحكمة الأخيرة التي خرجت بها من كل هذه الخرائط ؟

ابتسم وهو يطوي الخريطة ببطء شديد، كما يطوي المرء رسالة قديمة من شخص عزيز.

ثم قال : تعلمت أن الأمم لا يحميها حجم جيوشها وحده، بل يحميها العدل والعلم وكرامة الإنسان.

وأضاف : وتعلمت أن القوة التي لا يصاحبها عدل تتحول إلى خوف، وأن العدل الذي لا تحرسه قوة يتحول إلى أمنية.

ثم رفع الخريطة بين يديه وقال :

والأهم من ذلك كله أن الجغرافيا لا ترحم الغافلين.

سألته : وهل ما زال هناك أمل ؟

نظر إلى المطر خلف الزجاج.

وكانت القطرات تنحدر فوق النافذة مثل أسطر شفافة من كتاب قديم.

ثم قال : ما دام في الأرض إنسان قادر على التعلم من أخطاء من سبقوه، فالأمل موجود.

وأضاف بصوت هادئ : فالأمم لا تموت حين تُهزم، وإنما تموت حين تفقد الرغبة في النهوض.

ساد الصمت.

وكان الليل قد اكتمل خارج النوافذ. أما داخل القاعة، فقد بقيت الخريطة فوق الطاولة، صامتة كما كانت دائمًا. لكنها، في تلك الليلة على الأقل، بدت وكأنها تتكلم.

خرائط الرماد وأجراس الشمال

كانت أصابعها تتحرك فوق الخريطة القديمة بحذر من يلامس جرحًا في جسد التاريخ، لا خطوطًا مرسومة بالحبر على ورق أصفر هرم. وكانت النافذة المفتوحة إلى جانبنا تسمح لريح المساء أن تتسلل إلى القاعة الجامعية الصغيرة، فتحرك أطراف الخرائط المعلقة على الجدران كأن الأمم المرسومة عليها ما تزال تتنفس.

قالت وهي تتبع بأصبعها حدودًا واسعة تمتد في قلب آسيا:

هذه منطقة قاراخستان... ولكن يا صديقي ، هذه البلاد عادت إلى الإسلام من جديد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، أليس كذلك ؟

رفعت بصري عن الأوراق أمامي ، وتأملت المساحة الشاسعة الممتدة تحت إصبعها. كانت الخريطة صامتة، لكنني كنت أسمع خلف صمتها صهيل الخيول القديمة، وقع سنابك الجيوش، بكاء المدن المحترقة، وهمسات المؤذنين الذين ظل صوتهم معلقًا في السماء حتى عندما أُغلقت المساجد.

قلت بهدوء : نعم، عادت الأسماء القديمة إلى الظهور، وعادت المآذن لترفع رؤوسها بعد سنوات طويلة من الصمت، ولكن التاريخ يا صديقتي لا يعرف النهايات الكاملة، وإنما يعرف الاستراحات القصيرة بين عاصفتين.

ثم أضفت وأنا أحدق في الخريطة : هذه المنطقة الواسعة كانت تضم عشرات الإمارات والكيانات التي تمتعت باستقلال فعلي، وإن ظلت اسمًا تحت راية الدولة العثمانية. وكانت الأرض هنا غنية إلى حد يكاد يكون أسطوريًا؛ نفط في الأعماق، وغاز في الصحارى، وأنهار، ومعادن، وطرق تجارة تمر بها الأمم كما تمر الدماء في العروق.

صمتُّ قليلًا، ثم قلت : غير أن الثروة وحدها لا تحمي الأمم، فكم من بلد غني نام على ذهب الأرض واستيقظ على سلاسل الغزاة. إن الدول لا تسقط حين تفتقر إلى الموارد، بل حين تفتقر إلى البصيرة.

كانت تنظر إلي باهتمام، فتابعت : لقد مرت على هذه البلاد سنوات قاسية. حاولت الشيوعية أن تنتزع من الناس ذاكرتهم قبل أن

تنتزع عقيدتهم، وأن تجعل الإنسان شجرة بلا جذور، لأن الشجرة التي تنسى جذورها يسهل اقتلاعها عند أول ريح.

مرّ صمت قصير بيننا.

خارج النافذة كانت الشمس تميل نحو المغيب، وكانت السماء تكتسي لونًا أحمر يشبه لون الخرائط القديمة حين يلطخها الدم.

أشرت إلى منطقة أخرى و قلت : هنا تريغستان... وفي هذه الأنحاء قامت مدينة كانت يومًا منارات العلم في العالم الإسلامي، مدينة طشقند، المدينة التي كانت الكتب فيها تُنسخ كما تُنسخ الأرواح في صدور الرجال، والتي كانت قوافل العلماء تصل إليها كما تصل الطيور إلى أعشاشها عند المساء.

تنهدت و قلت : ثم جاءت الإمبراطوريات كعادتها. فالإمبراطوريات لا تنظر إلى المدن كما ينظر الشعراء، بل كما ينظر التجار إلى الأسواق، أو كما ينظر الصياد إلى الغابة الممتلئة بالطرائد.

سألتني : ومتى سقطت ؟

قلت : وقعت في أيدي الروس في أواخر القرن التاسع عشر، يوم كانت أوروبا كلها تتقاسم خرائط العالم كما يتقاسم الورثة تركة رجل ميت، دون أن يسأل أحد أصحاب الأرض عن رأيهم.

هزت رأسها ببطء.

ثم أشارت إلى بقعة أخرى واسعة وقالت بصوت خافت : وهذه أذربيجان...

ابتسمت ابتسامة حزينة.

كنت دائمًا أشعر أن بعض البلاد لا تُذكر أسماؤها إلا ويخرج من حروفها شيء من الحنين.

قلت : أذربيجان كانت وما تزال عقدة بين الجبال والسهول، بين الشرق والغرب، بين الطامعين والحالمين. كانت أرضًا يعرف الجميع قيمتها، ولذلك تنازعها الجميع.

وسكت لحظة ثم أضفت : — إن البلاد الجميلة كثيرًا ما تكون تعيسة الحظ، لأن الجمال يجذب الطامعين كما يجذب الضوء الفراشات.

قالت : وهل هذا قدر الشعوب الصغيرة ؟

أجبتها : ليس حجم الشعوب ما يصنع مصائرها، وإنما قدرتها على التمسك بذاتها. فقد تكون الأمة صغيرة في عددها لكنها كبيرة في روحها، وقد تكون واسعة كالقارات لكنها تنهار عند أول اختبار.

أشارت إلى الجنوب قليلًا.

وهذه تركمانستان ؟

قلت : أرض الصحارى الواسعة والخيول الأصيلة. دخلها الروس في القرن التاسع عشر بعد حروب طويلة، وكانت القبائل هناك تقاتل كما يقاتل الإنسان دفاعًا عن اسمه لا عن أرضه فقط، لأن الأرض قد تضيع وتعود، أما الاسم إذا ضاع فقد يضيع إلى الأبد.

كنت أشعر أنني لا أحدثها وحدها ، بل أحدث نفسي أيضًا.

كم مرة قرأت عن مدن سقطت ؟ و كم مرة دهشت لأن التاريخ يعيد نفسه بالطريقة ذاتها، لكن بأسماء جديدة ورايات مختلفة ؟

الغزاة يتغيرون ، أما الحكاية فتبقى واحدة.

قالت وهي تشير إلى موضع آخر : وطاجستان ؟

طال تأملي للخريطة.

كانت تلك البقعة الصغيرة تثير في داخلي شعورًا غريبًا بالعجز.

قلت ببطء : هناك قاوم الناس بما وجدوه في أيديهم؛ سيوف قديمة، ورماح ورثوها عن آبائهم، وإيمان بأن الأرض لا تُسلَّم بلا ثمن. كانوا يواجهون المدافع بما يشبه المعجزات، ويواجهون الطائرات بإرادة البشر حين لا يبقى لهم شيء سوى الكرامة.

خفضت صوتي أكثر : بعض الحروب لا تكون عادلة منذ بدايتها، لكنها تبقى عظيمة لأن الذين خاضوها لم يقاتلوا أملاً في النصر، بل خوفًا من العار.

كانت تنظر إلي في صمت.

قلت :

أحيانًا يكون الفرق بين البطل والمهزوم مجرد أن الأول وجد مؤرخًا يكتب عنه، بينما مات الثاني في صمت.

ارتسم الحزن على وجهها.

وقالت : يبدو أن التاريخ كان قاسيًا مع هذه البلاد.

ابتسمت ابتسامة صغيرة وقلت :

التاريخ يا صديقتي ليس قاسيًا ولا رحيمًا، إنه يشبه البحر؛ يحمل السفن لمن يعرف الإبحار، ويبتلع من يسيء قراءة الرياح.

ساد الصمت مرة أخرى.

كنت أسمع دقات الساعة المعلقة على الجدار. غريب أمر الساعات. إنها لا تعلن مرور الزمن فحسب ، بل تعلن أيضًا موت جزء جديد من أعمارنا.

قالت بعد لحظة : ولكن أليس مما يعزينا أن هذه المناطق عادت إلى الدائرة الإسلامية مرة أخرى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ؟

نظرت إليها طويلًا.

كان في عينيها ذلك البريق الذي يسكن عيون المؤمنين بالنهايات السعيدة.

أما أنا فكنت قد قرأت التاريخ أكثر مما ينبغي.

و قلت : الحذر واجب.

رفعت حاجبيها في دهشة.

فأكملت : إن الأمم الكبرى لا تتخلى عن مصالحها بسهولة، ولا تنسى ما اعتادت امتلاكه عبر قرون. قد تتغير الأعلام، وقد تتغير الأناشيد الوطنية، وقد تتغير أسماء الأحزاب، لكن المصالح تبقى أكثر ثباتًا من الجبال.

اقتربت من الخريطة وأشرت إلى الشمال.

انظري إلى الشيشان.

ساد الصمت. حتى الريح خلف النافذة بدت كأنها توقفت عن الحركة.

قلت : ما يحدث هناك ليس مجرد نزاع محلي، بل هو رسالة إلى الجميع. رسالة تقول إن الإمبراطوريات المريضة قد تتراجع، لكنها لا تتوقف عن الحلم بالعودة.

ثم أضفت :

الروس، على اختلاف توجهاتهم السياسية، يجتمعون في هذه المسألة كما تجتمع الأصابع على قبضة واحدة. قد يختلفون في الاقتصاد، وفي الانتخابات، وفي شكل الدولة، لكنهم حين يتعلق الأمر بالمجال الحيوي للإمبراطورية القديمة يصبحون أشبه بقلب واحد ينبض بالفكرة نفسها.

قالت : أتقصد أن الماضي ما زال يحكم الحاضر ؟

قلت : الماضي لا يحكم الحاضر فقط، بل يجلس أحيانًا في مقعد القيادة بينما نظن نحن أن المستقبل هو من يقود العربة.

ابتسمت ابتسامة خفيفة.

ـــــعبارة جميلة.

قلت : لأنها حقيقية.

ثم تابعت : لقد كان هناك من يدعو صراحة إلى استعادة الجمهوريات السابقة، ثم التطلع إلى ما هو أبعد من ذلك. وحين تسمعين السياسيين يتحدثون عن المجد القديم، فاعلمي أن الخرائط تبدأ في الارتجاف داخل الأدراج المغلقة.

قالت : وهل تعتقد أن التاريخ يمكن أن يعيد نفسه فعلًا ؟

سكت طويلًا.

كنت أبحث في داخلي عن جواب لا يخون الحقيقة ولا يقتل الأمل.

ثم قلت : التاريخ لا يعيد نفسه بصورة كاملة، لكنه يحب أن يقتبس من نفسه كثيرًا.

ابتسمت هذه المرة.

أما أنا فكنت أفكر في شيء آخر. كنت أفكر في الإنسان. في ذلك الكائن الغريب الذي يبني المدن ثم يهدمها، ويكتب الكتب ثم يحرقها، ويقسم أنه تعلم من أخطاء الماضي ثم يعود ليرتكبها بحماس المبتدئين.

قلت فجأة : هل تعلمين ما أكثر ما يخيفني ؟

قالت : ماذا ؟

قلت : أن الأمم لا تموت حين تُهزم عسكريًا، بل حين تقتنع في داخلها بأنها لا تستحق الحياة.

تأملت كلماتي قليلًا. ربما كنت أحدث نفسي أكثر مما أحدثها. فقد كنت أخشى دائمًا ذلك النوع من الهزائم التي لا يراها أحد. الهزائم التي تقع داخل العقول. الهزائم التي تجعل الإنسان يعتاد القيد حتى يظنه جزءًا من جسده.

قالت بهدوء : ولكن هذه الشعوب احتفظت بدينها وهويتها رغم كل شيء.

نظرت إليها و قلت : نعم، وهذه أعظم انتصاراتها.

ثم أضفت : لقد اكتشف الطغاة عبر القرون أن السيطرة على الأرض سهلة نسبيًا، أما السيطرة على الضمير فتكاد تكون مستحيلة.

كانت السماء خارج النافذة قد تحولت إلى زرقة داكنة. وأضاءت المصابيح في الشوارع البعيدة. بدت المدينة من حولنا هادئة على نحو غريب.

قلت : أتعلمين ما الحكمة التي تعلمتها من التاريخ ؟

قالت : ما هي ؟

قلت : أن القوة وحدها لا تكفي لبناء الحضارات، كما أن الإيمان وحده لا يكفي لحمايتها، وإنما تحتاج الأمم إلى العقل الذي يقود، والعدل الذي يجمع، والذاكرة التي تمنعها من تكرار أخطائها.

ابتسمت و قالت : يبدو أنك تحمل داخل رأسك مكتبة كاملة.

ضحكت للمرة الأولى منذ بداية الحديث.

و قلت : بل أحمل داخلي مقبرة كاملة من الأسئلة.

ضحكت هي الأخرى. وكانت تلك الضحكة القصيرة كافية لتبدد شيئًا من ثقل الخرائط والحروب والسنوات.

ثم طوت الخريطة ببطء.

و قالت وهي تنظر إلى النافذة : ربما يكون الأمل هو الشيء الوحيد الذي لم تستطع الإمبراطوريات احتلاله.

نظرت إليها في إعجاب.

وقلت : وربما لهذا السبب تخشاه الإمبراطوريات أكثر من خوفها من الجيوش.

خرجنا من القاعة معًا. وكان الليل قد بسط عباءته فوق المدينة.

سارت أمامي خطوات قليلة، ثم توقفت فجأة و قالت :

هل تظن أن هذه البلاد ستجد السلام يومًا ؟

نظرت إلى السماء. كانت النجوم تتلألأ فوقنا بصبر الحكماء.

ثم قلت : لا أعلم.

و صمتُّ قليلًا قبل أن أضيف : لكنني أعلم أن الأمم التي تحفظ ذاكرتها تملك دائمًا فرصة جديدة للقيام، وأن الشعوب التي تعرف من تكون، يصعب على العالم كله أن يقنعها بأنها ليست شيئًا.

واصلنا السير. وكانت الريح تحرك الأشجار على جانبي الطريق.

أما الخرائط التي تركناها خلفنا في القاعة، فقد بقيت هناك صامتة فوق الطاولة.

لكنني كنت أعرف أنها ، مثل التاريخ تمامًا ، لا تنام أبدًا.

حين تتكلم الذاكرة ولا تصمت الأمم

كان المساء يهبط على المدينة ببطء الملوك المنهكين ، وتنساب خيوط الغروب فوق زجاج النوافذ كأنها بقايا نارٍ بعيدة تحاول أن تتشبث بالحياة قبل أن تبتلعها عتمة الليل. في قاعة الاستراحة الصغيرة، حيث كنا نجلس بعد يوم طويل من العمل والحديث، بدا الصمت أثقل من الكلمات، وأشد وطأة من التعب نفسه.

كنت أحدق في الفراغ أمامي، لا أرى الجدران ولا المقاعد ولا أكواب الشاي التي بردت على الطاولة، بل كنت أرى وجوهاً أخرى، وجوهاً لم أعرفها قط، لكنها سكنت خيالي منذ سمعت حكاياتها. رجال ساروا في الثلوج حفاة، وأمهات أخفين المصاحف تحت ألواح البيوت، وأطفالاً تعلموا أسماء أجدادهم همساً كما يتعلم الناس أسماء الممنوعات.

قطعت صديقتي خيوط صمتي، وقالت بصوت بدا كمن يضع يداً حانية على كتف جريح : —لكنني لست متألمة مثلك يا صديقي .

رفعت بصري إليها ببطء.

تابعت وهي تحاول أن تزرع في الكلمات شيئاً من الطمأنينة :

إن الدول الإسلامية التي خرجت من تحت ركام الاتحاد السوفييتي ، بعد أن ذاقت مرارة الحرمان من الحرية والكرامة، لن تفرط فيما نالته من استقلال. الشعوب التي دفعت أثماناً باهظة لا تنسى بسهولة، وعقارب الساعة لا تعود إلى الوراء مهما اشتدت الرياح.

سكتت لحظة ، ثم أضافت بابتسامة خفيفة:

أكل هذا الحزن لأننا تحدثنا مع ذلك الرجل القادم من تلك البلاد البعيدة؟ لقد حكى لنا قصصاً كثيرة عما ارتكبه الشيوعيون هناك، لكن العالم عرف مآسي كثيرة، والإنسان يمضي رغم كل شيء.

تنهدت طويلاً.

كانت كلماتها تحمل شيئاً من الحكمة، لكن القلب لا يخضع دائماً لمنطق العقول. ثمة جراح لا تؤلم لأنها وقعت علينا، بل لأنها وقعت على فكرة نحبها، أو على ذاكرة نشعر أنها جزء منا مهما ابتعدت الجغرافيا.

قلت بهدوء : أجل... الشيوعيون.

ثم سكت قليلاً، كأن الاسم نفسه يحمل وزناً ثقيلاً.

لكن حزني لا يقف عندهم وحدهم، بل يمتد إلى ما قبلهم بقرون طويلة. لقد تعاقبت الأنظمة، وتبدلت الأعلام، وتغيرت الشعارات، غير أن شيئاً واحداً ظل ثابتاً عبر الأزمنة: ذلك الجهد العنيف الذي بُذل لاقتلاع الإسلام من تلك الأرض الباردة، ولطمس ذاكرة شعوب كاملة.

بدت على وجهها علامات الاهتمام، فواصلت :

تخيلي أن قبائل بأسرها أجبرت على تغيير دينها وهويتها ولغتها أحياناً. أجيال متعاقبة نشأت وهي تسمع عن أجداد غامضين لا تعرف عنهم شيئاً سوى أنهم كانوا مختلفين. ومع مرور الزمن، لم ينس الناس أسماء أجدادهم فحسب، بل نسوا حتى أنهم نسوا.

هزت رأسها ببطء.

أما أنا، فكنت أشعر أن الكلمات لا تخرج من فمي، بل من مكان أعمق بكثير، من منطقة خفية بين الذاكرة والوجدان. لطالما أرعبتني فكرة ضياع الهوية أكثر من ضياع الأرض. الأرض يمكن أن تُسترد. الثروات يمكن أن تعود. المدن يمكن أن تُبنى من جديد.

أما الروح إذا نسيت نفسها ، فمن يعيد إليها صورتها الأولى ؟

قلت : الإنسان يستطيع أن يعيش فقيراً، ويستطيع أن يعيش منفياً، بل ويستطيع أن يحتمل السجن والظلم والجوع، لكنه إذا فقد ذاكرته الجماعية أصبح شجرة بلا جذور، يكفي أول ريح لتقتلعها.

ساد الصمت بيننا.

وكان خارج النافذة ضجيج المدينة يواصل حياته المعتادة، عربات تعبر الطرقات، وباعة ينادون على بضائعهم، وأطفال يركضون خلف كرة صغيرة، بينما كنا نحن نجلس هناك نتحدث عن قرون مضت، وكأن الزمن كله قد اجتمع في تلك الغرفة الضيقة.

قالت : وهل بقي في تلك الشعوب من يتذكر فعلاً ؟

ابتسمت ابتسامة حزينة.

الذاكرة يا صديقتي تشبه الجمر تحت الرماد، قد تظنين أنه انطفأ، لكنه يظل حياً ينتظر نسمة واحدة.

ثم قلت : لقد قرأت يوماً عن رجل خرج على القيصر في واحدة من أكثر الثورات إثارة في التاريخ الروسي، وكان يؤمن أن الدم لا ينسى جذوره مهما طال عليه الزمن.

اقتربت قليلاً وقالت : ومن كان هذا الرجل ؟

أجبت : اسمه في الروايات الشعبية القديمة نظام الدين الأصفهاني، وإن كانت كتب التاريخ قد منحته اسماً آخر، اسماً روسياً يخفي أكثر مما يكشف.

وما الاسم الذي أطلقوه عليه ؟

قلت : أسموه رازين استيفان، ثم جعلوا الناس يعرفونه باسم ستينكا رازين.

رفعت حاجبيها متسائلة : وما معنى ستينكا ؟

قلت : يقال إن الكلمة كانت تستخدم أحياناً على سبيل الانتقاص والتحقير، وكأنها محاولة لتجريده من صورته التي أرادها لنفسه، فالتاريخ لا يكتفي بقتل الرجال أحياناً، بل يحاول قتل أسمائهم أيضاً.

تنهدت وأنا أضيف : المنتصرون لا يكتبون التاريخ فقط، بل يختارون الأسماء التي يليق بالمهزومين أن يحملوها.

قالت : وهل كان حقاً يدعو الناس للعودة إلى الإسلام ؟

قلت : تختلف الروايات، لكن المؤكد أن الثورات الكبرى لا تخرج من فراغ، وإنما تخرج من ذاكرة مجروحة، ومن شعور عميق بأن شيئاً ثميناً قد سُلب من الناس.

ثم وجدت نفسي أغرق في خيالي.

رأيته واقفاً فوق تل مرتفع، والريح تعصف برايات رجاله، والثلج يمتد حولهم بلا نهاية. رأيته يصرخ فيهم بصوت يشق السماء :

تذكروا من أنتم...

فالذي ينسى أصله يسهل على الآخرين أن يصنعوا له أصلاً جديداً. والذي ينسى تاريخه، سيعيش عمره كله يردد تاريخ غيره.

كنت أراه بعيني الخيال أكثر وضوحاً من كثير من الناس الذين التقيتهم في حياتي.

ربما لأن الإنسان لا يحب الأبطال لكونهم انتصروا، بل لأنه يرى فيهم شيئاً من أحلامه المؤجلة.

قالت صديقتي : غريب أمر البشر، أليس كذلك؟ نخوض الحروب من أجل الأرض، ثم نكتشف بعد زمن أن المعركة الحقيقية كانت دائماً على الذاكرة.

ابتسمت لأول مرة منذ بداية الحديث.

نعم.

ثم أضفت : لأن الأرض تسكن الإنسان قبل أن يسكنها، والتاريخ يعيش داخل النفوس قبل أن يعيش في الكتب.

سألتني : وهل تعتقد أن الشعوب تستطيع أن تستعيد ذاكرتها بعد كل هذا الزمن ؟

فكرت قليلاً قبل أن أجيب. كان السؤال أكبر من أن يُجاب عنه بسرعة.

قلت : أحياناً تكفي أغنية قديمة. وأحياناً تكفي كلمة سمعتها الجدة من أمها. وأحياناً يكفي اسم قرية نجا من النسيان. الهوية لا تموت دفعة واحدة، بل تتراجع خطوة خطوة، ولذلك فإن عودتها تبدأ بخطوة أيضاً.

ثم قلت : هل تعلمين ما أكثر ما يرعب السلطات المستبدة عبر التاريخ ؟

قالت : السلاح ؟

ابتسمت.

لا.

المال إذن ؟

هززت رأسي.

إن أكثر ما تخشاه الطغاة هو الإنسان الذي يعرف من يكون. فالذي يعرف نفسه لا يمكن قيادته بالخوف طويلاً. والذي يعرف تاريخه لا يقبل بسهولة أن يعيش تابعاً لتاريخ الآخرين. والذي يعرف قيمته لا يبيع حريته بثمن زهيد.

ساد الصمت مجدداً.

لكن الصمت هذه المرة لم يكن ثقيلاً كما كان في البداية. كان أشبه باستراحة محارب بعد معركة طويلة مع الأفكار.

أخذت صديقتي تنظر من النافذة ، ثم قالت :

ربما لهذا السبب كانت الأنظمة المستبدة تبدأ دائماً بالمدارس والكتب والأسماء واللغات.

قلت : لأنهم أدركوا باكراً أن السيطرة على الذاكرة أسهل من السيطرة على السيوف.

ثم أضفت : يستطيع الحاكم أن يهزم جيشاً في يوم، لكنه يحتاج سنوات طويلة ليهزم ذاكرة شعب.

قالت : وبعضهم يفشل رغم كل شيء.

قلت : لأن الإنسان يحمل وطنه أحياناً في قلبه، لا في جواز سفره. ولأن العقائد والأفكار لا تُقاس بعدد الجيوش، بل بقدرتها على البقاء.

ثم سرحت بعيداً. تذكرت وجوه الرجال الذين التقيناهم من تلك البلاد، وكيف كانوا يتحدثون عن أجدادهم بنبرة غريبة، مزيج من الحنين والفخر والحيرة.

كان أحدهم يقول : لقد أخذوا منا أشياء كثيرة، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا الجدات من الدعاء.

وأدركت يومها أن الدعاء نفسه قد يصبح شكلاً من أشكال المقاومة. كما قد تصبح الحكاية مقاومة. واللغة مقاومة. والاسم مقاومة. بل وحتى الذاكرة نفسها قد تتحول إلى معركة طويلة لا تنتهي.

قالت صديقتي فجأة :

يبدو أنك تحمل هموم العالم كله فوق كتفيك.

ابتسمت.

لا، ولكن الإنسان إذا عرف بعض الحكايات صار مسؤولاً عنها بطريقة ما. فالجهل يريح القلوب أحياناً، أما المعرفة فتكلف أصحابها كثيراً.

ثم قلت :

هناك حكمة قديمة تقول: من عرف الألم اتسع قلبه للناس.

وأظن أن هذا صحيح. فالإنسان كلما عرف قصص الآخرين، أصبح أقل قسوة في أحكامه، وأكثر تواضعاً أمام التاريخ.

أخذ الليل يزحف خلف النوافذ. وأضاءت مصابيح الشوارع واحداً بعد آخر، كأن المدينة تشعل نجوماً صغيرة لتقاوم العتمة.

نهضت صديقتي وهي تجمع أوراقها وقالت :

مهما حدث، أؤمن أن الشعوب التي تتذوق الحرية مرة لن تنساها.

وقفت بدوري. ونظرت إلى السماء التي بدأت تتزين بأولى النجوم.

ثم قلت بهدوء :

نعم... وربما لهذا السبب بالتحديد لا يتوقف الصراع في التاريخ. لأن الحرية مثل الضوء، يكفي أن يراه الإنسان مرة واحدة حتى يعجز عن التصالح الكامل مع الظلام.

خرجنا من المبنى معاً.

كان الهواء بارداً ، لكن شيئاً في داخلي أصبح أقل برودة.

وربما أدركت في تلك اللحظة أن الحزن على الماضي ليس دائماً علامة ضعف، بل قد يكون دليلاً على أن شيئاً من العدالة ما يزال حياً في القلب.

فالذين لا يحزنون لآلام الآخرين، يموت في داخلهم جزء من إنسانيتهم دون أن يشعروا.

أما الذاكرة... فهي آخر القلاع التي تسقط. وآخر الأنهار التي تجف. وآخر الشموع التي تنطفئ. وما دامت الذاكرة حية، فإن الحكاية لم تنته بعد.

رازين الأصفهاني
الرجل الذي اكتشف نفسه متأخراً

كانت النار إذا اشتعلت في الحقول أمكن للمرء أن يطفئها بالماء أو بالتراب، أما النار التي تشتعل في الذاكرة فلا يملك أحد إخمادها. تبقى كامنة تحت الرماد سنوات طويلة، ثم يكفيها اسم عابر أو كلمة عابرة أو نظرة عابرة حتى تنهض من سباتها وتلتهم القلب كله.

وكان نظام الأصفهاني، أو زارين ستيفان كما عرفته السجلات الروسية، واحداً من أولئك الرجال الذين عاشوا أعمارهم يحملون في صدورهم سؤالاً لا يعرفون وجوده أصلاً.

كان أجداده، كما تناقلت الحكايات المبتورة، من رجال هضبة شمباي؛ أولئك المقاتلين الذين كانوا يشبهون صخور الجبال التي يقيمون فوقها، صلابةً وشموخاً وعناداً. كانت الهضبة مرتفعة كأنها تراقب الدنيا من علياء، وكانت الرياح التي تعبرها تحمل رائحة الأعشاب البرية وصهيل الخيول وصدى التكبيرات المنبعثة من المساجد الصغيرة المنتشرة بين القرى.

ثم جاء الغزاة. جاء الروس في زمن القيصر، يحملون الحديد والنار، يفتحون الطرق بحد السيوف ويختمون الأبواب باللهب والدخان.

قاومت الهضبة طويلاً.

كل حجر فيها قاتل، وكل شجرة احتمت خلفها بندقية، وكل امرأة كانت تعرف كيف تخبئ أبناءها وكيف تمسح الدم عن وجوه الرجال العائدين من القتال.

لكن الحروب لا تنتصر دائماً للشجعان.

سقط الرجال واحداً بعد آخر، وامتلأت الوديان بالجثث، وأُخذ الشبان أسرى، وسيقت النساء بعيداً عن بيوتهن، بينما كانت المدن تحترق والمساجد تنهار تحت ألسنة النار.

قال رازين بصوت خافت يشبه صوت رجل يتحدث مع قبر قديم :

كان أجدادي يا سيدتي من أولئك الأسرى.

ساد الصمت.

حتى الريح التي كانت تمر قرب النافذة بدت وكأنها توقفت لتستمع.

تابع قائلاً : كان القيصر يأخذ الأطفال بعيداً عن آبائهم وأمهاتهم، ويمنحهم أسماء جديدة وذكريات جديدة ودِيناً جديداً، ثم يترك الزمن يتكفل بالباقي. فالإنسان إذا فقد ذاكرته فقد نصف روحه، وإذا فقد جذوره عاش عمره كله غريباً حتى لو سكن وسط أهله.

رفع عينيه نحو البعيد.

هكذا حدث معي ومع أخي مورين.

سألته صديقته بهدوء :

ألم تعرف شيئاً عن أصلك طوال تلك السنوات ؟

ابتسم ابتسامة حزينة.

كانت ابتسامة رجل يكتشف أن حياته كلها ربما كانت قائمة على سوء فهم كبير.

قال : لم أعرف شيئاً. كنت أظن نفسي روسياً خالصاً. كنت أردد الأناشيد الروسية، وأصلي كما علموني، وأحمل السلاح دفاعاً عن القيصر، وأشعر بالفخر كلما ارتديت زي الحرس الإمبراطوري.

ثم تنهد.

لم يخطر ببالي يوماً أن اسمي نفسه قد يكون بقايا وطن ضائع.

سألته:

وماذا عن أجدادك؟ ألم يتركوا أثراً أو قصة أو وصية؟

هز رأسه ببطء.

الأسر يا سيدتي لا يسرق الأجساد وحدها، بل يسرق الحكايات أيضاً.

ثم أضاف:

نشأت لا أعرف إلا أنني روسي من أرض القوزاق. علمونا منذ الصغر ركوب الخيل، والرماية، واستخدام السيف والرمح والبندقية.

كانوا يقولون لنا إن الرجل يقاس بعدد المعارك التي خاضها لا بعدد السنوات التي عاشها.

ارتسم شيء من الكبرياء على وجهه.

كنت متفوقاً في التدريب، سريع الحركة، ثابت اليد، حاد البصر، ولذلك اختاروني لحرس القيصر.

ابتسمت صديقته وقالت :

وأخوك مورين ؟

أشرق وجهه للحظة ثم عاد الحزن يكسوه.

كان أفضل مني في المبارزة، وأسرع مني في الفروسية، وأكثر جرأة في ساحات القتال.

سكت قليلاً.

لكنه كان أقل حظاً.

كيف ؟

قال : أنا أرى ذلك، أما هو فكان يعتقد أنه أسعد الرجال. فقد انضم إلى حرس الأمير دولوجوروكي، وكان الأمير من أقرب الرجال إلى القيصر وأحبهم إليه.

ثم ضحك ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

كم هي غريبة هذه الدنيا... قد يظن الإنسان أنه بلغ القمة بينما يكون واقفاً فوق حافة الهاوية.

سألته : متى بدأت تفكر في الثورة على القيصر ؟

رفع رأسه بسرعة وكأن السؤال أصابه بالمفاجأة.

الثورة ؟

ثم هز رأسه.

لم أفكر في ذلك قط.

كانت عيناه صادقتين.

كنا نحب القيصر حب الأبناء للأب. كانوا يسمونه الأب الأكبر، وكنا نصدّق ذلك تماماً.

ساد الصمت مرة أخرى.

ثم تابع : كنا نحصل على أفضل الطعام وأجود الخيول وأفخر الملابس. كانت الرواتب سخية، والمكافآت لا تنقطع، والهدايا تنهال علينا في كل مناسبة تخص الأسرة القيصرية.

توقف قليلاً.

حين يكون الإنسان شبعاناً يصعب عليه أن يصدق أن هناك من يموت جوعاً.

خفض رأسه وأضاف :

لكن الإنسان لا يعرف العالم من نافذة القصر.

ثم بدأ صوته يزداد عمقاً.

في أحد الأعوام كلفني قائد الحرس بمهمة لدى الحامية الروسية في جنوب الفولغا والدون.

بدت الذكرى واضحة في عينيه.

هناك التقيت رجلاً يدعى أوتار.

ابتسم.

كان رجلاً بسيطاً ، لكنه يملك ذلك النوع النادر من الصدق الذي يجعل الإنسان يحترمه منذ اللقاء الأول.

أطرق قليلاً.

أحببته بسرعة.

كان أوتار يعيش في بيت صغير تحيط به الأشجار، وتتناثر حوله أدوات الزراعة وسروج الخيل القديمة.

أقام ستيفان عنده أسبوعاً كاملاً.

وفي إحدى الليالي جلسا أمام الدار.

كانت السماء صافية حتى بدا أن النجوم أقرب إلى الأرض من المعتاد، وكان الهواء يحمل برودة لطيفة ورائحة الحقول البعيدة.

قال أوتار فجأة : أنتم تعيشون قرب القيصر في سعادة ورخاء، ولا تشعرون بما نحن فيه من كرب وضيق.

ضحك ستيفان قائلاً :

هذا حديث لا يرضى عنه رجال القيصر يا صديقي ، وتذكر أنني واحد منهم.

نظر إليه أوتار طويلاً ثم قال :

لا يا ستيفان... أنت لست منهم.

ضحك ستيفان أكثر.

بل أنا روسي حتى النخاع.

ابتسم أوتار ابتسامة غامضة.

ومن قال إنني أنا روسي ؟

توقف ستيفان عن الضحك.

ماذا تعني ؟

قال أوتار : لأنني أخدم في الجيش الروسي لا يعني أنني روسي. أنا قبل كل شيء رجل من القوزاق.

ثم نظر مباشرة في عينيه.

وأحسب أنك كذلك.

ساد الصمت.

كان صوت الحشرات الليلية وحده يملأ الفراغ بينهما.

قال ستيفان : وممن أكون إذن ؟

قال أوتار : هذا ما يجب أن تسأل نفسك عنه.

ثم أردف : لا أحد في روسيا كلها يحمل اسماً مثل رازين.

ابتسم ابتسامة صغيرة.

أحسب أن لهذا الاسم جذوراً أقدم من الكنائس الروسية.

قال ستيفان ساخراً : لم يبق إلا أن تقول إنني مسلم أيضاً.

لكن أوتار لم يضحك.

ظل ينظر إليه بجدية كاملة.

هذا ما أظنه بالفعل.

شعر ستيفان يومها بشيء بارد يسير في ظهره.

كان الأمر يشبه سماع المرء لخطوات شخص مجهول يسير خلفه في طريق خالٍ.

قال : هذا مستحيل.

أجاب أوتار : المستحيل هو أن يعيش الإنسان عمره كله دون أن يعرف من يكون.

ظل ستيفان صامتاً.

كانت النجوم فوقه تلمع بصمت ، وكأن السماء نفسها تنتظر جوابه.

قال أوتار : حتى اسم ستيفان هذا لا يبدو لي اسمك الحقيقي.

همس ستيفان :

لقد قال لي الكاهن إنني ولدت قرب موسكو.

ابتسم أوتار بحزن.

الكهنة يا صديقي يعمدون الأطفال، لكنهم لا يصنعون أصولهم.

دخلت الكلمات إلى قلب ستيفان كالسهم.

وفي تلك الليلة لم يستطع النوم. ظل مستلقياً ينظر إلى سقف الغرفة المظلمة.

من أنا ؟

لأول مرة في حياته كان السؤال يخيفه.

هل يمكن لإنسان أن يعيش ثلاثين عاماً باسم ليس اسمه ؟ هل يمكن لطفل أن يُسرق من أهله ثم يكبر ناسياً حتى ملامحهم ؟

أغمض عينيه.

حاول أن يتذكر شيئاً من طفولته الأولى.

وجوه... ظلال... صوت امرأة تبكي... رجل ملتحٍ يرفعه بين ذراعيه... مئذنة بعيدة... ثم دخان كثيف... وصراخ... وخيول تركض...

فتح عينيه فجأة. كان قلبه يخفق بعنف.

قال لنفسه : ربما كانت أوهاماً.

لكن صوتاً آخر في داخله همس : وربما كانت ذكريات.

وعند الفجر خرج من البيت وحده. وقف على ربوة صغيرة تطل على السهول الواسعة. كانت الشمس تصعد ببطء من خلف الأفق.

تذكر كلمات أوتار : المستحيل هو أن يعيش الإنسان عمره كله دون أن يعرف من يكون.

عندها فقط شعر أن حياته السابقة كلها بدأت تتصدع.

فالإنسان يستطيع أن يعيش فقيراً أو جريحاً أو منفياً، لكنه لا يستطيع طويلاً أن يعيش مجهول الأصل.

إن الشجرة التي تنسى جذورها تموت واقفة. وإن الأمم التي تفقد ذاكرتها تصبح ملكاً لذاكرة الآخرين.

أما الإنسان، فإن أخطر أنواع الأسر ليس أسر الجسد، بل أسر الهوية.

وفي تلك اللحظة أدرك ستيفان أن رحلته الحقيقية لم تبدأ يوم حمل السيف لأول مرة، ولا يوم دخل قصر القيصر، ولا يوم ارتدى زي الحرس الإمبراطوري.

لقد بدأت الآن فقط.

بدأت مع سؤال صغير ، لكنه كان قادراً على تغيير مصير رجل بأكمله: من أنا ؟

ظلال الأصل المفقود

كانت الشمس تميل ببطء نحو حواف السهوب البعيدة ، فتسكب على الأرض نورًا ذهبيًا شاحبًا يشبه الذكرى حين تعود إلى القلب بعد طول غياب. وكان الهواء البارد القادم من الجهات الشمالية يحمل رائحة الأعشاب اليابسة والتراب الرطب، فيما كانت الخيول المربوطة قرب الأسوار الخشبية تضرب الأرض بحوافرها في ملل الجنود المعتاد.

جلستُ إلى جوار أوتار فوق جذع شجرة مقطوعة ، نراقب الأفق الذي يمتد بلا نهاية، كأن الأرض هناك نسيت أن تنتهي، أو كأن السماء قررت أن تهبط قليلًا لتصافح التراب.

كان أوتار يحدق إليّ بصمت طويل، ذلك الصمت الذي يسبق عادة الكلمات الثقيلة.

ثم قال فجأة :

هذا البنيان القوي ، وهذه اللمعة المختبئة في عينيك السوداوين ، وطريقتك في امتطاء الجواد بغير سرج، وهذه المشية التي تمشيها كأنك تحمل في صدرك يقين الملوك... كل ذلك لا يكون إلا للشركس الذين عاشوا بين البراري والهضاب جنوب روسيا.

ثم ضيق عينيه قليلًا وأردف :

ربما كنت من شركس هضبة شمباي ، أو من أبناء هضبة أوستورت. ابحث عن أصلك يا عزيزي ستيفان، فالإنسان الذي يجهل جذوره يشبه شجرة عظيمة تنبت فوق الصخر؛ تقف طويلًا، لكنها لا تعرف من أين جاءها الماء.

ابتسمتُ ابتسامة صغيرة ، وإن كنت أخفي وراءها اضطرابًا قديمًا لم أكن أحب أن يراه أحد.

قلت مازحًا :

ما أعجب أفكاركم معشر الشركس ! كل رجل قوي عندكم يصبح شركسيًا ، وكل فارس ماهر لا بد أن يكون ابنًا للجبال والسهوب.

ثم أضفت : أنا شركسي ؟

هززت رأسي ساخرًا.

من يدري ؟

وسكت قليلًا قبل أن أتابع :

لو كنت شركسيًا لكان أجدادي من المسلمين، ولكن القس...

قاطعني أوتار وهو يبتسم ابتسامة المنتصر :

ولكن القس الذي عمّدك قال إنك روسي مثله.

انفجرنا ضاحكين.

كانت ضحكة قصيرة، لكنها كانت من ذلك النوع الذي يخفف عن الأرواح ثقل الأيام.

وحين هدأت الضحكات، وجدت نفسي أسأله :

أوتار... هل أنت مسلم ؟

رفع رأسه بفخر هادئ و قال :

والحمد لله.

لم تكن إجابته تحمل تحديًا ولا اعتذارًا ، بل كانت تشبه إعلان الإنسان اسمه أو اسم أبيه ؛ حقيقة بسيطة لا تحتاج إلى تبرير.

قلت بعد لحظة :

لكنهم يقولون إن القيصر لا يقبل في حاميات المناطق الروسية النائية جنودًا مسلمين.

ابتسم أوتار ابتسامة مرة و قال :

القيصر يحتاج إلى البنادق أكثر مما يحتاج إلى العقائد يا صديقي.

ثم أضاف وهو ينظر نحو أبراج الحامية :

لو طردونا فلن يجدوا من يحل محلنا بسهولة. نحن نقاتل حيث يخاف غيرنا من الوقوف ، ونسير حيث يتردد الآخرون في السير.

وسكت قليلًا.

ثم قال بصوت منخفض اختلط فيه الغضب بالحزن :

لكنه لن يتردد في القبض علينا وإرسالنا للعمل عبيدًا في المزارع أو في السفن إذا وجد من يحل محلنا، أو إذا ارتكبنا مخالفة مدنية أو عسكرية.

ظل صامتًا لحظة أخرى.

كانت عيناه مثبتتين على الأرض هذه المرة.

ثم قال : أخبرني يا ستيفان... هل أنت سعيد حقًا في حياتك كجندي في حرس القيصر ؟

ضحكت لأكسر وطأة السؤال.

قلت : لست مجرد جندي، أنا صف ضابط.

ضحك أوتار ضحكة عالية و قال :

إذن أنت رجل مهم.

ثم انحنى نحوي قليلًا وأضاف :

ومع ذلك لا تعرف حقيقة أصلك الشركسي.

تنهدت بضيق.

كان هذا الموضوع يوقظ في داخلي أسئلة كنت أخشى سماعها أكثر مما أخشى الإجابة عنها.

قلت بلهجة حاسمة : يا صديقي، لماذا تصر على هذه النغمة؟ أنا لست شركسيًا، وهذا أمر نهائي، فلا تعد إليه.

نظر إليّ أوتار طويلًا.

ثم قال بهدوء : هل أغضبك حديثي ؟

أطرقت رأسي قليلًا.

بعض الشيء.

ثم ابتسمت ابتسامة خافتة.

ولا أحب أن أفقد صداقتك بسبب حديث عن رجل ربما لم يوجد أصلًا.

ابتسم أوتار وقال : ولا أنا يا ستيفان.

ثم أشار بيده إلى الأفق وقال :

حسنًا، لنتحدث في شيء آخر. يقال إن تمردًا وقع في موسكو العام الماضي؟

أجبت : أجل.

وما سبب ذلك التمرد ؟

تنهدت طويلًا.

كانت السياسة تشبه المستنقعات؛ كلما اقترب منها الإنسان غاص أكثر.

قلت : الحقيقة أن أبانا القيصر أليكسي ميخايلوفيتش شديد الضعف أمام كبار ملاك الأراضي، من الأمراء والنبلاء وأفراد الأسرة الحاكمة.

وتابعت : هؤلاء يحيطون به من كل جانب حتى أصبح أسيرًا لنفوذهم، يسمع أصواتهم أكثر مما يسمع أصوات الشعب.

هز أوتار رأسه وقال :

ـــما يلقاه الفلاحون في روسيا كلها أبشع من ذلك يا صديقي.

ثم أضاف : الفلاح هنا لا يزيد عن كونه عبدًا يحمل اسمًا مختلفًا.

كانت الريح تزداد برودة.

وأخذت كلماته تتسلل إلى رأسي كما يتسلل الماء إلى شقوق الجدار القديم.

قال أوتار : يولد الفلاح على أرض السيد، ويعمل في أرض السيد، ويموت في أرض السيد، ثم يرث أبناؤه عبوديته كما يرثون اسمه.

سكت قليلًا.

حتى الأحلام أصبحت ملكًا للنبلاء.

قلت : ـــ لكن التمرد الأخير منح الفلاحين بعض الحقوق.

ابتسم أوتار بسخرية حزينة.

الحقوق التي يمنحها الأقوياء للفقراء تشبه الفتات الذي يلقى للطيور؛ يبقيها حية لكنه لا يجعلها حرة.

ساد الصمت بيننا.

كان الليل يهبط ببطء.

وفي مكان بعيد بدأ أحد الجنود يعزف لحنًا حزينًا على الناي. ذلك النوع من الألحان الذي يجعل الإنسان يشتاق إلى أشياء لم يعرفها قط.

قال أوتار فجأة :

أخبرني يا ستيفان، هل تتذكر طفولتك ؟

ارتبكت.

لم يكن السؤال صعبًا، لكنه كان موجعًا.

قلت : قليلًا.

وأين ولدت ؟

لا أعلم على وجه اليقين.

رفع حاجبيه.

لا تعلم ؟

أجبت بصوت خافت :

كل ما أعرفه أن القس الذي رباني أخبرني أن والدي ماتا في إحدى الغارات، وأنه وجدني طفلًا صغيرًا بين القتلى.

صمت أوتار.

أما أنا فقد شعرت بشيء قديم يتحرك في صدري. ذكريات مشوشة. صوت امرأة تغني بلغة لا أفهمها. رائحة دخان. فرس تركض. وجبل بعيد يختفي تحت الثلج.

هل كانت تلك ذكريات حقيقية ؟ أم مجرد أحلام صنعتها الوحدة ؟

قال أوتار :

وهل أخبرك القس باسم عائلتك ؟

لا.

أو باسم قريتك ؟

لا.

أو باسم أبيك ؟

هززت رأسي.

فقال بهدوء : إذن كيف أنت متأكد أنك روسي ؟

لم أجب.

لأنني للمرة الأولى منذ سنوات طويلة لم أملك جوابًا. لقد كنت روسيًا لأن الجميع قالوا إنني روسي.كنت روسيًا لأنني صليت في الكنيسة الروسية. وتحدثت اللغة الروسية. وخدمت في جيش القيصر الروسي.

لكن هل تكفي اللغة لتصنع الإنسان ؟ وهل تكفي الراية ليولد الانتماء ؟

أدركت فجأة أن الإنسان قد يعيش عمرًا كاملًا داخل اسم ليس اسمه.

قال أوتار بصوت هادئ : يا ستيفان، لا أخبرك أنك شركسي لأنني أريد زيادة عدد الشركس في الدنيا.

ثم ابتسم.

الدنيا مزدحمة بالبشر أصلًا.

و أردف : لكنني رأيت فيك شيئًا أعرفه جيدًا. رأيت رجلًا يبحث عن باب في داخله ولا يجد المفتاح.

ظللت صامتًا.

وكان الليل يزداد عمقًا.

قال أوتار : أتدري ما أقسى أنواع الفقر ؟

قلت : فقر المال ؟

هز رأسه.

فقر الجذور.

ثم أضاف : الرجل الذي لا يعرف من أين جاء، يظل خائفًا من أين سيذهب.

تسللت كلماته إلى داخلي كما تتسلل النار إلى الحطب اليابس.

ولأول مرة شعرت بالخوف. ليس خوف الجندي من المعركة. ولا خوف الإنسان من الموت. بل خوف الرجل من أن يكتشف أن حياته كلها بنيت فوق رواية كتبها الآخرون له.

رفعت بصري إلى السماء. كانت النجوم تلمع فوقنا في صمت عظيم. وخطرت لي فكرة غريبة :

ربما كانت النجوم نفسها لا تعرف لماذا وضعت في أماكنها. وربما كانت هي الأخرى تبحث عن أصلها في ظلمة الكون.

قلت بعد صمت طويل :

وإذا اكتشفت يومًا أنني شركسي فعلًا، ماذا سيتغير ؟

ابتسم أوتار.

ربما لا يتغير شيء.

ثم نظر إلى النجوم.

وربما يتغير كل شيء.

سألته : وكيف أعرف ؟

قال :

ابحث.

وأين أبحث ؟

أجاب : في الوجوه القديمة، وفي الحكايات المنسية، وفي القرى التي أكلها الزمن.

ثم أضاف : وأهم من ذلك كله... ابحث في قلبك.

ضحكت :

وهل القلوب تعرف الأنساب ؟

ابتسم وقال : القلوب تعرف أشياء تعجز عنها الخرائط والسجلات والملوك.

هب النسيم البارد. وتمايلت النيران الصغيرة أمامنا.

وفي تلك اللحظة شعرت أن حياتي انقسمت إلى نصفين :

نصف عاش قبل هذا الحديث. ونصف سيبدأ بعده.

وربما كانت هذه هي طبيعة الكلمات العظيمة ؛ إنها لا تطرق الأبواب، بل تدخل مباشرة وتعيد ترتيب الأثاث داخل الروح.

وقف أوتار وربت على كتفي.

وقال : تأخر الوقت يا صديقي.

ثم ابتسم ابتسامته المعتادة.

وغدًا لدينا تدريب قاسٍ، سواء كنت روسيًا أو شركسيًا.

ضحكت وأنا أنهض.

وسرنا معًا نحو عنابر الجنود. لكنني كنت أعلم أن شيئًا ما بقي جالسًا هناك فوق جذع الشجرة تحت السماء الباردة.

شيئًا يشبه السؤال. والأسئلة يا صديقي، كالبذور؛ قد تنام أعوامًا طويلة تحت التراب، لكنها لا تموت.

وفي تلك الليلة، حين أغمضت عيني فوق فراشي العسكري الخشن، لم أر الحامية ولا البنادق ولا رايات القيصر.

رأيت جبالًا بعيدة يغطيها الثلج. ورأيت فارسًا مجهول الوجه يلتفت نحوي من فوق جواده. ثم سمعت صوتًا بعيدًا لا أعرف إن كان صوت الريح أم صوت الذاكرة :

ابحث عن اسمك الأول يا ستيفان...

وللمرة الأولى في حياتي، لم أكن متأكدًا أن اسمي هو ستيفان بالفعل. فبعض الناس يولدون مرتين :

مرة حين تلدهم أمهاتهم ، ومرة حين يعثرون على حقيقتهم.

أما الذين يموتون قبل أن يعرفوا من يكونون، فإنهم يعيشون غرباء حتى في أوطانهم.

ولعل الإنسان يستطيع احتمال الجوع والفقر والحروب ، لكنه يعجز طويلًا عن احتمال سؤال واحد يهمس له كل ليلة:

من أنا ؟

ثلاثة روبلات وثلاثة أرواح

لم ينلوا هنا شيئاً .

كانت تلك العبارة القصيرة أشبه بحجر سقط في بئر سحيقة ، فتردد صداه في أعماق النفوس أكثر مما تردد في فضاء السهوب الروسية الواسعة. لا شيء تغيّر، ولا شيء تبدّل، وكأن الأعوام التي اشتعلت فيها البلاد أملاً وغضباً قد مرّت كريح شتوية عابرة لا تترك وراءها سوى الثلج وآثار الأقدام المنطمسة.

وهنا أيضاً خسر الفلاحون كل شيء.

فبعد شهرين فقط من الحقوق القليلة التي ظفروا بها إثر تمرد عام 1648، عادوا إلى قيودهم القديمة ، وعاد السادة يضعون أيديهم على الرقاب كما يضعونها على الأرض والدواب والمخازن. صار الفلاح يُورث كما تُورث الأبقار، ويُباع كما تباع الخيول، ويُحسب ضمن موجودات الضيعة كما تُحسب الأشجار والآبار وأكوام القش.

وكانت تلك الحقيقة تجرح الروح أكثر مما يجرحها الجوع.

قال الرجل الجالس إلى جوار النار ، وقد انعكس وهجها الأحمر على قسمات وجهه المتعب :

لقد رأى أخي مورين ذلك بعينيه ، لا عن سماع ولا عن رواية رجال الطرقات.

ساد الصمت لحظة.

كانت النار تتلوى في الموقد كأفعى حمراء ، بينما أخذت الريح تعصف خارج الكوخ الخشبي، فتئن الألواح القديمة وكأنها تشارك البشر شكواهم.

تابع الرجل بصوت خافت :

رأى الأمير دولوجوروكي بنفسه يطلق النار على ثلاثة من الفلاحين، بعدما اتهمهم مدير إحدى ضياعه بسرقة بعض غرائر القمح.

ارتجفت النار فجأة، أو هكذا خُيل إليّ.

وأكمل : جمعهم الأمير في ساحة القرية، وكان الثلج يغطي الأرض حتى بدا العالم كله ككفن أبيض واسع. وقف الفلاحون الثلاثة حفاة الرؤوس، ترتجف أيديهم من البرد والخوف، بينما وقف أهل القرية بعيداً، صامتين كأن ألسنتهم جُمّدت في أفواههم.

كان الأمير يمتطي جواداً أسود ضخماً، ويلبس معطفاً من الفرو الثمين، تحيط بقبعته حافة من السمور النادر، أما عيناه فكانتا جامدتين كجليد الأنهار في يناير.

صاح بغضب متعالٍ :

أكنتم تعلمون أنكم تسرقون أموالي ؟

ثم ضرب بسوطه ركبة جواده وأضاف :

أنا سيدكم، الأمير دولوجوروكي ، صاحب حق الحياة والموت عليكم.

لم يكن يتكلم كما يتكلم البشر مع البشر ، بل كما يتحدث مالك إسطبل إلى دوابه.

رفع أحد الفلاحين رأسه المرتجف وقال باكياً :

يا مولاي الأمير... كان أولادنا يموتون جوعاً وبرداً. لم نرد ذهباً ولا فضة، كل ما أردناه حفنة قمح نطعم بها صغارنا ليكفوا عن البكاء.

وللحظة قصيرة ، خُيل لبعض الواقفين أن قلب الأمير قد يلين.

لكن القلوب التي اعتادت السلطة الطويلة تصبح أحياناً أصلب من الصخر، وأبرد من الحديد.

ابتسم الأمير ابتسامة خشنة و قال ساخراً :

لو طلبتم مني مالاً لأعطيتكم ما تريدون.

ثم مال قليلاً إلى الأمام وأردف :

أليس يكفي أن يحصل كل واحد منكم على روبل واحد ؟

رفع الفلاح رأسه فجأة ، وكأن شعاعاً من الرجاء قد تسلل إلى قلبه رغم كل شيء.

قال بصوت متهدج :

يا مولاي ، هذا أكثر مما كنا نأمل.

تبادل الفلاحون الثلاثة النظرات. ولعلهم في تلك اللحظة رأوا أبناءهم يلتفون حول الموقد الصغير في أكواخهم الباردة ، ولعلهم تخيلوا الخبز يعود إلى الموائد ، والدفء يعود إلى الأكف الصغيرة الزرقاء من شدة الصقيع.

لكن الرجاء أحياناً يكون أقصر عمراً من شرارة.

قال الأمير:

حسناً... قفوا صفاً واحداً، وليفتح كل منكم يده لأضع فيها الروبل.

وقف الرجال الثلاثة متجاورين.

فتحوا أكفهم المرتجفة.

كانت الأكف خشنة ومتشققة من العمل في الحقول ، أكفاً حفرت الأرض وزرعت القمح وحصدته ، لكنها لم تذق منه إلا القليل.

أشار الأمير إلى الحرس إشارة صغيرة يعرفون معناها.

ثم دوّى الرصاص. رصاصة... ثم ثانية... ثم ثالثة... وسقط الرجال الثلاثة دفعة واحدة فوق الثلج. امتزج الأحمر بالأبيض.

ودخل الصمت إلى الساحة كما يدخل الليل إلى الغابات.

لم يصرخ أحد. لم يتحرك أحد.

حتى الريح بدت وكأنها توقفت لحظة احتراماً لهول ما حدث.

نظر الأمير إلى الجثث، ثم انفجر ضاحكاً.

قهقه بصوت عالٍ حتى مال رأسه إلى الخلف.

وقال:

لقد خسرت لتوي ثلاثة روبلات.

ثم هز كتفيه متصنعاً الأسى :

فكل رصاصة من هذه الرصاصات الثلاث تساوي روبلاً كاملاً.

وتابع ضاحكاً :

يا إلهي... ثلاثة روبلات !

ثم أضاف :

لو بعت هؤلاء الفلاحين أحياء لحصلت على عشرة روبلات في كل واحد منهم.

وأشار بيده إلى البيوت قائلاً: فليبيعوا أبناءهم ويأتوني بثمنهم.

ساد الصمت داخل الكوخ. حتى النار بدت وكأنها انكمشت داخل الموقد. شعرت أن الهواء صار أثقل من أن يُستنشق.

أما أوتار، فقد ظل يحدق في اللهب طويلاً قبل أن يقول:

يا للبشاعة...

ثم رفع عينيه فجأة نحوي :

هل كنت من بين رجال الأمير الذين أطلقوا النار على الفلاحين ؟

شعرت وكأن السؤال سكين بارد استقر في صدري.

قلت بهدوء : كلا.

ثم أضفت بعد صمت :

لكن أخي مورين كان بينهم.

تغير وجه أوتار.

تابعت : لا تلُمه يا أوتار... لقد كان جندياً مأموراً.

ضحك أوتار ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

قال : أجل، ولو رفض لعلقه الأمير على المشنقة.

ثم نهض واقفاً وراح يمشي داخل الغرفة الضيقة.

أي حياة هذه يا رازين ؟

كان صوته يزداد حرارة مع كل كلمة.

ذل وهوان وأوامر بالقتل لا تنتهي... الإنسان يولد عبداً، ويعيش عبداً، ويموت عبداً، ثم يرث أبناؤه عبوديته كما يرثون اسمه.

لم أجب. كنت أنظر إلى النار في بعض الأحيان يكون الصمت أصدق من الكلام.

قال أوتار : هل أنت راضٍ بهذه الحياة ؟

رفعت رأسي إليه ببطء. قلت : يا عزيزي أوتار... نحن جنود.

وتوقفت قليلاً.

وما الذي يستطيع الجندي أن يفعله ليغير العالم ؟

لكنني ، وأنا أنطق الكلمات ، كنت أشعر بثقلها في فمي.

كنت أعلم أنني لا أتكلم مع أوتار وحده.

كنت أجادل نفسي.

كنت أحاول إقناع الرجل المختبئ في داخلي بأن العجز قدر، وأن الطاعة نجاة، وأن الإنسان أصغر من أن يواجه الجبال.

لكن شيئاً ما في داخلي كان يرفض التصديق.

كم مرة رأيت فلاحاً يُجلد حتى سال دمه على التراب ؟ كم مرة رأيت أطفالاً يبحثون عن قشور البطاطا بين القمامة ؟ كم مرة رأيت الأمهات يبعن آخر ما يملكن ليشترين الخبز ؟ وكم مرة أقنعت نفسي أن ذلك ليس شأني ؟

إن الإنسان لا يعتاد الظلم دفعة واحدة. بل يعتاده كما يعتاد البرد في الشتاء الطويل. يوماً بعد يوم. وصمتاً بعد صمت. حتى يصبح المنكر مألوفاً، والمألوف قانوناً، والقانون قدراً لا يناقش.

كنت أريد أن أقول كل هذا.

لكن الكلمات بقيت سجينة خلف أسناني.

غير أن أوتار لم يكن يعرف الخوف كما أعرفه.

صاح فجأة : هذا ظلم !

التفت نحوه مذعوراً. كانت الكلمة خطيرة. الكلمات في تلك الأيام كانت أحياناً أكثر فتكاً من السيوف.

خفضت صوتي : اخفض صوتك.

لكنه لم يبال. اقترب مني وقال : قلها يا رازين.

ثم ضرب الطاولة بقبضته : قلها !

رفعت عيني إليه.

كانت عيناه تشتعلان.

قال : وهل نملك ظلماً أبشع من هذا ؟

سكت قليلاً ثم تابع :

بل نملك الكثير لو أردنا.

وأردف بصوت أكثر هدوءاً:

المحزن يا صديقي أن كثيرين منا لا يريدون.

استقرت كلماته في صدري كالجمر. لا يريدون...

هل كان محقاً ؟ أم أن الناس لا يعجزون عن التغيير بقدر ما يخافون ثمنه ؟

فالحرية شجرة لا تنبت في أرض الخوف. والعدل لا يولد من رحم الصمت. والطغيان لا يعيش بقوة الطغاة وحدهم، بل بخوف المظلومين أيضاً.

نظرت عبر النافذة الصغيرة. كان الثلج يهبط ببطء فوق الأرض المظلمة. كل شيء أبيض. كل شيء هادئ. لكنني كنت أشعر أن شيئاً ما يتحرك تحت ذلك البياض كله. كما يتحرك النهر تحت الجليد. وكما تتحرك البذور في أعماق التراب قبل الربيع.

ربما تستطيع السلطة أن تؤجل الغضب. وربما تستطيع أن تخيفه. لكنها لا تستطيع قتله.

فالجوع يتذكر. والدم يتذكر. والأمهات لا ينسين أبناءهن. والأرض تحفظ خطوات الذين سقطوا عليها.

ظللت أفكر في الفلاحين الثلاثة. في أكفهم المفتوحة انتظاراً للروبل. وفي الرصاص الذي استقر فيها بدلاً من النقود.

يا لسخرية الدنيا.

كم مرة يمد الفقير يده طلباً للخبز، فلا يجد إلا القسوة ؟ وكم مرة يعد الأقوياء بالرحمة، ثم يمنحون الموت ؟

قال أوتار فجأة : أتدري ما أخشاه يا رازين ؟

قلت : ماذا ؟

قال :

أن يأتي يوم يعتاد فيه الناس رؤية الظلم حتى لا يعودوا يرونه.

ثم أضاف :

عندها لا يكون الموت في الأجساد، بل في الأرواح.

لم أجب.

لأنني كنت أخشى أن يكون ذلك اليوم قد بدأ بالفعل.

في الخارج كانت الريح تعصف بالسهوب البعيدة. أما في الداخل، فقد كانت عاصفة أخرى تبدأ رحلتها الطويلة داخل قلبي.

وكنت أعلم ، للمرة الأولى ربما ، أن الإنسان قد يهرب من أعدائه، لكنه لا يستطيع الهرب طويلاً من ضميره.

ستيفان رازين
الرجل الذي خرج من ظلّ اسمه ليحارب عرش القيصر

كان للرجل اسمان ، كما لو أن القدر نفسه لم يستطع أن يقرر لأي عالم ينتمي. ستيفان رازين... ونظام الدين الأصفهاني...

اسمان لرجل واحد ، غير أن بين الاسمين بحاراً من الدم ، وصحارى من النسيان، وجبالاً من الأسرار المدفونة تحت ثلوج الشمال وحرائق الجنوب.

ذلك الرجل الذي أوشكت ثورته العاتية أن تزلزل عرش قياصرة آل رومانوف ، وأن تجعل الريح تعوي في أروقة القصور الإمبراطورية كما تعوي الذئاب في ليالي السهوب الموحشة.

وقد عرفناه يوم كان لا يزال صف ضابط في حرس القيصر، شاباً قوي الساعد ، مستقيم القامة، يلمع الولاء في عينيه كما يلمع حد السيف تحت شمس الشتاء الباهتة.

كان يؤمن بالدولة كما يؤمن المؤمن بصلاته. ويؤمن بالقيصر كما يؤمن الابن بأبيه. ويؤمن بالنظام كما يؤمن الجندي بأن النجوم نفسها لا تسير إلا بأمر قائد خفي.

في إحدى المهمات الرسمية أوفدته القيادة إلى الحامية الروسية في أرض القوزاق ، عند تخوم الفولجا والدون، حيث الأرض هناك لا تعرف السكون ، والناس يولدون على ظهور الخيل قبل أن يتعلموا المشي على التراب.

وكانت السهوب تمتد بلا نهاية ، حتى ليخال المرء أن الله حين خلقها نسي أن يضع لها حدوداً.

هناك نزل ضيفاً على مقاتل قوزاقي يدعى أوتار، رجل عركته الحروب كما تعرك الأمواج صخور الشواطئ.

كان أوتار طويل الصمت ، حاد النظرات ، وإذا نظر إلى وجه إنسان بدا كأنه يقرأ ما وراء الجلد والعظم.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت النار ترقص في الموقد ، والريح تضرب جدران المنزل الخشبي، ظل أوتار يحدق في وجه ضيفه طويلاً. طويلاً حتى شعر ستيفان بشيء من الضيق.

ثم قال القوزاقي بصوت خافت :

أتعرف يا ستيفان... إن بعض الوجوه لا تكذب مهما كذب أصحابها.

ابتسم ستيفان وقال : و هل كذبت عليك في شيء ؟

هز أوتار رأسه ببطء.

ليس أنت من يكذب... بل التاريخ.

ساد الصمت. حتى النار بدت كأنها توقفت عن الهمس.

ثم قال أوتار وهو يقترب منه :

ابحث عن أصلك يا ستيفان رازين... أكاد أجزم أنك شركسي مسلم مثلي... ابحث عن أصلك.

ضحك ستيفان يومها ضحكة قصيرة. ضحكة الرجل الواثق من نفسه ومن جذوره ومن الأسماء المكتوبة في سجلات الكنائس.

وقال ساخراً :

وهل أصبحت تعرف الأنساب أيضاً يا أوتار ؟

لكن الرجل لم يبتسم ظل ينظر إليه بعينين جادت عليهما الحياة بالكثير من الحروب والقليل من الأوهام.

و قال :

هناك أشياء لا تحتاج إلى وثائق... الدم يعرف أهله، حتى لو ضاع الاسم.

مرت السنوات بعد ذلك اللقاء. لكن الكلمات الغريبة بقيت كامنة في مكان ما من ذاكرته، مثل جمرة صغيرة تحت الرماد.

وكان يحدثنا قائلاً :

لم أغل بالي كثيراً بما قاله أوتار ، ولم يدفعني فضولي إلى البحث عن أصلي كما نصحني.

وتنهد طويلاً. ثم تابع :

قلت لنفسي : إنها أمور عفا عليها الزمن ، ولو كنت من أصل شركسي مسلم كما زعم ، لأخبرني جدي أو جدتي بذلك منذ زمن بعيد.

وصمت لحظة.

كنت أقول لنفسي بثقة : أنا روسي أرثوذكسي أباً عن جد ، وجندي في خدمة القيصر، وما عدا ذلك مجرد أوهام ينسجها أهل الحدود.

لكن الإنسان كثيراً ما يكذب على نفسه حين يخاف الحقيقة. وكان ستيفان يخاف الحقيقة دون أن يدري.

قال : ومع ذلك... كلما سافرت إلى مناطق الفولجا والدون السفلى، كنت أسأل عرضاً عن أسرة كانت تعيش هناك تحمل اسم الأصفهاني.

ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

أسأل سؤال من لا ينتظر جواباً، ولا يريد جواباً. وكان الناس يهزون رؤوسهم. بعضهم لم يسمع بالاسم قط. وبعضهم كان يصمت فجأة. والبعض الآخر كان يغير الحديث كما لو أنه لمس جمرة مشتعلة.

وحين لم يجد جواباً، قرر أن يدفن السؤال كله. أن يلقيه خلف ظهره. أن يمضي في حياته كما يمضي الجنود دائماً، فالجندي الذي يحمل فوق كتفيه عبء الأسئلة لا يستطيع أن يحمل البندقية جيداً.

لكن الأسئلة تشبه البذور البرية. قد تدفنها عميقاً، لكنها تجد طريقها إلى الضوء مهما طال الزمن.

وقال بصوت خافت :

وصدقاني يا أبنائي... إن الشك في الأصل عذاب لا يعرفه إلا من ذاقه.

ثم رفع عينيه نحونا.

إنه شعور مرير... شعور الإنسان الذي يخشى أن يكون غصناً اقتلع من شجرته وألقي في أرض غريبة.

وأردف : الإنسان يستطيع احتمال الفقر والجوع والمنفى، لكنه يعجز عن احتمال الضياع.

ثم سكت طويلاً. وكان الصمت أبلغ من الكلام. قبل أن يقول :

ثم وقع ما قلب حياتي رأساً على عقب.

رفع رأسه ببطء.

تحولت من صف ضابط شديد الإخلاص للقيصر وأسرته ونظامه، إلى رجل رصد القيصر مكافأة عظيمة لمن يأتيه برأسه.

نظرنا إليه في دهشة.

وسألناه : أكان ذلك لأنك اكتشفت أنك شركسي مسلم ؟ وأن القيصر قضى على أسرتك وباع أطفالها في أسواق الرقيق ؟

هز رأسه نافياً.

وقال : لا...

ثم أعاد الكلمة ببطء.

لا... لم أعاد القيصر في البداية لهذا السبب.

وأطبق أصابعه على بعضها.

بل بسبب ما حدث لأخي.

قلنا بدهشة : كان لك أخ ؟

ابتسم ابتسامة شاحبة. ابتسامة رجل يفتح باباً قديماً في قلبه. كان أصغر مني بست سنوات. ثم أغمض عينيه كأنه يراه أمامه. كان وسيماً بصورة تثير غيرة الرجال وإعجاب النساء. وكانت له ابتسامة تجعل الغرباء يطمئنون إليه قبل أن يعرفوا اسمه. أما صوته فكان دافئاً إلى حد أن الناس كانوا ينسون نصف غضبهم بمجرد أن يتحدث.

وتوقف قليلاً.

كان اسمه مورين.

خرج الاسم من شفتيه كما تخرج الصلاة من قلب عجوز.

وكان مثلي صف ضابط.

ثم ابتسم بأسى. بل كان أفضل مني.

سألناه : أكان في حرس القيصر أيضاً ؟

قال : لا... كان في حرس الأمير دولوجوروكي.

ثم نظر إلينا.

وأظنكما قرأتما شيئاً عن ذلك الأمير. كان اسم الأمير معروفاً في أرجاء الإمبراطورية. رجل ولد وفي يده السوط. وكان يؤمن أن الرحمة مرض يصيب الحكام الضعفاء. كان يرى الفلاحين دواباً تتكلم. ويرى الجنود حطباً للحروب. ويرى البشر أرقاماً يمكن حذفها دون أن يتغير شيء في العالم.

قال ستيفان : كان أخي يقول دائماً إن الأمير لا يبتسم إلا عندما يعاقب أحداً.

ثم ضحك ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

وكنا نظن أنه يبالغ. لكن الأيام أثبتت أن الطغاة لا يحتاجون إلى المبالغة كي يبدوا مرعبين. فالظلم حين يبلغ كماله يصبح أعظم من الخيال.

في أحد الأيام، تأخر مورين عن تنفيذ أمر عسكري بسبب مرض أصابه أثناء الخدمة. حمى شديدة أسقطته أرضاً. ورغم ذلك أمر الأمير بإحضاره إلى ساحة المعسكر. كان الجنود مصطفين. والثلج يتساقط ببطء.

أما مورين فكان بالكاد يقف على قدميه.

سأله الأمير ببرود : هل عصيت أمري ؟

قال مورين بصوت متعب : كنت مريضاً يا سيدي.

قال الأمير : المرض ليس عذراً للعصيان.

ثم أصدر حكمه. جلد أمام الجنود. جلد حتى تمزق ظهره. جلد حتى اختلط الدم بالثلج. جلد حتى صار لون الأرض أحمر.

وكان ستيفان هناك. يشاهد. ويقف في مكانه كتمثال من حجر. كان يريد أن يصرخ. أن يركض. أن يقتل الأمير في مكانه.

لكن الجندي الذي تربى على الطاعة يخشى أوامره أكثر مما يخشى ضميره.

وكان ذلك أول يوم يكتشف فيه أن الطاعة قد تكون نوعاً آخر من الجبن.

قال بصوت مرتجف : في تلك الليلة مات أخي.

ثم ساد الصمت. صمت ثقيل حتى إننا سمعنا صوت الحطب وهو ينكسر في الموقد.

وأكمل : مات بسبب السياط، لا بسبب المرض. وماتت معه أشياء كثيرة داخلي. مات إيماني بعدالة الدولة. وماتت ثقتي بالنبلاء. ومات الرجل الذي كنت عليه.

ثم أطرق رأسه.

+

في صباح اليوم التالي وقفت أمام المرآة ، فرأيت وجهاً أعرفه ، لكنني لم أعرف الرجل الذي يحمله.

وأضاف : منذ ذلك اليوم بدأت أسأل نفسي سؤالاً واحداً.

رفع رأسه نحونا.

إذا كان هذا هو العدل الذي يدافع عنه القيصر، فلماذا أدافع عنه أنا ؟

كان السؤال بسيطاً. لكن بعض الأسئلة البسيطة تملك قوة المدافع.

ومنذ ذلك اليوم بدأ الجندي المطيع يموت ببطء. وبدأ الثائر يولد ببطء. فالثورات لا تبدأ في الشوارع. إنها تبدأ داخل قلب إنسان واحد. داخل لحظة صغيرة من الظلم. داخل قبر أخ. أو دمعة أم. أو صرخة طفل جائع.

وهكذا بدأ ستيفان رازين رحلته الطويلة. رحلة البحث عن أخيه. وعن عدالة ضائعة. وعن اسم مفقود. وعن وطن لم يعرف بعد إن كان يسكن الأرض أم يسكن الذاكرة.

وكان القدر يبتسم في مكان ما من الظلام. لأنه كان يعرف ما لم يعرفه الرجل بعد. كان يعرف أن ستيفان رازين لم يكن يبحث عن أصله فحسب. بل كان يبحث عن نفسه. والإنسان إذا خرج يبحث عن نفسه، فقد يعود حكيماً... وقد يعود ثائراً... وقد يعود حريقاً يمشي على قدمين.

على حافة العدم
حكاية رازين مع آل دولوجوروكي

لمع ضوء الموقد الخافت على جدران الغرفة الحجرية ، فتراقصت الظلال كأنها أرواح قديمة خرجت من سباتها الطويل لتصغي إلى الحكاية. كان الليل الروسي يضغط على النوافذ ببرودته الثقيلة، بينما أخذ الثلج يتساقط خلف الزجاج في صمت يشبه صلاة بعيدة لا يسمعها إلا الله والغرباء.

جلس رازين متكئاً إلى كرسيه الخشبي العتيق، وفي عينيه بريق رجل عاش أكثر من عمره، ورأى من تقلّبات البشر ما يكفي ليؤمن أن التاريخ لا يعيد نفسه فحسب، بل يسخر ممن يظنون أنهم نجوا من دروسه.

ابتسم ابتسامة عابرة وقال في مرح ممزوج بشيء من الأسى :

لا شك أن إيفان دولوجوروكي، زوج الأميرة كاتيا وخليل القيصر، كان الحفيد الثالث أو الرابع لدولوجوروكي الأول. أما كاتيا تلك، فهي المرأة التي حكمت روسيا من وراء معطف القيصر نيقولا الأول، وإن كان الناس يظنون أن العروش لا تعرف إلا الرجال.

ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال :

ولكن كل ذلك حدث بعد عهدي بقرون طويلة. ففيقولا حكم في بدايات القرن التاسع عشر، أما ثورتي فقد كانت في القرن السابع عشر، وبيننا وبينهم قرنان كاملان من الثلج والدم والقبور.

ساد الصمت لحظة، ثم أضاف وهو يحدق في النار :

ومع ذلك ، يبدو أن بعض الصفات تسافر عبر الزمن كما تسافر الأنهار عبر البلاد. الخيانة الزوجية ، مثلاً ، كانت متأصلة في تلك الأسرة على نحو يدعو إلى الدهشة. التشابه بين الرجلين شديد، وبين زوجتيهما أشد، لا في الأسماء وحدها، بل في الطباع أيضاً، كأن الدم يحتفظ بأسراره أكثر مما يحتفظ البشر بذكرياتهم.

رفعت الصديقة حاجبيها في دهشة وقالت :

أتقصد أن الخليلتين حملتا الاسم نفسه ، كاتيا، رغم هذا الفارق الهائل في الزمن ؟

ابتسم رازين ابتسامة هادئة و قال :

كاتيا ليست إلا تدليلاً لاسم كاترين. وكاترين، كما تعلمين يا ابنتي ، اسم يملأ روسيا كما يملأ الثلج سهولها. يزعم الروس أن القديسة كاترين كانت روسية الأصل ، ومن مدينة كييف على وجه الخصوص ، ولهذا كان أهل كييف يتفاءلون بالاسم ويمنحونه لبناتهم أملاً في البركة والحظ الطويل.

ثم صمت قليلاً وأردف :

والغريب أن الناس يمنحون أبناءهم أسماء القديسين طمعاً في الفضائل، ثم ينسون أن الفضيلة لا تورثها الأسماء ، بل تصنعها القلوب.

هزت الصديقة رأسها مفكرة، ثم سألت :

وماذا عن أخيك مورين ؟ كيف تحول صف ضابط في حرس الأمير دولوجوروكي إلى السبب الذي جعلك تحمل راية الثورة ضد القيصر ؟

تغير وجه رازين فجأة ، وانطفأت في عينيه تلك الشرارة الساخرة التي كانت تلمع منذ قليل. بدا كمن فتح باباً قديماً في ذاكرته فاندفع منه هواء الشتاء بكل قسوته.

قال بصوت منخفض :

كما أخبرتكما ، كان أخي مورين وسيماً على نحو يثير حسد الرجال وافتتان النساء. كانت النساء يحببنه من النظرة الأولى، وكأن الله وضع في ملامحه شيئاً من فتنة الربيع الذي لا يدوم في بلادنا إلا أياماً معدودات.

ابتسم ابتسامة شاحبة وأضاف :

وكانت له مغامرات لا يكف الجنود عن ترديدها في المعسكرات ، حتى ظن بعضهم أن النساء يأتين إلى الثكنات بحثاً عنه لا عن أزواجهن.

ضحكت الصديقة ، لكن رازين لم يشاركها الضحك.

ظل ينظر إلى النار قبل أن يقول :

أما أنا، فكنت أعيش في بيت على حافة العدم.

اتسعت عينا الصديقة دهشة.

حافة العدم ؟

أومأ برأسه.

أجل. في أطراف موسكو ، حيث تبدأ أرض المقابر وتنتهي المدينة. إذا فتحت نافذة البيت صباحاً فلن ترى أشجاراً ولا حقولاً ولا أطفالاً يركضون في الأزقة، بل صفوفاً من الشواهد الحجرية الممتدة حتى الأفق ، كأن الموتى هم الجيران الحقيقيون والأحياء مجرد عابري سبيل.

أطرق قليلاً ثم قال :

كنت أستيقظ أحياناً فأشعر أن المدينة كلها تنام، إلا أولئك الراقدين تحت التراب، كانوا وحدهم يبدون يقظين في صمتهم الأبدي.

هبّت ريح خلف النافذة ، فاهتز الزجاج كأن الليل نفسه يريد الإصغاء.

قال رازين :

ذات يوم جاء أخي مورين ليقضي إجازة قصيرة معي. كان الشتاء قد بدأ يفرض سلطانه ، وكانت موسكو ترتدي ثوبها الأبيض الثقيل. دخل البيت ضاحكاً كعادته ، يحمل تحت ذراعه زجاجة نبيذ فرنسي سرقها من مائدة أحد النبلاء ، وعلى كتفه معطف ضابط الحرس الإمبراطوري.

قال لي يومها : يا أخي، إن القصور أدفأ من الثكنات ، لكن الثكنات أكثر صدقاً من القصور.

ضحكت من عبارته، لكنه لم يكن يمزح.

كان يجلس قرب النافذة ويتأمل القبور ساعات طويلة ، حتى سألته ذات مساء :

أراك تنظر إلى المقبرة كثيراً، هل تخيفك ؟

ابتسم وقال : بل تريحني.

سألته متعجباً : وكيف يرتاح المرء إلى المقابر ؟

أجاب :لأن الموتى يا أخي لا يكذبون، ولا يتآمرون، ولا يخونون، ولا يبيعون أصدقاءهم مقابل حفنة ذهب أو نظرة رضا من أمير.

بقيت كلماته عالقة في ذهني سنوات طويلة.

فالإنسان لا يخاف الموت بقدر ما يخاف أن يكتشف أن الحياة كانت أقل شرفاً منه.

+

في اليوم التالي خرج مورين إلى المدينة، وعاد متأخراً على غير عادته. كان الصمت يحيط به كما يحيط الضباب بالأنهار.

سألته : ما بك ؟

أجاب بعد تردد : رأيتها.

ابتسمت قائلاً : امرأة جديدة إذن ؟

هز رأسه ببطء.

ليست امرأة ، بل كارثة ترتدي هيئة امرأة.

ضحكت وقلت : وهل للكوارث عيون زرقاء أيضاً ؟

نظر إليّ نظرة لم أر مثلها في حياته وقال :

نعم... وكانت عيناها زرقاوين.

عرفت عندها أن أخي وقع في الحب ، والحب في روسيا القيصرية لم يكن نعمة دائماً، بل كان كثيراً ما يشبه السير فوق الجليد الرقيق؛ خطوة واحدة خاطئة تكفي ليبتلعك النهر المتجمد إلى الأبد.

+

مرت الأيام، وبدأ مورين يخرج كثيراً ويعود قليلاً ، حتى جاء مساء وجلس أمامي شاحب الوجه.

قال : إنها زوجة الأمير دولوجوروكي.

شعرت كأن أحدهم ألقى دلواً من الماء المثلج فوق رأسي.

قلت بحدة : هل جننت ؟

أجاب بهدوء قاتل : ربما.

قلت : الأمراء لا يخسرون نساءهم، بل يخسر الناس رؤوسهم إذا اقتربوا منهن.

ابتسم بحزن.

القلب لا يعرف قوانين البلاط يا أخي.

قلت غاضباً : القلب الذي لا يعرف القوانين يجر صاحبه إلى المقصلة.

لكنه ظل صامتاً.

في تلك الليلة لم أنم.

كنت أسأل نفسي : لماذا يختار القدر دائماً أكثر الطرق وعورة لأولئك الذين نحبهم ؟

كان الثلج يتساقط خارج النافذة ، وكنت أشعر أن كل ندفة منه تحمل نذيراً جديداً.

+

ومرت الأسابيع. ثم جاء الجنود. لم يطرقوا الباب بل كسروه. دخلوا البيت كأنهم يدخلون أرضاً معادية، وقلبوا الأثاث، وفتشوا الغرف، وسحبوا مورين أمام عيني دون أن يسمحوا له حتى بارتداء معطفه.

صرخت : ما التهمة ؟

نظر الضابط إليّ بازدراء وقال : بعض الأسئلة لا يحق للفقراء طرحها.

لم أر أخي بعد ذلك اليوم.

أيام طويلة قضيتها أتنقل بين المكاتب والثكنات والسجون ، أبحث عن خبر أو اسم أو إشارة.

وأخيراً أخبرني رجل عجوز يعمل في السجن بالحقيقة.

كان مورين قد أعدم سراً. لا محاكمة. لا دفاع. لا شاهد قبر. فقط حفرة مجهولة في مكان مجهول.

جلس رازين صامتاً.

كانت النار قد خفتت ، وبدت الغرفة أكثر برودة.

قال بصوت مبحوح :

في تلك اللحظة مات شيء بداخلي.

كنت أظن أن الظلم حادث فردي ، فإذا بي أكتشف أنه نظام كامل ، وأن الدولة التي تخاف من حب جندي لامرأة أمير، قادرة على قتل أمة كاملة كي تحمي كبرياءها.

سألته الصديقة بهدوء : وهل كان ذلك هو السبب الذي جعلك تثور ؟

رفع رأسه ببطء. : لا.

ثم أضاف : كان الشرارة فقط.

أما الثورة الحقيقية فقد بدأت يوم أدركت أن آلاف الأمهات فقدن أبناءهن كما فقدت أخي ، وأن آلاف الرجال دُفنوا بلا أسماء، وأن العدالة في تلك البلاد كانت تشبه الشمس في الشتاء الروسي؛ موجودة في السماء لكنها لا تمنح دفئاً لأحد.

نهض واقترب من النافذة. كان الثلج ما يزال يتساقط.

قال : تعلمت شيئاً مهماً يا ابنتي.

سألته : ما هو ؟

قال : إن الطغاة يظنون أنهم يحكمون الناس بالخوف، لكنهم ينسون أن الخوف إذا طال تحوّل إلى غضب، والغضب إذا وجد من يقوده أصبح ثورة.

ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

وتعلمت أيضاً أن الحب والحرب يشتركان في شيء واحد؛ كلاهما يبدأ بسبب صغير، ثم ينتهي بأعداد لا تحصى من القبور.

سادت الغرفة لحظة صمت طويلة.

ثم قال وهو ينظر إلى المقبرة البعيدة : كنت أعيش على حافة العدم، نعم.

لكنني اكتشفت بعد سنوات أن الإنسان لا يسكن قرب المقابر حين يعيش بجوار الموتى، بل حين يعيش وسط الأحياء الذين ماتت ضمائرهم. وعندها فقط فهمت معنى الثورة.

الثورة ليست رغبة في هدم القصور، بل محاولة لبناء إنسان لا يخاف أن يحب، ولا يخاف أن يقول الحقيقة، ولا يخاف أن يدفن موتاه بأسمائهم.

أما القبور التي كنت أراها من نافذتي كل صباح ، فقد أصبحت مع الأيام معلمي الأول. فالموتى يعلموننا ما يعجز الأحياء عن تعليمه :

أن السلطة زائلة. وأن الجمال عابر. وأن الحب أقوى من السيوف. وأن التاريخ، مهما طال نومه، يستيقظ دائماً ليحاسب الجميع.

على حافة الثلج والهاوية

كان المساء الروسي يهبط بطيئاً فوق المدينة ، كراهبٍ عجوز يطوي عباءته السوداء فوق كتفي الأرض. وفي الخارج كانت الثلوج القديمة تستسلم لبرودة جديدة ، بينما تتسلل الريح بين الأزقة الضيقة كأنها أرواح الجنود الذين سقطوا في حروب الإمبراطورية المنسية.

جلست قرب النافذة الخشبية الصغيرة في منزلي المتواضع ، أتأمل وهج المصباح الزيتي وهو يرتجف فوق الطاولة كقلبٍ خائف. كان البيت قديماً ، بسيطاً ، وربما كئيباً في نظر الآخرين ، لكنني كنت أجد فيه شيئاً يشبه الطمأنينة التي يجدها البحار في مرفأ فقير بعد شهور من العواصف.

في تلك اللحظة دخل أخي مورين، حاملاً معه ضحكته المعهودة التي تسبقه إلى الغرفة كما يسبق البرق صوت الرعد.

ألقى نظرة سريعة حوله ، ثم فتح ذراعيه في مبالغة مسرحية وقال : ما هذا يا ستيفان ؟ أحقاً ما زلت تعيش هنا ؟

ابتسمت دون أن أرفع عيني عن النار المتقدة في الموقد.

تابع وهو يدور في الغرفة : أنت الآن صف ضابط في حرس القيصر، وراتبك كبير، ومكافآتك السنوية تكفي لشراء منزل يليق برجل في مكانتك، لا هذا العش الكئيب الجاثم على حافة العدم.

رفعت رأسي إليه أخيراً وقلت بهدوء : يا مورين، الرجل الحريص يدخر شيئاً للزمن. فالزمن ، يا أخي ، صديق كريم حين نعطيه الاحترام ، وعدو قاسٍ حين نستخف به.

قهقه بصوت مرتفع وجلس قبالتي.

هذا كلام يقوله رجل تزوج ، وصار له جيش صغير من الأولاد والبنات يخشى عليهم من قسوة الأيام. أما أنت يا ستيفان ، فأنت وحيد كآخر شجرة في سهل جليدي. بل إنني لم أسمع طوال حياتي عن مغامرة نسائية واحدة تخصك. أأنت راهب متخفٍ في زي جندي ؟

ابتسمت رغم إرادتي.

كان مورين يملك قدرة عجيبة على انتزاع الابتسامة من أكثر الوجوه عبوساً.

قلت : سأتزوج يوم أجد المرأة المناسبة.

رفع حاجبيه ساخراً : إذن ابحث عنها.

لا تُعثر الزوجات الصالحات في الحانات ولا في حفلات القصور.

لوّح بيده بازدراء مرح : ولم لا ؟ إن النساء موجودات في كل مكان ، وما على الرجل إلا أن يمد يده نحو الحياة قبل أن تمر به مسرعة كحصان بري.

قلت : بالمغامرات الرخيصة يا مورين ؟ سمعتك هذه الأيام لا ترضي كثيراً من العقلاء.

ضحك حتى كاد يختنق.

ليذهب العقلاء إلى الجحيم. لقد قضوا أعمارهم في الحساب حتى نسوا أن يعيشوا. أما أنا فأريد أن أستمتع بحياتي يا ستيفان.

أجبته وأنا أتأمل وجهه الوسيم الذي كان يحمل دائماً ذلك البريق الخطير الذي يسبق الكوارث :

لست أمنعك من ذلك يا صديقي ، ولكن لكل شيء حدود ، وأنت تتجاوز الحدود كما يتجاوز النهر ضفتيه في الربيع.

صمت قليلاً.

ثم أضفت : لقد سمعت في الأيام الأخيرة أنك على علاقة بسيدة بالغة الخطورة.

ابتسم ابتسامة واسعة. ابتسامة رجل يعرف أنه يسير نحو الهاوية، لكنه مع ذلك معجب بجمال المنظر.

قال : ومن تقصد ؟ كل النساء اللواتي عرفتهن خطيرات بطريقتهن الخاصة. من منهن تعني ؟

قلت ببطء : الأميرة كاتيا... زوجة الأمير دجولوجوروكي الذي تعمل في حرسه الخاص.

ساد الصمت لحظة.

ثم انفجر مورين ضاحكاً.

حتى هذا بلغك ؟

تأملت ملامحه جيداً.

لم تكن ضحكته ضحكة براءة. كانت ضحكة رجل وجد في الخطر متعة لا يستطيع الفكاك منها.

قلت : إذن فالأمر ليس مجرد شائعات.

هز كتفيه.

وما ذنبي أنا يا ستيفان ؟ كاتيا العزيزة تحبني حباً مجنوناً.

شعرت بانقباض غامض في صدري.

كان اسم الأميرة كاتيا يتردد في أروقة القصور كما تتردد أسماء العواصف في موانئ البحارة. امرأة فاتنة الجمال، نعم. لكن الجمال أحياناً يكون القناع الذي ترتديه المصائب.

قلت بصرامة :مورين، ابتعد عن هذه المرأة. إنها أخطر مما تتصور.

أجاب ضاحكاً : لأن زوجها أمير نافذ ؟

ليس لهذا فقط.

اقتربت منه قليلاً وخفضت صوتي :

هناك أشخاص يولدون وحولهم ظل ثقيل لا تراه العين ، لكنه يترك أثره في كل من يقترب منهم.

ابتسم ساخراً : بدأت تتحدث كالعجائز يا ستيفان.

قلت : الحكمة تشبه العجائز أحياناً؛ بطيئة الحركة، لكنها تعرف الطريق.

ساد الصمت بيننا.

+

في الخارج كانت الريح تعصف بالنوافذ بعنف.

وفجأة وجدت نفسي أتذكر الأميرة كاتيا لأول مرة. رأيتها قبل أشهر في إحدى حفلات الشتاء الكبرى في قصر الأمير. كانت ترتدي ثوباً أسود جعل بشرتها البيضاء تبدو كضوء القمر فوق الثلج.

ولم يكن جمالها هو ما أقلقني. بل عيناها. كانت في عينيها برودة غريبة، تشبه برودة البحيرات المتجمدة التي تخفي تحت سطحها الملساء أعماقاً قاتلة.

هناك وجوه جميلة تمنحك الراحة. ووجوه جميلة تجعلك ترغب في الهرب. وكان وجه كاتيا من النوع الثاني.

عاد صوت مورين يقطع أفكاري : أتعلم ما مشكلتك يا أخي ؟

نظرت إليه.

تخاف كثيراً.

ابتسمت بحزن.

وربما مشكلتك أنت أنك لا تخاف أبداً.

مال بجسده إلى الأمام.

الخوف يجعل الرجال شيوخاً قبل أوانهم.

قلت : وعدم الخوف يجعلهم موتى قبل أوانهم.

سكت قليلاً.

ثم أضاف : إنها تحبني حقاً يا ستيفان.

كانت هذه أول مرة يختفي فيها المرح من صوته.

نظرت إليه طويلاً.

كم هو غريب قلب الإنسان. أقوى الجنود يرتجفون أمام كلمة حب. وأعظم الحكماء يصبحون أطفالاً أمام امرأة تنظر إليهم بالطريقة المناسبة.

قلت بهدوء : وهل تحبها أنت ؟

تردد للحظة.

ولأول مرة رأيت الحيرة في عيني مورين.

قال أخيراً : لا أدري.

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

ربما أحب الطريقة التي تنظر بها إلي.

قلت : الرجل لا يحب المرأة دائماً، أحياناً يحب صورته في عينيها.

رفع رأسه نحوي بدهشة.

تابعت : بعض النساء يجعلن الرجل يشعر بأنه بطل، حتى لو كان جباناً، وملكاً حتى لو كان فقيراً، وخالداً حتى لو كان مجرد عابر طريق.

أشاح بنظره إلى النار المشتعلة.

وقال : إنها تعيسة مع زوجها.

تنهدت.

كم مرة سمعت هذه الجملة ؟

وكم من الرجال ضاعت أعمارهم لأنهم صدقوا أنهم جاءوا لإنقاذ امرأة من تعاستها؟

قلت : القصور يا مورين مليئة بالنساء التعيسات والرجال التعساء ، لكن التعاسة ليست تصريحاً بالخيانة.

رفع عينيه نحوي فجأة.

وهل الحب خيانة ؟

فكرت قليلاً قبل أن أجيب.

الحب ليس خيانة أبداً، لكنه قد يصبح طريقاً إليها.

ساد الصمت من جديد. وفي ذلك الصمت سمعت صوت الحطب وهو يتشقق داخل النار.

قال مورين فجأة : أحياناً أشعر أن حياتي الحقيقية تبدأ حين أكون معها.

أجبته : وكل نار تمنح الدفء تستطيع أيضاً أن تحرق.

وقف واتجه نحو النافذة.

كان الثلج يتساقط في الخارج بكثافة.

قال دون أن يلتفت إلي : هل تعلم ماذا قالت لي ذات مرة ؟

ماذا ؟

قالت إن القصور الكبيرة ليست سوى سجون مغطاة بالحرير.

بقيت صامتاً.

لأنني كنت أعرف أن في كلامها شيئاً من الحقيقة. فالذهب لا يجعل القفص أقل قسوة.

قال مورين : قالت إنها تشعر بالاختناق.

أجبته :

والناس حين يختنقون يتعلقون أحياناً بأول نافذة يرونها، حتى لو كانت تطل على الهاوية.

استدار نحوي.

أنت لا تفهمها.

ابتسمت ابتسامة متعبة.

ربما لأنني لا أحاول أن أفهم العواصف يا مورين، بل أحاول فقط أن أبتعد عنها.

اقترب مني ووضع يده على كتفي.

تقلق كثيراً من أجلي.

نظرت إليه. كان أخي الأصغر. رفيق طفولتي. الشخص الذي تشاركت معه الخبز البارد وأيام الجوع وأحلام الصبا.

كيف لا أقلق عليه ؟

قلت بهدوء : لأنني أعرف العالم أكثر منك.

ابتسم.

أنت أكبر مني بثلاث سنوات فقط.

قلت : لكنها كانت ثلاث سنوات كافية لأتعلم أن الدنيا لا تعاقب الأشرار دائماً، لكنها تعاقب المتهورين غالباً.

خفض عينيه.

ثم قال بصوت خافت : ماذا لو كنت أحبها حقاً ؟

أجبت بعد صمت طويل :

إذا كان الحب يقودك إلى خيانة نفسك ، فليس حباً بل غواية. وإذا كان يقودك إلى الموت ، فاسأل نفسك جيداً : هل تموت من أجل الإنسان ، أم من أجل الوهم الذي رسمته عنه ؟

ظل واقفاً للحظات.

ثم ارتدى معطفه.

وعند الباب التفت نحوي قائلاً :

أخشى أن يكون الأوان قد فات على النصائح يا ستيفان.

شعرت بشيء بارد يمر في روحي. كان الجنود يعرفون هذا الشعور جيداً. ذلك الإحساس الغامض الذي يسبق المصائب الكبرى.

قلت : لا يتأخر الأوان أبداً على العودة.

ابتسم. لكنها لم تكن ابتسامته المعتادة. كانت ابتسامة رجل يقف في منتصف الطريق، فلا يستطيع الرجوع ، ولا يملك الشجاعة الكافية للوصول.

فتح الباب. فاندفع هواء الشتاء إلى الداخل كأنه رسول يحمل نبوءة سيئة.

قال قبل أن يغادر :هل تعلم يا أخي ؟ ربما تكون الحياة أقصر من أن نقضيها في الخوف.

أجبته وأنا أنظر إلى الظلام خلفه : وربما تكون أطول من أن نهدرها في الندم.

أغلق الباب خلفه.

وبقيت وحدي. جلست قرب الموقد من جديد.

لكن النار التي كانت قبل قليل تمنح الغرفة دفئها بدت الآن عاجزة عن طرد البرودة التي استقرت في صدري.

نظرت إلى اللهب المتراقص وقلت لنفسي : كم هي غريبة طرق القدر. بعض الناس يسيرون نحوه بخطوات مترددة فيأتيهم راكضاً. وبعضهم يركضون نحوه بكل قوتهم فلا يجدون منه إلا السراب.

أما مورين...

فقد كان يسير نحو شيء لا أستطيع رؤيته بوضوح، لكنني كنت أشعر بوجوده كما يشعر البحار بالصخور المختبئة تحت الضباب.

أحياناً لا يحتاج القلب إلى الأدلة كي يخاف. فالروح القديمة التي تسكن الإنسان تعرف أشياء تعجز اللغة عن تفسيرها.

رفعت بصري إلى النافذة.

وكان الثلج لا يزال يهطل بصمت. صمت كثيف. صمت يشبه انتظار الحرب. وصمت يشبه انتظار الفقد.

وفي تلك الليلة ، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة ، تمنيت لو كنت مخطئاً.

الة من الحرير الأحمر

كانت ليالي الشتاء في العاصمة القيصرية تنزل على القصور كستارة من المخمل الأسود ، فلا يبقى من المدينة المترامية إلا أضواء شاحبة ترتجف خلف النوافذ ، كأنها أرواح سجينة تستغيث بالصمت.

وفي تلك الليلة ، كنت أحدق في النار المتراقصة داخل الموقد الحجري ، بينما كان أخي مورين رازين يقف عند النافذة ، يراقب الثلج المتساقط فوق الحدائق المجمدة ، وفي عينيه ذلك البريق الذي أعرفه جيدا ؛ بريق الشباب حين يظن نفسه أقوى من القدر، وأذكى من التجربة ، و أقدر من الموت على اختيار ضحاياه.

كان سادرا في أوهام العمر الأول ، ذلك العمر الذي يظن فيه المرء أن الحب حصن لا تهدمه السيوف ، وأن المرأة التي تبتسم له قادرة على أن توقف دوران العالم إن أرادت.

تأملته طويلا.

رأيته كما رأيته يوم كان طفلا يركض في الحقول خلف الفراشات ، ثم كما رأيته شابا يحمل أول سيف، ثم كما أراه الآن: رجلا يندفع نحو الهاوية وهو يظنها طريق المجد.

ولذلك قلت له ، وقد بدأت نبرة الغضب تتسلل إلى صوتي :

مورين رازين... إني في منزلة الأب لك بعد رحيل والدنا ، وأمرك بأن تقطع علاقتك بالأميرة كاتيا دولوجوروكي فورا.

استدار نحوي ببطء. ولم يغضب. ولم يندهش. بل انفجر ضاحكا.

كانت ضحكته خفيفة ساخرة، كأنني حدثته عن شائعة في السوق، لا عن مقصلة تنتظره في نهاية الطريق.

قال : يا لك من شقيق شديد التزمت يا أليكسي! أقسم أنني لم أعرف في حياتي رجلا يخاف من الحب كما تخاف أنت منه.

ثم اقترب مني وربت على كتفي كأنما يواسي عجوزا فقد صوابه.

بكل أسف يا أخي ، سأعصي أمرك هذه المرة. وأقسم لك ، لو كنت مكاني لما استمعت إلى نصيحة أحد في هذا الأمر. لماذا تريد أن تحرمني متع الحياة ؟

نظرت إليه طويلا. كم يشبه أبي في عناده. وكم يشبه أمي في رقته. وتلك هي المصيبة.

فالرجال الذين يجتمع فيهم العناد والرقة، كثيرا ما يموتون مبكرين.

قلت ببطء : لأنني لا أريد أن يحرمك زوجها الحياة نفسها.

اختفت الضحكة قليلا من وجهه.

فأكملت : الأمير دولوجوروكي ليس رجلا عاديا يا مورين. إنه الصديق الأقرب إلى القيصر، والرجل الذي تكفي منه كلمة واحدة ليختفي خصمه إلى الأبد. لو طلب من القيصر إعدامك ، لما احتاج الأمر أكثر من توقيع فوق ورقة.

اقتربت من الموقد وألقيت قطعة خشب في النار. تصاعد الشرر الأحمر كأن الكلمات نفسها تحترق.

بل إنه ليس بحاجة إلى القيصر أصلا. إن دولوجوروكي يقتل من يشاء من رجاله ومن غير رجاله بلا حساب. السلطة حين تطول يدها الدم ، تنسى الفرق بين القانون والرغبة.

صمت قليلا ثم قلت :

هل تعرف ما فعله بآخر عشاق الأميرة كاتيا ؟

رفع حاجبيه ساخرا.

ها قد بدأنا قصص التخويف القديمة.

ثم جلس على المقعد الجلدي واضعا ساقا فوق الأخرى.

إنك تفتري عليها كي أبغضها.

هززت رأسي.

لا فائدة يا أخي... لا فائدة.

ثم اقتربت منه حتى صرت أرى انعكاس النار في عينيه.

لقد سألتك سؤالا ولم تجبني عليه. هل تعرف ما فعله الأمير دولوجوروكي بآخر عشاق زوجته ؟

ساد الصمت.

كان الثلج يضرب زجاج النافذة كأصابع ميت تستأذن بالدخول.

قلت : ضبطه في مخدعها أثناء غيابه عن القصر.

رفع مورين رأسه فجأة.

أما أنا فتابعت :

أوقف الرجل أمامها، ثم أخرج مقلتيه بطرف خنجره.

انتفض مورين واقفا.

مستحيل !

ثم هتف : لو فعل ذلك لفضحته كاتيا. إنها امرأة لا تعرف الصمت إذا غضبت.

ابتسمت ابتسامة حزينة. ابتسامة رجل يعرف أن الحقيقة أكثر وحشية من الخيال.

قلت : لقد رأيت ذلك بعيني.

ساد الصمت مجددا.

حتى النار بدت كأنها توقفت عن الحركة.

قلت : كنت يومها أعمل في خدمة الأمير داخل القصر. رأيت الرجل يجر أمام الأميرة مكبلا بالحبال، ووجهه شاحب كوجه محكوم ينتظر المقصلة.

تذكرت المشهد فعاد إلي برد تلك الليلة القديمة. برد لا تصنعه الثلوج. بل يصنعه البشر.

لم تنطق كاتيا بكلمة واحدة تستعطف زوجها من أجله. لم تبك. لم تصرخ. لم تتوسل. لم تقل حتى: ارحمه.

أغمضت عيني للحظة. كنت ما أزال أسمع صوت الخنجر وهو يشق اللحم.

الرجل فقد نعمة البصر من أجل ساعة واحدة معها...

فتحت عيني ونظرت إلى مورين.

أما هي ، فنظرت إلى زوجها وقالت بكل هدوء : ألم يكن من الأرحم أن تقطع رأسه ؟

اتسعت عينا أخي.

أما أنا فأكملت :

عندها استل دولوجوروكي سيفه...

وتوقفت.

حتى بعد كل تلك السنوات، كان صوت السيف وهو يخرج من غمده قادرا على أن يوقظ رعشة في ظهري.

وقطع رأس المسكين أمامها.

ساد الصمت طويلا. طويلا جدا. حتى خلت أن كلماتنا تجمدت في الهواء.

لكن مورين قال أخيرا :

وبرغم ذلك... لن يجسر على فعل هذا معي.

حدقت فيه غير مصدق.

أحيانا لا يكون الشباب جهلا بالحقيقة. بل يكون رفضا للاعتراف بها.

قلت : وما الذي يحميك من غضبه إذا اكتشف أمرك مع زوجته؟ هل تتوقع أن تدافع عنك كاتيا؟

ابتسم.

يا إلهي...

حتى ابتسامته كانت ابتسامة رجل حكم على نفسه بالموت دون أن يدري.

قال : بالطبع ستحميني. لقد قالت ذلك مرارا.

ثم أضاف : في بداية علاقتنا كنت أتردد في تلبية دعواتها، لكنها أقسمت لي أن أحدا لن يمسني بسوء.

اقترب من النافذة ونظر إلى الظلام خارجها.

ثم إنك لا تدرك مقدار ثقة الأمير في زوجته.

التفت نحوي فجأة.

ولا في ضابط حرسه الوسيم.

تجمدت في مكاني.

ماذا تعني ؟

ابتسم ابتسامة المنتصر.

هل تصدق أن الأمير نفسه هو من يدفعها إلي دفعا ؟

حدقت فيه كأنني أنظر إلى رجل فقد عقله.

أهذا معقول ؟ الرجل معروف بالغضب وسرعة الانفعال.

ضحك مورين.

هكذا يراه الجميع.

ثم انخفض صوته : لكن القصور يا أخي لا تشبه ما يراه الناس من خارج أسوارها. خلف الستائر الحريرية تعيش أسرار لا يصدقها العقل.

جلس أمامي من جديد.

الأمير يحب السلطة أكثر مما يحب النساء، ويحب امتلاك النفوس أكثر من امتلاك الأجساد. إنه يرى في إعجاب الرجال بزوجته دليلا على مجده الشخصي.

ثم قال ببطء : بعض الرجال يبنون عظمتهم بالحروب ، وبعضهم يبنونها بخوف الآخرين منهم ، أما هو فيبنيها بإجبار العالم على الاعتراف بأن زوجته أجمل نساء الإمبراطورية.

قلت بحدة : هذا جنون.

قال : ربما.

ثم ابتسم.

لكن الجنون حين يسكن القصور يسمى سياسة، وحين يسكن الأكواخ يسمى مرضا.

بقيت أحدق إليه.

كانت كلماته تحمل شيئا من المنطق. وهذا ما أخافني أكثر. فالخطر الحقيقي ليس الكذبة الواضحة، بل الحقيقة التي تحمل وجها يشبه الصدق.

قلت : أتملك دليلا على ما تقول ؟

تردد قليلا. ثم تنهد.

لم أكن أريد أن أبوح بهذا السر لأحد.

رفع رأسه نحوي.

لكن خوفك الأخوي المرتعش أجبرني على ذلك.

مد يده داخل سترته وأخرج ورقة مطوية بعناية.

كانت الورقة معطرة برائحة الياسمين. رائحة لا يمكن أن تخطئها ذاكرة رجل عاش سنوات في القصور.

ناولني إياها. أخذتها ببطء. وما إن وقعت عيناي عليها حتى شعرت بقلبي ينقبض.

عجبا...

رفعت الورقة نحو ضوء النار.

هذا ورق خاص بقصر الأمير.

مررت أصابعي فوق أطرافها المزخرفة.

عليها ختم أسرة دولوجوروكي وشعارها النبيل.

ابتسم مورين.

والأهم من ذلك...

وأشار إلى السطور المكتوبة.

أنها بخط الأميرة كاتيا نفسها.

شعرت ببرودة تسري في أطرافي.

رسالة ؟

قال : نعم.

ثم أردف : لكنها ليست موجهة إلي.

رفعت بصري إليه.

فقال بهدوء : إنها موجهة إلى زوجها الأمير.

رفعت الورقة بيد مرتجفة.

كانت الحروف أنيقة ومنحنية كأغصان الصفصاف.

خط امرأة تعرف أنها جميلة، وتعرف أن العالم كله يعرف ذلك أيضا.

قال مورين : اقرأ.

نظرت إلى الكلمات. لكنني قبل أن أقرأ، وجدت نفسي أفكر في شيء آخر.

كم من الرجال ماتوا بسبب ورقة صغيرة ؟ كم من الممالك سقطت بسبب رسالة ؟ وكم من الرؤوس تدحرجت فوق البلاط الرخامي لأن امرأة قررت أن تكتب جملة واحدة ؟

إن الحروب الكبرى تبدأ أحيانا من كلمة. والإمبراطوريات لا تسقط دائما تحت وقع المدافع، بل قد تسقط تحت وقع الهمسات.

رفعت عيني إلى أخي.

كان يبتسم بثقة رجل يظن أنه أمسك بالحقيقة كاملة.

أما أنا ، فلم أكن أرى في الورقة سوى نذير شؤم.

شيء في داخلي كان يصرخ : اهرب يا مورين. اهرب قبل أن تصبح مجرد حكاية يرويها الخدم في المطابخ.

لكنني كنت أعرف شيئا آخر أيضا. بعض الرجال لا يعودون من الحب. ليس لأن الطريق مستحيلة... بل لأنهم لا يريدون العودة أصلا. كان أخي واحدا منهم.

وكان القدر ، في مكان ما من المدينة المغطاة بالثلوج ، يشحذ سيفه بصبر.

ما تزال بعض الأوراق ، وإن كانت صغيرة الحجم ، أثقل من السيوف ، وأشد وقعًا من وقع المدافع على أسوار المدن. وما تزال بعض الكلمات ، حين تُكتب بالحبر، تُسفك بها الدماء كما تُسفك بالحديد والنار.

جلستُ أمام أخي أحدق في الورقة المرتجفة بين أصابعه ، بينما كانت النار المتقدة في الموقد ترسم على الجدران ظلالًا مضطربة تشبه أرواحًا هائمة تبحث عن مخرج من ظلام الليل الروسي الطويل.

ناولني الورقة دون أن ينطق.

كانت ابتسامته يومها غريبة ؛ ليست ابتسامة رجل سعيد ، ولا ابتسامة رجل خائف، بل ابتسامة من يسير نحو مصيره وهو يعرفه، ومع ذلك لا يملك إلا أن يكمل الطريق.

فتحت الرسالة.

كان الخط أنثويًا ناعمًا، متكلف الأناقة ، تتراقص حروفه كما تتراقص راقصة على حافة هاوية.

وقرأت : إلى زوجي العزيز،

يحمل إليك هذه الورقة صف ضابطك مورين رازين في حرسك الخاص بالفرقة الرابعة ، وأرجو التصريح له بالقيام على خدمتي الشخصية في أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس من كل أسبوع.

كاتيا.

توقفت عيناي عند الاسم الأخير. كاتيا.

كم من المدن احترقت بسبب امرأة جميلة ؟

وكم من الرجال ظنوا أنهم يقودون أقدارهم ، فإذا بهم يُقادون إليها كما تُقاد الخيول المعصوبة العينين إلى ساحات الذبح ؟

رفعت رأسي إليه ببطء.

قلت وأنا أشعر بأن الكلمات تكاد تخونني : هذا... لا يُصدَّق.

ضحك أخي ضحكة قصيرة وقال :

اقرأ ما هو أسفل الرسالة أيضًا.

خفضت بصري. كان هناك خط آخر. خط رجولي قوي ، حاد الزوايا ، لا يشبه رقة خط المرأة في شيء.

قرأته مرة. ثم ثانية. ثم ثالثة. لكن الكلمات بقيت عصية على التصديق.

اقرأ يا ستيفان لتعرف أن أخاك في أمان كامل.

من أجل راحتك يا عزيزتي ، أصرح له بالخدمة في القصر طيلة أيام الأسبوع.

بقيت أحدق في السطور كمن ينظر إلى ثلج يتساقط في قلب الصيف.

همست : أهذا خط الأمير فعلًا ؟

قال مورين بهدوء : هو خطه بلا شك.

رفعت رأسي نحوه فجأة.

أهذا معقول ؟

ابتسم ابتسامة المنتصر وقال : كنت أعلم أنك لن تصدق.

قلت ببطء :

ليس في الأمر ما يُطمئن يا مورين... بل على العكس تمامًا.

اختفت ابتسامته قليلًا.

ماذا تعني ؟

قلت : أعني أن الرجل يتربص بك.

هز رأسه ساخرًا.

هراء.

ثم مال إلى الخلف وأردف : إنه راضٍ تمام الرضا. منذ أيام رآني أجالس الأميرة في حديقة القصر.

انتفضت واقفًا.

ماذا قلت ؟

سمعْتَ جيدًا.

ورآكما معًا ؟

نعم.

ولم يجلدك ؟ لم يأمر بحبسك ؟ لم يرسلك إلى الحدود الجنوبية أو إلى الجبهة ؟

ضحك. ضحك طويلًا.

أما أنا فلم أجد في الأمر ما يدعو إلى الضحك.

قلت بحدة : يا مورين ، مجالسة زوجة الأمير داخل القصر تشبه التجديف داخل الكنيسة نفسها. إن تقاليد هذه الأسر لا تعرف التسامح في مثل هذه الأمور.

ثم اقتربت منه أكثر.

إنك ترتكب حماقة ستدفع ثمنها دمًا.

رفع حاجبيه وقال :

لا حماقة ، ولا شبه حماقة.

ثم استقام في جلسته وأخذ يقلد صوت الأمير :

عندما أسرعت بالوقوف لتحيته قال لي : اجلس يا مورين... اجلس. وأرجو أن تكون سمو الأميرة راضية عن سلوكك أيها الضابط ؟

ثم أطلق ضحكة أخرى.

ما رأيك الآن ؟

صمت قليلًا ثم أضاف ساخرًا : الرجل لا يداخله شك في ولائي له.

وتوقف لحظة.

ثم أردف : ولا في ولائي لزوجته.

لم أضحك. ولم أبتسم. بل شعرت ببرودة تسري في ظهري.

فبعض الرجال لا يصرخون حين يغضبون. وبعض الذئاب لا تكشر عن أنيابها إلا لحظة الانقضاض.

قلت : مورين... اسمعني جيدًا.

نظر إليّ.

لا أشك لحظة في أن الرجل يبيت لك شرًا.

ساد الصمت.

كانت الريح تضرب النوافذ بعنف، وكأن الشتاء نفسه يريد أن يتدخل في حديثنا.

تابعت : لا أدري لماذا يصبر إلى هذا الحد، ولا لماذا يسكت، لكن سكوته يخيفني أكثر من غضبه.

نظر إليّ بثبات.

قلت : الرجل النبيل إذا أُهين انتقم بسرعة.

ثم أضفت : أما الرجل الذي ينتظر... فهو يعد شيئًا أكبر من الانتقام.

لم يتكلم.

فأكملت : لعله يريد أن يقتلكما معًا، ثم يقف أمام القيصر بوجه الزوج المكلوم والشريف الذي غسل عاره بيده.

ابتسم مورين بازدراء.

أما أنا فكنت أشعر بأن المستقبل يقترب منا بخطوات ثقيلة.

قلت :

أتوسل إليك يا أخي ، ابتعد عن هذه المرأة.

خفض عينيه قليلًا.

لأول مرة رأيت التردد يمر في وجهه مثل غيمة عابرة. لكنه سرعان ما اختفى.

قال : وهل تظن الأمر بهذه البساطة ؟

لم أجب.

فأردف : حين يحب الرجل امرأة يظن أنه يملك القرار.

ابتسم بمرارة.

لكنه يكتشف متأخرًا أن القرار انتقل إليها منذ النظرة الأولى.

أشحت بوجهي.

أما هو فبقي ينظر إلى النار.

وقال بصوت خافت : لم أختر هذا يا ستيفان.

ثم صمت قليلًا.

هي التي اختارتني.

سألت : وهل يغير ذلك شيئًا ؟

قال : ربما لا.

ثم أضاف : لكن الرجل يحب أن يصدق أنه ضحية القدر، لا ضحية ضعفه.

ساد الصمت بيننا طويلًا.

ثم قال : كاتيا ليست امرأة عادية.

ضحكت ساخرًا.

هذا صحيح. إنها تعيش داخل قصر يشبه السجن. وكل القصور سجون يا مورين، لكن بعضها تُغطى قضبانه بالذهب.

هز رأسه.

لا تعرفها كما أعرفها.

قلت : بل أعرف النساء أكثر مما تعرف أنت.

ثم أضفت : المرأة التي تخون زوجها الأمير لن تتردد في خيانة عشيقها الضابط.

تغير وجهه قليلًا.

وأدركت أن السهم أصاب هدفه.

قال بحدة : أنت تظلمها.

قلت : ربما.

ثم نظرت في عينيه مباشرة.

لكن التاريخ لا يرحم الرجال الذين يخلطون بين الحب والثقة.

فالمرء يستطيع أن يحب حتى الجنون، لكنه لا ينبغي أن يعطل عقله وهو يحب.

تنهد. وقال : أنت لا تفهم.

ابتسمت بحزن.

بل أفهم أكثر مما تريد.

ثم قلت : أعرف كيف تنظر إليك. وأعرف كيف تتغير نبرة صوتها حين تنطق اسمك. وأعرف ذلك البريق الذي يجعل الرجل يظن نفسه الوحيد في العالم.

اقتربت منه.

لكنها قالت ذلك قبلك لغيرك ، وستقوله بعدك لغيرك.

خفض رأسه. ولأول مرة لم يجد جوابًا.

مرت دقائق طويلة. لم نسمع خلالها سوى صوت الحطب وهو يتكسر داخل النار.

ثم قال فجأة :

ربما تكون محقًا.

رفعت رأسي نحوه.

لكنه أكمل : وربما أكون أنا المخطئ.

ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

لكن بعض الأخطاء يكون ثمنها أغلى من القدرة على التراجع عنها.

كانت تلك الجملة كافية لأفهم كل شيء.

فبعض الرجال لا يستمرون في الطريق لأنهم لا يرون الهاوية. بل لأنهم رأوها بالفعل، ثم قرروا أن يقفزوا.

بعد أيام قليلة حدث ما كنت أخشاه.

كان الفجر لا يزال يحبو فوق الأسطح المغطاة بالجليد. وكانت المدينة تغط في ذلك الصمت الذي يسبق استيقاظ البشر والخيول معًا.

وفجأة دوى طرق عنيف على باب المنزل. طرق ليس فيه صبر الزائرين. بل قسوة الأوامر العسكرية. استيقظت مذعورًا.

ثم جاء الصوت. صوت صارم، بارد، يشبه صوت السيوف حين تُسحب من أغمادها.

ستيفان تيموفيتش رازين !

شعرت بأن الدم تجمد في عروقي.

تبادلنا النظرات. أنا وأخي.

وفي تلك اللحظة فقط أدركت أن الزمن الذي كنا نملكه قد انتهى.

نهض مورين ببطء.

لم يكن وجهه وجه رجل مذنب. ولا وجه رجل بريء. بل وجه رجل عرف أخيرًا أن القدر وصل إلى بابه.

عاد الطرق من جديد. أشد. وأعنف.

باسم القيصر، افتحوا الباب !

نظر إليّ أخي. وفي عينيه رأيت لأول مرة شيئًا لم أره من قبل.

الخوف. ليس خوف الموت. بل خوف الحقيقة حين تصل متأخرة.

قال بصوت خافت : يبدو أنك كنت على حق يا ستيفان.

اقتربت من النافذة.

كان الجنود يملؤون الساحة الصغيرة أمام المنزل. الرماح تتلألأ تحت ضوء الفجر الشاحب. والخيول تنفث بخار أنفاسها في الهواء المتجمد.

قلت : لقد جاءوا.

ابتسم ابتسامة صغيرة.

نعم.

ثم نظر إلى الرسالة الملقاة فوق الطاولة. تلك الورقة الصغيرة التي بدت قبل أيام شهادة أمان. فإذا بها تتحول إلى حكم مكتوب منذ البداية.

تمتم : كم هو غريب أمر البشر.

سألته : ماذا تقصد ؟

قال : نقضي أعمارنا نهرب من السيوف، ثم نهلك بسبب الكلمات.

اقترب من الباب. ثم توقف.

وقال دون أن يلتفت إليّ : تذكر دائمًا يا أخي...

سكت لحظة.

الرجل لا يسقط يوم يرتكب خطأه ، بل يوم يصدق أن الخطأ لن تكون له عواقب.

ثم فتح الباب. ودخل الجنود.

تحت ظلال الدردار

يوم انكسرت موسكو في عيني

كان صباح موسكو بارداً على غير عادته ، لا لأن الريح الشمالية كانت أكثر قسوة من سائر الأيام، بل لأن شيئاً خفياً كان يزحف في الهواء كظل ثقيل لا يُرى، لكنه يُشعر القلب بأن مصيبة ما تستعد لتطرق الأبواب.

كنت يومها في إجازة قصيرة من خدمة الحرس الإمبراطوري، وقد ظننت، لسذاجة الجنود الذين لم يتعلموا بعد أن الدولة لا تنام، أن الإنسان يستطيع أن يخلع بزته العسكرية كما يخلع معطفاً مبتلاً، وأن يترك خلفه أوامر القصور وصخب الثكنات وسياط الضباط.

كنت أجلس قرب النافذة أتأمل الثلج الذائب على حواف الأسطح حين دوى طرق عنيف على الباب، طرق لا يشبه زيارة صديق ولا استئذان جار، بل يشبه الطرق الذي يسبق الأخبار السيئة.

نهضت مسرعاً.

وما إن فتحت الباب حتى وجدت أمامي ثلاثة جنود تتدلى من أكتافهم البنادق ، ويتقدمهم ضابط أعرفه من هيئة الأركان.

تجمدت الكلمات في حلقي.

قلت وأنا أحاول أن أبدو هادئاً :

أجل ، أنا الضابط رازين... ماذا تريد يا سيدي ؟ إنني في إجازة رسمية ، أم ترى أن صاحب الجلالة القيصر قد ألغى الإجازات أيضاً ؟

لم يبتسم الرجل. وكانت عيناه جامدتين كقطعتين من الجليد.

قال بلهجة لا تعرف المساومة : ارتدِ ثيابك العسكرية على عجل.

سألته : ولماذا ؟

أجاب : أنت مطلوب فوراً في قصر صاحب السمو الأمير دولوجوروكي.

في تلك اللحظة شعرت بأن شيئاً بارداً انزلق داخل صدري.

لم يكن الأمير دولوجوروكي يستدعي صف ضابط صغيراً من الحرس الإمبراطوري إلا لأمر جلل.

سألت : هل حدث شيء ؟

لكن الضابط أشاح بوجهه. وكان صمته أبلغ من الكلام.

يقول الحكماء إن الكلمة قد تجرح الإنسان، لكن الصمت يقتله ببطء.

ارتديت بزتي العسكرية بسرعة، وخرجت معهم.

وكانت عربتنا تشق شوارع موسكو الحجرية بينما كنت أراقب البيوت والناس والعربات المارة، وأشعر بغرابة مؤلمة؛ فالعالم كله كان يسير كما اعتاد أن يسير، بينما كان قلبي يركض نحو هاوية لا أعرف شكلها.

كم هو قاسٍ أن تستمر الحياة في هدوئها بينما يوشك عالم رجل واحد على الانهيار.

وصلنا إلى القصر. كان قصر الأمير شامخاً كعادته، نوافذه الواسعة تعكس شمس الشتاء الباهتة، وتماثيله الرخامية تقف في الحديقة كأنها حراس من زمن آخر.

لكنني ما إن اجتزت البوابة الحديدية حتى شعرت أن الأرض تميد تحت قدمي. في الحديقة الأمامية، تحت شجرة دردار عظيمة، رأيت ما كاد ينتزع عقلي من مكانه.

كان أخي. ستيفان. معلقاً إلى الشجرة كالذبيحة. يتأرجح جسده في الهواء البارد، وقد نزعت عنه ثيابه كلها إلا ما يستر الحد الأدنى من جسده، بينما كان جنود الحرس يتناوبون ضربه بأعقاب البنادق وصفعات الأيدي الثقيلة.

لم يكونوا يبالون أين تقع الضربة. على الوجه. على الصدر. على الأضلاع. على الفم.

كان الألم بالنسبة إليهم مهمة تؤدى بإخلاص عسكري.

أما هو... فكان وجهه الوسيم قد تحول إلى كتلة من الكدمات والتورم. الدم يسيل من أنفه وفمه. وشعره الأسود الطويل التصق بجبينه الملطخ بالوحل والعرق والدم.

أما عيناه... فكانتا لا تزالان تحملان شيئاً من الكبرياء. ذلك الكبرياء الذي لا تستطيع السياط اقتلاعه.

رفعت رأسي نحو الشرفة المطلة على الحديقة.

هناك كانت تقف الأميرة كاتيا إلى جانب زوجها الأمير دولوجوروكي.

كانت ترتدي ثوباً أبيض ينساب حولها كضوء الشتاء. أما الأمير فكان يقف واضعاً يديه خلف ظهره، يراقب المشهد كما يراقب رجل عملية جراحية لا تخصه. كأن الأمر لا يعنيهما. كأن الرجل المعلق إلى الشجرة ليس إنساناً له أم وأحلام وذكريات.

ما إن وقعت عين الأمير علي حتى صاح : هل أنت الجندي ستيفان رازين ؟

أديت التحية العسكرية بسرعة وقلت : أجل يا صاحب السمو. ستيفان رازين، صف ضابط في حرس صاحب الجلالة القيصر.

تأملني لحظات.

ثم قال : أتعرف لماذا استدعيتك إلى هنا ؟

شعرت بأن الكلمات تخونني.

قلت : الرحمة يا صاحب السمو... الرحمة فقط.

ضحك الأمير ضحكة قصيرة باردة.

وقال : لا رحمة لهذا النذل العربيد. هنا توجد العدالة فقط، وأنا اليوم ممثلها.

ثم أشار إلى أخي.

لقد دعوتك لتشهد تنفيذ القانون، حتى لا يقال إن موسكو تفتقر إلى العدالة.

نظرت إلى أخي. و نظر إلي. ولم تكن بيننا حاجة للكلام. فالدم يفهم لغة الدم.

قلت وأنا أقاوم ارتجاف صوتي : إنك يا صاحب السمو أعدل أمراء روسيا وأرحمهم. أتوسل إليك... اجلده كما تشاء، عاقبه كما ترى، ولكن بحق السماء لا تسمل عينيه.

توقفت لحظة. ثم أضفت :

ارحم شبابه يا سيدي... وارحم الرجال الذين يفتدونك بأرواحهم في الحروب.

تغير وجه الأمير فجأة.

وصاح : صه أيها الجندي !

ثم اقترب من حافة الشرفة وقال بصوت هادر :

هل تعرف جريمة هذا الكلب ؟

وأشار إلى جسد أخي العاري.

ألا تراه هكذا؟ اسأله أين وجدناه.

ثم صاح : تكلم أيها الوغد! أين كنت حين قبض عليك؟

ظل أخي صامتاً. لم يكن ذلك صمت الخوف. بل صمت الرجل الذي بلغ من العذاب حداً تصبح معه الكلمات ترفاً لا يملكه.

اقترب أحد الجنود وضربه بعقب بندقيته في بطنه. انحنى جسده من الألم. لكن صوته لم يخرج.

همس الأمير بازدراء : يبدو أن أخاك يظن نفسه بطلاً.

ثم التفت إلي :

لقد قبض عليه في جناح الأميرة كاتيا الخاص.

تجمد الدم في عروقي. رفعت بصري نحو الأميرة. كانت شاحبة كالقمر خلف الغيوم. وعيناها مثبتتان في الأرض. لم تقل شيئاً. ولم تدافع عن نفسها. ولم تدافع عنه.

وفي تلك اللحظة فهمت كل شيء. وفهمت أيضاً أن الحقيقة ليست دائماً ما يحدث، بل ما يقرر الأقوياء أنه قد حدث.

قال الأمير : هل لديك ما تقوله؟

نظرت إلى أخي. كان يحدق في السماء. كأن الشجرة التي علق عليها صارت أقرب إليه من البشر الواقفين حوله.

قلت : أريد أن أسمع منه يا صاحب السمو.

أومأ الأمير بإشارة مقتضبة.

اقتربت من أخي. كانت رائحة الدم تملأ الهواء.

همست : ستيفان... ماذا حدث ؟

فتح عينيه بصعوبة. ثم ابتسم. كانت ابتسامة صغيرة، لكنها كسرت قلبي.

قال بصوت متقطع : لا تصدق كل ما تسمعه يا أخي.

هل أنت مذنب ؟

ظل صامتاً قليلاً.

ثم قال : أحياناً يا رازين، تكون براءة الرجل أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها.

لم أفهم. أو ربما فهمت ولم أرد أن أفهم.

قال بصوت خافت : بعض الأبواب لا يجوز للفقراء أن يطرقوها، حتى لو فتحت لهم من الداخل.

شعرت بأن الكلمات أثقل من الجبال.

قلت : هل كانت الأميرة...

قاطعني بابتسامة متعبة : لا تسأل أسئلة ستؤلمك إجاباتها.

في تلك اللحظة سمعت صوت الأمير : انتهى وقت الثرثرة.

ثم التفت إلى قائد الحرس : نفذوا الحكم.

سألت مذعوراً : أي حكم يا صاحب السمو ؟

أجاب بهدوء مخيف : اقتلاع العينين، ثم النفي إلى سيبيريا.

شعرت أن العالم كله توقف. حتى الريح توقفت. حتى الأشجار صمتت.

قلت : لا!

كان صوتي أعلى من صوتي نفسه.

التفت الجميع نحوي.

قلت : اقتلونا إن شئت يا صاحب السمو، لكن لا تحكم عليه بالظلام مدى الحياة.

نظر إلي الأمير طويلاً.

ثم قال : يبدو أنك تحب أخاك كثيراً.

أجبته : ليس للإنسان في هذا العالم إلا أهله يا سيدي.

ابتسم ابتسامة باردة.

وقال : وهذه هي مشكلتكم أيها الفقراء. تظنون أن الحب يستطيع الوقوف في وجه السلطة.

سكت قليلاً.

ثم أضاف : السلطة لا تكره الحب، لكنها لا تعترف به.

ساد الصمت.

ثم حدث ما لم أتوقعه.

رفعت الأميرة كاتيا رأسها أخيراً.

وقالت : كفى.

نظر إليها الأمير بدهشة.

أما هي فتقدمت خطوة إلى الأمام وقالت :لقد نال عقابه بما يكفي.

رد الأمير بحدة : أهذا يعني أنك تدافعين عنه ؟

قالت بهدوء : أنا أدافع عن إنسان.

نظر إليها الأمير طويلاً وكان في عينيه شيء يشبه الشك. وشيء يشبه الغضب. وشيء آخر أخطر من الاثنين معاً. الغيرة.

فالغيرة يا صديقي لا تحتاج إلى دليل. إنها كالنار؛ يكفيها أن تتخيل الحطب حتى تشتعل.

قال الأمير أخيراً : حسناً.

ثم التفت إلى الحرس. خذوه إلى السجن.

ساد صمت ثقيل.

وأضاف : سنؤجل تنفيذ الحكم حتى يصدر القرار النهائي من القيصر.

قطع الحراس الحبال. وسقط أخي على الأرض.

أسرعت نحوه. حملت رأسه بين ذراعي. فتح عينيه بصعوبة.

وقال : هل ما زلت حياً ؟

قلت وأنا أبتسم رغم الدموع : نعم.

ابتسم بدوره.

وقال : إذن فالأمور ليست سيئة إلى هذا الحد.

ضحكت رغم كل شيء.

فقال : الإنسان يا أخي لا يختار دائماً مصائبه، لكنه يختار الطريقة التي يواجهها بها.

ثم أغلق عينيه من الإعياء. وحمله الجنود بعيداً. أما أنا فبقيت واقفاً تحت شجرة الدردار. أنظر إلى الحبل المتدلي من الغصن. وأفكر.

كم من الرجال علقوا في التاريخ لا لأنهم أذنبوا ، بل لأنهم كانوا أضعف من أن يملكوا روايتهم الخاصة ؟

في ذلك اليوم تعلمت درساً لن أنساه ما حييت :

أن العدالة التي تحتاج إلى شهود كثيرين كي تثبت نفسها ، تكون في الغالب خائفة من حقيقتها. وتعلمت أيضاً أن القصور الكبيرة تخفي وراء جدرانها أحزاناً أكبر من أحزان الأكواخ.

أما أخي... فقد أخذوه إلى السجن.

وأما أنا... فقد أخذوا مني شيئاً آخر. أخذوا إيماني القديم بأن العالم مكان عادل.

ومنذ ذلك اليوم ، كلما رأيت شجرة دردار تهتز تحت الريح ، كنت أرى أخي معلقاً بين السماء والأرض ، وأسمع صوته يهمس في أذني:

بعض الأبواب يا رازين، لا يجوز للفقراء أن يطرُقوها... حتى لو فُتحت لهم من الداخل.

ليلة الدم على ضفاف موسكو

لم يكن الليل قد أطبق تمامًا على المدينة ، غير أن ظلال القصر كانت أسبق إلى العتمة من سائر الأشياء ، كأن الأحجار العتيقة تحفظ في مسامها أسرار القرون وخطايا السادة ودموع الخدم. كانت المشاعل المرتجفة على الجدران تلقي ألسنة من الضوء الشاحب ، فتزيد الوجوه قسوة ، والعيون غموضًا ، والقلوب خوفًا.

وفي وسط تلك القاعة الواسعة التي ازدانت يومًا بالولائم والأغاني ، وقفتُ منكسرًا كغصن كسره الجليد في أول الشتاء.

ركعت عند قدمي الأمير ، ودموعي تسيل على البلاط البارد ، لا أملك من الدنيا إلا رجاءً أخيرًا يتشبث بالحياة كما تتشبث الورقة اليابسة بغصنها الأخير قبل أن تأخذها الريح.

قلت بصوت تقطعه العبرة :

يا صاحب السمو... أقسم لك بشرف آبائك وبالصلبان التي تزين قباب الكنائس ، إن أخي لم يكن خائنًا ، ولم يكن ليدخل ذلك المكان لولا أمرٌ ظنه واجبًا عليه. لا أشك في أنه كان في مهمة كلفته بها سمو الأميرة الجليلة زوجتكم...

ولم أتم عبارتي.

هب الأمير من مكانه كأن نارًا اشتعلت في عروقه ، وصفعني صفعة دوى صداها في القاعة كصوت سوط على ظهر أسير.

صرخ في وجهي ، وقد احتقنت ملامحه غضبًا: هل بلغت بك الوقاحة ، أيها الكلب ، أن تتصور أن لسمو الأميرة يدًا في هذا الأمر ؟

ثم أشار بيده نحو المقاعد المرتفعة حيث جلست الأميرة في ثوبها الأبيض المرصع بالفضة ، تبدو في ضوء المشاعل كتمثال من الثلج لا روح فيه.

قال الأمير :إنها هي من أبلغتني عن وجود أخيك في مخدع وصيفتها.

رفعت بصري إليها.لم تتغير ملامحها.لم ترتجف شفتاها.لم تهرب عيناها من عيني.

كانت تنظر إلينا جميعًا في هدوء مروع ، كبحيرة ساكنة تخفي في أعماقها جثث الغرقى.

وفي تلك اللحظة سمعت صوتًا متحشرجًا خلف الجنود.

كان أخي مورين.

رفعوا رأسه بصعوبة ، فقد كانت الضربات قد حطمت جسده ، حتى بدا كأنه كومة من الألم الإنساني أكثر منه رجلًا من لحم ودم.

ورغم ما فيه من عذاب وهوان ، ورغم الدم الذي سال من جبينه حتى غطى نصف وجهه ، صاح بما بقي له من قوة :

لا... لا تتكلمي يا سمو الأميرة... لا تتكلمي...

ارتجف جسدي. كنت أعرف ذلك الصوت. ذلك الإصرار العنيد الذي كان يسكنه منذ طفولتنا.

كان مورين إذا قرر أن يقول الحقيقة ، مضى إليها ولو كانت بابًا من نار.

صرخ الأمير : أخرسوا هذا الكلب !

اندفع جنديان نحوه ، لكن مورين رفع رأسه بصعوبة ، وقال بصوت بدا كأنه يخرج من أعماق قبر :

لا... ليس قبل أن تعرف الحقيقة أيها الأمير...

ثم ضحك ضحكة قصيرة موجعة.

وقال : أيها الأمير المخدوع في شرف هذه الحية الرقطاء...

ساد الصمت. حتى المشاعل بدت وكأنها توقفت عن الارتجاف.

شعرت ببرودة تسري في أطرافي. كنت أعرف ما سيقوله. وكنت أعرف كذلك أن الكلمات، إذا خرجت من أفواه الرجال في قصور الأمراء، قد تتحول إلى سيوف لا تعود إلى أغمادها أبدًا.

صرخت مذعورًا : اسكت يا مورين ! اسكت !

اقتربت منه حتى كدت أحتضنه.

قلت وأنا أبكي : حكمت على نفسك بالإعدام... اسكت يا أخي... أرجوك...

نظر إلي.

ولأول مرة منذ سنوات رأيت في عينيه ذلك الحنان القديم الذي كان يملؤهما حين كنا طفلين نجري بين الحقول ونطارد أسراب الإوز قرب النهر.

ابتسم. يا لمرارة تلك الابتسامة.

قال : كنت دائمًا أشجع منك يا أخي.

ثم أضاف بصوت خافت : وربما كنت أيضًا أكثر حماقة.

سكت لحظة.

ثم رفع رأسه نحو الأمير.

وقال : ليكن ما يكون... ليتني أخذت بنصيحتك يوم حذرتني منها... لقد كنت مع هذه الحية الرقطاء...

وأشار نحو الأميرة. ارتجفت القاعة كلها. حتى الجنود تبادلوا النظرات في ذهول.

أما الأميرة فبقيت ساكنة. ساكنة إلى درجة مرعبة. كأن الكلام لا يعنيها.

كأن الرجل الذي يتحدث عن مصيره وعن موت ينتظره ليس أكثر من ذبابة تحوم حول نافذة.

قال مورين : نعم... كنت معها... مع زوجتك أيها الأمير...

ثم ابتسم ابتسامة حزينة وقال : مع زوجتك أيها الأمير العاجز...

لم يدعه الأمير يكمل. في لحظة واحدة، كان صوت الطلقة قد اخترق الصمت. أخرج الأمير دولوجوركي غدارته وأطلق النار.

رأيت رأس أخي يرتد إلى الخلف. ورأيت الدم يتفتح فوق جبينه كزهرة حمراء نبتت فجأة في أرض ثلجية.

وسقط. سقط بهدوء غريب. كأن الموت كان ينتظره منذ زمن طويل.

لم يصرخ. لم يتأوه. لم يطلب الرحمة.

فبعض الرجال، حين يبلغون نهاية الطريق، لا يبقى لديهم ما يخسرونه سوى الصمت.

حدقت في الجسد الملقى أمامي. كنت أنتظر أن ينهض. أن يتحرك. أن يقول شيئًا. لكن الموت كان أسرع من كل أمنياتي.

غير أن المأساة لم تنته هناك. فالقسوة إذا دخلت قلب الإنسان، صارت تطلب المزيد كما تطلب النار المزيد من الحطب.

أشار الأمير إلى الجنود وقال ببرود : اشنقوه.

نظر أحد الضباط إلى الجثة ثم قال مترددًا : لكنه ميت يا صاحب السمو.

رفع الأمير عينيه إليه. وكان في نظرته ما جعل الرجل يطأطئ رأسه فورًا.

قال الأمير : قلت اشنقوه.

فنفذوا الأمر. رفعوا الجسد الذي فارقته الروح منذ دقائق، وربطوا الحبل حول عنقه، وتركوه يتأرجح في الهواء تحت أضواء المشاعل. رأيت قدميه تتدليان بلا حراك. ورأيت وجهه الذي عرفته منذ الطفولة يبتعد عني شيئًا فشيئًا، كأن النهر يأخذه إلى ضفة لا سبيل إلى بلوغها.

عندها فقط أدركت أن الإنسان لا يموت حين تتوقف أنفاسه. إنه يموت حين يصبح جسده مادة لانتقام الآخرين.

صاح الأمير، وقد فقد آخر ما بقي في روحه من رحمة :

مزقوا جثة هذا الكلب !

ثم صاح بصوت كالرعد : وألقوا بها في مجاري موسكو !

تحرك الجنود. أما أنا فلم أتحرك. كنت أشعر أن الزمن نفسه قد توقف. أن العالم كله انكمش حتى صار تلك الجثة المعلقة أمامي.

وتساءلت في داخلي : أي عدالة هذه التي تجعل القوي قاضيًا وجلادًا في آن واحد ؟ وأي شرف يبقى للقصور إذا كانت جدرانها تستر الخيانة وتكشف البراءة ؟ وأي حب ذلك الذي يقود رجلًا إلى حبل المشنقة

بينما تظل المرأة التي شاركته الخطيئة جالسة فوق مقعدها المذهب، لا يمسها سوء ؟

رفعت عيني نحو الأميرة مرة أخرى. كانت لا تزال صامتة. لكنني رأيت شيئًا خاطفًا في عينيها. لم يكن خوفًا. ولم يكن ندمًا. بل كان شيئًا يشبه الضجر.

كأن المأساة كلها لم تكن أكثر من مشهد طال أكثر مما ينبغي.

عندها فهمت الحقيقة المرة : إن بعض الناس لا يقتلون بالسيف، بل بالبرود. فالخيانة التي ترتجف ليست كالخيانة التي تبتسم. والذئب الذي يعوي أرحم من الثعبان الذي يلتف في صمت. اقترب مني أحد الجنود ودفعني بعنف.

قال : ابتعد.

لكنني بقيت أنظر إلى أخي. تذكرت طفولتنا. تذكرت أمي وهي توصينا ألا نفترق. تذكرت أبانا وهو يقول : قد يهزم الفقر الرجال ، لكن الكذب هو الذي يقتلهم.

ابتسمت بمرارة. لقد قتل أخي لأنه قال الحقيقة في المكان الخطأ. فالحقيقة ليست دائمًا فضيلة في قصور الملوك. وأحيانًا تكون جريمة.

خرجت من القاعة مترنحًا. وكان الثلج قد بدأ يتساقط فوق موسكو. المدينة كلها بدت بيضاء. بيضاء إلى درجة مؤلمة.

وكأن السماء تحاول عبثًا أن تغطي بثلجها دماء البشر. رفعت رأسي إلى الغيوم.

وسألت نفسي : هل يسمع الله صرخات المظلومين حقًا ؟ أم أن أصوات القصور العالية تحجبها عن السماء ؟

ثم تذكرت وجه مورين وهو يبتسم قبل موته. وفهمت شيئًا لم أفهمه من قبل. إن الشجاعة ليست أن تنتصر. وليست أن تنجو. بل أن تقول الحقيقة وأنت تعرف ثمنها.

أما الخوف، فليس ارتجاف الجسد. الخوف الحقيقي أن يعيش الإنسان عمره كله صامتًا، ثم يموت دون أن يعرف أحد من كان.

مات مورين. لكن كلماته بقيت. أما الأمير فظل حيًا. غير أن بعض الأحياء يحملون في صدورهم قبورهم منذ زمن بعيد.

ومنذ تلك الليلة ، كلما مررت قرب المجاري التي ألقيت فيها بقايا أخي ، كنت أسمع في هدير الماء صوتًا خافتًا يقول:

ليست كل الجثث هي التي تطفو فوق الماء... بعضها يطفو فوق ضمائر البشر إلى الأبد.

وكانت موسكو تواصل حياتها كأن شيئًا لم يحدث. تفتح الأسواق أبوابها. وتقرع الكنائس أجراسها. ويمشي الناس في الطرقات منشغلين بأرزاقهم الصغيرة.

أما القصور، فظلت مضاءة كما كانت دائمًا. فالمدن الكبرى يا صديقي لا تتوقف بسبب موت رجل واحد. لكن الرجل الواحد قد يحمل في موته مأساة مدينة كاملة.

ومن يومها تعلمت حكمة لن أنساها ما حييت :

إن السلطة التي تخاف الحقيقة، سلطة مهزومة وإن جلست على العروش.

وأن الإنسان قد يخسر حياته في لحظة، لكنه إذا احتفظ بشرفه، فإنه يربح معركة لا يراها أهل زمانه، وتراها الأجيال التي تأتي بعده.

أما مورين... فلم يعد أخي وحده. لقد صار ذكرى.

والذكريات الصادقة لا تدفنها الثلوج ، ولا تبتلعها المجاري ، ولا تمحوها أوامر الأمراء.

ستيفان رازين... الرجل الذي خرج من رماد المظالم

كان الناس يعرفونه باسم **ستيفان رازين** ، الاسم الذي ارتبط في ذاكرة الشعوب بالتمرد على الطغيان ، وبالثورات التي تنبت في الأرض حين يفيض الكأس بالظلم. أما اسمه الأول، نظام الدين الأصفهاني، فلم يبق منه إلا همسٌ بعيد ترددده الذاكرة في ليالي الوحدة، كأنه اسم رجل آخر دفنته السنون قبل أن يولد الثائر.

كان صامتًا حين سألناه ، يحدق في نار الموقد وكأنه يرى في ألسنتها وجوهًا رحلت منذ زمن بعيد. طال صمته حتى حسبنا أن السؤال أثقل من أن يحتمله قلب بشر.

ثم رفع رأسه ببطء وقال : كنت صغيرًا حين تعلمت أن الظلم لا يكتفي بسرقة الحياة، بل يسرق معها البراءة.

سألناه : ألم تحاول تلك المرأة ، الأميرة كاتيا ، أن تدافع عن أخيك بعدما أغوته وأوقعته في شراكها ؟ ألم تشفع له عند زوجها الأمير دولوجوروكي، صديق القيصر أليكسي ميخايلوفيتش ؟

ارتجفت شفتاه، وانطفأت في عينيه بقية ضوء.

قال بصوت خرج مثقلًا بالمرارة : لو أنها فعلت، لما بقي هذا الجرح مفتوحًا في صدري إلى اليوم.

ساد الصمت، ثم تابع حديثه وكأنه ينتزع الكلمات من قلبه انتزاعًا.

كان أخي مورين ضابطًا في حرس القيصر. لم يكن رجلًا خائنًا ، وإنما كان فتى أغر ، لم يعرف من دهاليز القصور إلا بريقها الكاذب. أغرته الأميرة كاتيا ، حتى وجدوه ذات ليلة في مخدعها. لم يمنحوه فرصة للدفاع عن نفسه ، ولم يسألوا كيف بدأت الحكاية. كانت كرامة النبلاء أغلى عندهم من حياة إنسان.

أطرق برأسه لحظة، ثم قال بصوت خافت : رأيت موته بعيني.

تنهد طويلًا، وكأن الذكرى ما زالت تنزف.

سملوا عينيه أولًا، ثم انهالت عليه السيوف تمزق جسده قطعة بعد قطعة، بينما كانوا يضحكون كأنهم في وليمة. وحين فارق الحياة، علقوا جثمانه على المشنقة أيامًا طويلة، نهبًا للغربان وطيور حدائق القصر. وحين ملّوا منظر الجثة، ألقوا بها في مجاري موسكو، كأنها لم تكن يومًا لإنسان.

ساد صمت ثقيل.

ثم أردف : يومها مات أخي ، ومات شيء في داخلي معه.

سألته : وماذا كان نصيبك ؟

ابتسم ابتسامة مرة.

قدموني إلى المحاكمة. لم يتهموني بجريمة ارتكبتها، بل بالتستر على أخي. كانوا قد أصدروا حكمي قبل أن تبدأ المحاكمة. كنت أعلم أن حبل المشنقة ينتظرني، لذلك لم أترك لهم فرصة. هربت جنوبًا، إلى سهوب الدون، حيث تقيم قبائل القوزاق ، وحيث تمتد البراري الواسعة التي لا سلطان فيها إلا للسيف والحرية.

قلت له : وكيف أفلتَّ من الحاميات الروسية التي كانت تنتشر في مدن الجنوب ؟

ابتسم لأول مرة، ولكنها كانت ابتسامة رجل خبر قسوة الحياة.

البراري أمّ الهاربين. هناك يضيع أثر المطارد، وتصبح الريح دليلًا بدل الطرق. في تلك الأرض يعيش القوزاق، ويجاورهم الشركس والتتار. لم تكن تلك القبائل تسأل الرجل عن نسبه، بل عن شجاعته. وكان كل من ضاقت به أرض القيصر يجد بينهم مأمنًا.

وسكت لحظة قبل أن يضيف :

رأيت هناك آلاف الفلاحين الهاربين من ظلم النبلاء، والعبيد الذين كسروا قيودهم، والجنود الذين ضاقوا بطغيان قادتهم. كانوا رجالًا سلبت منهم الحياة كل شيء، فلم يعد لديهم ما يخسرونه.

قلت : إذن كان همك الأول هو الثأر لأخيك.

رفع رأسه ، وحدق بعيدًا في ظلام الليل.

نعم... هكذا بدأ الأمر.

ثم استدرك بصوت أكثر عمقًا :

لكن الثأر نار، والنار إذا بقيت حبيسة قلب واحد أحرقته وحده. أما إذا تحولت إلى قضية، فإنها تصبح نورًا تهتدي به الجموع.

سكت قليلًا، ثم تابع :

مع الأيام أدركت أن أخي لم يكن الضحية الوحيدة. كانت الأرض كلها مليئة بإخوة آخرين، قُتلوا بغير ذنب، وسُبيت نساؤهم، وسُلبت قبائلهم، وهُدمت كرامتهم. رأيت القياصرة يفاخرون بالمجد، بينما كان ذلك المجد قائمًا على جماجم الفقراء.

وانخفض صوته حتى كاد يكون همسًا.

عندها لم أعد أطلب ثأر مورين وحده، بل ثأر كل مظلوم.

نظر إلينا طويلًا وقال : وهل تعلم ما أقسى ما يفعله الظلم بالإنسان ؟ ليس أنه يسلبه خبزه أو داره، بل أنه يجعله ينسى من يكون.

ثم أطرق برأسه وأردف :

كنت أنا ومورين نظن أنفسنا أبناء هذه البلاد، ولم نكن نعرف شيئًا عن أصلنا. عشنا سنوات طويلة غرباء عن حقيقتنا، حتى شاءت الأقدار أن ألتقي بصديقي أوتار بعد فراري. كان رجلًا حكيمًا، يرى في الوجوه ما تخفيه الأيام. لم يطردني رغم علمه بأن حاميات القيصر تبحث عني في كل مكان، بل فتح لي بابه ، وقال يومها :

من يطلب الحرية لا يُسأل عن ماضيه ، وإنما يُنظر إلى قلبه.

ومنذ تلك الليلة بدأت رحلة أخرى ؛ رحلة البحث عن الأصل ، وعن العدالة ، وعن الإنسان الذي دفنته المظالم في أعماقي.

ولطالما أدركت بعد ذلك أن الإنسان قد ينجو من سيف عدوه، لكنه لا ينجو من ذكرى أحبته. فالندوب التي تصنعها السيوف يداويها الزمن، أما الندوب التي تحفرها الخيانة في القلب، فإنها تبقى ما بقي القلب ينبض.

حين يُستَدرج الثائر إلى ظِلّه

كانت ليلةً من تلك الليالي التي لا تُقاس بالوقت ، بل بوطأة الصمت فيها. السماء فوق السهول الشمالية كانت مائلة إلى زرقةٍ داكنة ، كأنها صفحة حديدٍ عتيقٍ صُقِلَت بالبرد. والريح تمرُّ بين الأعشاب الطويلة فتُحدث فيها همسًا خافتًا يشبه الأنين، أو يشبه صدى أقدامٍ بعيدةٍ لم يُعرَف أصحابها بعد. على أطراف المخيم، حيث ارتفع الدخان من مواقد صغيرة، كان الرجال يتوزّعون بين يقظةٍ وحذر، وبين رجاءٍ متعبٍ لا يجرؤ على الإفصاح عن نفسه.

في تلك العتمة جلس رازين وحده ، كأن الوحدة ليست حالًا طارئة عليه ، بل ثوبًا خُلق على مقاس روحه. كان شابًا نُحت وجهه من التعب والمطاردة، لكن في عينيه نارًا لا تخبو؛ نارًا تشبه ما يبقى في الرماد بعد أن يظن الناس أن النار انتهت. كانت قسماته تحمل تاريخًا لا يُروى بسهولة: ذكريات الهرب، ومرارة الفقد، ووجوهًا غابت في السجون، وأسماءً ابتلعتها الثلوج. لم يكن رجلًا يعيش في الزمن، بل رجلًا يحيا على حافته، كأن كل يوم يمر به هو معركة جديدة مع القدر.

دخل أوتار على مهل، لا كمن يدخل خيمة، بل كمن يدخل قلبًا موصدًا بالحذر. كان أكثر هدوءًا من رفيقه، غير أن الهدوء في مثله لم يكن علامةَ ضعف، بل ثمرة معرفةٍ طويلة بطبيعة الناس والحروب والخذلان. توقّف غير بعيد، وألقى نظرةً على وجه رازين، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ لكنه نافذ : لن تصل إلى ثأرك يا رازين بجهدك الفردي. إن مجرد الاقتراب من جديد من موسكو هو انتحار لا مهرب منه. سيؤخذ اسمك ، وتُطوى خطاك ، وتُقتل شرَّ قتلة.

رفع رازين رأسه ببطء، ولم يُجب فورًا. كان في داخله جمرٌ من الغضب، لكنّه تعلّم أن الغضب إذا انفجر في غير أوانه صار أداةً بيد العدو. نظر إلى أوتار بعينين ضيقتين، وسأله وقد حاول أن يجعل صوته ثابتًا: فيم تنصح يا أوتار ؟ وبحق السماء، لا تطلب مني كما طلبت من قبل أن أبحث عن أصلي وعمن تبقّى من أهلي. لقد سئمت أن أُلاحَق في وجهي وأسمي ونسبي، كأن الإنسان لا يكون إنسانًا حتى يُثبت قبرًا يعود إليه.

تنفّس أوتار بعمق، ثم اقترب وجلس قبالته. كانت النار الصغيرة بينهما تضع على الوجوه ظلالًا متحرّكة، فتجعل الملامح كأنها تتبدّل مع كل رمشة عين. قال بعد صمت قصير: الذي لا أشك فيه يا رازين أنك شركسي مسلم مثلي، ولكنني لا أنصحك بأن تجهر بهذا أبدًا.

ارتفع حاجبا رازين في دهشةٍ ممزوجةٍ بالامتعاض.

ولماذا ؟

أجاب أوتار وهو يختار كلماته كأنها حجارة يعبر بها نهرًا هائجًا :

أنك في حاجة إلى الرجال الذين يسيرون خلفك ويؤيّدونك في ثورتك التي تريد أن تشعلها على القير وزبانيته. أعلم يا صديقي أن في تلك السهول والبراري حتى شمال بحيرة بايكال قبائل مقاتلة قوية، لكنها مختلفة الديانات: منهم الوثنيون ، ومنهم عباد القمر والنار، ومنهم الشركس المسلمون، وبينهم الكثيرون من الأرثوذكس. لو أردت أن تجمع شملهم وراءك، فلا تذكر الدين.

غامت عينا رازين لحظة، كأنما سقطت عليه من الكلمات سحابةٌ باردة. كان يدرك صدق أوتار، لكنه كان يشعر أيضًا بطعنٍ خفيّ في ذاته. قال بمرارة مكتومة : ما أعجب أمرك! مرة تدعوني إلى البحث عن أصلي ، ومرة تريد مني أن أنكِر إنني مسلم إذا تأكدت من هذا ؟ أتريدني أن أعيش نصف إنسان ، نصف اسم، نصف عقيدة ؟

ابتسم أوتار ابتسامةً حزينة، لا تستهين بآلام صاحبه بل تعرف أنها ستبقى جرحًا مفتوحًا. ردّ بصوت فيه لينٌ وقسوة معًا:

ليس هذا أوان الدعوة إلى العدالة باسم الدين. إن هذا يفرّق جمع من ستلتجئ إليه لمساعدتك. نحن في زمنٍ لا يحتمل رفاهية الانقسام. القيصر لا يسأل الناس عن صلاتهم حين يجلدهم ، ولا عن حجّهم حين يزجّ بهم في الثلج، ولا عن صلواتهم حين يسوقهم كالقطيع. هو يسحق الجميع بيدٍ واحدة ، فكيف سنقاومه ونحن نتنازع على الأسماء قبل أن نتّحد على المصير ؟

خفض رازين رأسه، وأخذ بعقب أصابعه يعبث بطرف عباءته. وفي داخله كانت المعركة أشد مما يظهر على وجهه. لقد عاش سنواتٍ طويلة وهو مطعون في الأصل، مجهول النسب، كأن الأرض لفظته ولم تُقرّه. كان يشعر أحيانًا أنه يولد كل صباح من جديد بلا جذور، وأن هذا الفقد الخفيّ هو ما جعله أقسى من غيره وأشد توقًا إلى الانتصار. ولم يكن ثأره

شخصيًا فقط، بل ثأرًا لكرامةٍ ممزقة، ولعمرٍ أُهدر، ولأجيالٍ تعلّمت أن تنحني كي تبقى.

قال بعد لحظةٍ طويلة من التأمل : أتظنهم يستجيبون لي يا أوتار ؟

وما إن أنهى سؤاله حتى لمح على وجه رفيقه أثر الحماس. كان أوتار من أولئك الذين إذا تحدّثوا عن الحرية بدت أعينهم أوسع من الليل، وكأنها ترى غدًا لم يولد بعد.

قال بحزم : سيسيرون خلفك إذا رفعت شعار العدالة والحرية. لا أعني بهذا يا رازين أنك في استطاعتك تحدي الحكومة المركزية بهؤلاء وحدهم، كلا يا صديقي. لكن يكفي أن تهزّ ولاء الناس هذا للقيصر. يكفي أن تزرع الشك في قلوبهم من قدسية طاعته، وأن تذكرهم بأنهم بشر لا رعايا وُلدوا للركوع. وقد لا نحقق كل ما تريد في حياتك، ولكن من المؤكد أنه سيأتي بعدك من يحمل اللواء. يكفي يا صديقي أن تبذر الحرية، لتنمو شجرتها في حياتك أو في حياة من سيأتي بعدنا من أبطال القوزاق والشركس والتتار.

ارتجف رازين من أعماقه. لم يكن الحماس في صوت أوتار مجرّد كلام، بل كان يشبه قبسًا يشتعل في أرضٍ يابسة. ومع ذلك، فإن الشك لم يبرح صدره. قال وهو يرفع عينيه إلى سقف الخيمة كأنه يبحث فيه عن جوابٍ غائب:

كلامك جميل يا أوتار، بل هو أجمل من أن يُحتمل. لكنك تتحدث كأن الرجال يُجمعون بالكلمات وحدها. الناس يا صاحبي لا تتحرك من أجل العدالة ما لم ترَ في قائدها نارًا تُماثل نارها، أو مصلحةً توازي خوفها. وأنا... أنا لا أملك لهم إلا اسمي، وجرحي، وشيئًا من الحقد. فهل تكفي هذه أصولًا لثورة ؟

هنا مال أوتار إلى الأمام، وتبدلت نبرته إلى ما يشبه الاعتراف :

الثورة لا تبدأ بكمال الوسائل، بل بصدق الشعور. إن كثيرًا من الملوك بدأوا بأضعف مما تملك، لكنهم كانوا يملكون جرأة الاستمرار. أما أنت، فجرحك ليس عيبًا. الجرح حين يُحسن صاحبه حمله، يصير راية. لا تنظر إلى النقص فيك كعار، بل كموضعٍ يدخل منه الضوء. الناس لا تتبع النقيّ بلا أثر، بل تتبع من عرف الذلّ ثم قرر ألا يورّثه لغيره.

سكت رازين. كانت الكلمات تنفذ إلى صميمه، وتوقظ فيه شيئًا أشبه بالخجل. لقد اعتاد أن يظن القوة صلابةً خالصة، لكن أوتار يعلّمه الآن أن

القوة ربما تكون أحيانًا في الاعتراف بالانكسار ثم البناء فوقه. غير أن سؤالًا آخر، أثقل من سابقيه، ارتفع من داخله كأنه نداء من قاع بئر:

ومن أنا حقًا ؟

لم يكن السؤال جديدًا، لكنه الليلة بدا أوجع من ذي قبل. ما جدوى أن يطارد الثأر إن كان الاسم الذي يقاتل من أجله مهتزًّا؟ ما معنى أن يطلب العدالة وهو نفسه لا يملك يقينًا في نسبه، في ماضيه، في الدم الذي يجري في عروقه؟ لقد عاش طويلاً بين فراغين: فراغ الهوية، وفراغ الأمان. وكان كل ما حوله يذكّره بأن الرجل بلا قبيلة يشبه شجرةً اقتلعتها الريح، مهما بقيت أوراقها خضراء.

قال بصوتٍ خفيض، كأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب رفيقه :

لعلّك محق. لكن قل لي يا أوتار، أليس في هذا إهانة للدين نفسه؟ ألسنا حين نخفي ما نؤمن به، نطعن صدقنا ؟

هزّ أوتار رأسه بتؤدة، وقال :

الصدق يا رازين ليس أن ترفع شعارًا يفرّق الناس عنك، بل أن تحسن تقدير اللحظة. ليس كل حق يُقال في كل موضع. أحيانًا تكون الحكمة أن تؤجل كلمةً لتنجو بألف رجل. ما قيمة إظهار العقيدة إذا كان ثمنه أن ينفضّ عنك من يمكن أن يحملوا معك السلاح؟ الدين في القلب، في السلوك، في العدل، في الرحمة، في أن لا تطأ المستضعف. أما رايته اليوم، فتُشعل حولنا أكثر مما تُنير. نحن لا نواجه كافرًا واحدًا، بل إمبراطوريةً تعرف كيف تستخدم العقيدة كما تستخدم السوط.

ظل رازين صامتًا. كان يسمع أوتار، وفي الوقت نفسه يسمع صمتًا آخر في داخله. صمتًا يأتي من تلك الزاوية المظلمة من الروح حيث يسكن الطفل الذي كانه يومًا: طفلٌ يسأل عن أمه فلا يجد، وعن أبيه فلا يُجاب، وعن بيته فلا يُشار إليه. شعر أن قلبه ينقبض، لا لأن أوتار يناقضه، بل لأن العالم كلّه يطالبه أن يكون أكبر من ألمه، وأبرد من جرحه، وأبرع من حيرته.

قال فجأة، وكأن العبارة خرجت من بين أسنانه : إذن تريدني أن أكون قائدًا للناس قبل أن أكون أنا نفسي ؟

أخفض أوتار عينيه لحظة، ثم أجابه : نعم. لأن من لا يقُد نفسه أولًا يضيع، ومن يضيع نفسه في زمنٍ كهذا يُضيع معه من يتبعه. وأنا لا

أطلب منك أن تخون حقيقتك، بل أن تحفظها إلى حين. ليس كل صمتٍ كذبًا، وليس كل إخفاءٍ نفاقًا. أحيانًا يكون الصمت سترًا على نارٍ لا ينبغي أن تُرى قبل أوانها.

هنا تحركت في صدر رازين موجةٌ جديدة من الأسئلة ، لكنها لم تجد سبيلًا إلى اللسان. كان يشعر أن أوتار يمد له يدًا من الحكمة، غير أن قبضة هذه الحكمة باردة، كأنها لا تفهم حرارة الدم الذي يغلي داخله. فما قيمة أن يصبر ؟ وما قيمة أن يؤجل انفجاره؟ أليس التأجيل شكلًا آخر من الموت البطيء ؟

أطرق طويلًا، ثم سأل بصوتٍ متقطع : وأنت؟ لماذا لا تقود أنت ما تدعوني إليه؟ أنت أفصح مني، وأهدأ، وأعرف بالناس. لم لا تقوم أنت بالدور الذي تريدني أن أقوم به ؟

ابتسم أوتار ابتسامة شاحبة ، وفيها من الأسى أكثر مما في الليل من نجوم.

لأنني أعرف الطريق ولا أملك النار الكافية لإشعالها في القلوب كما تفعل أنت. أنت تحمل في وجهك شيئًا من التحدي، وفي صمتك شيئًا من المأساة، والناس تتبع من يذكّرها بقصتها. ثم إنني رجلٌ أستطيع أن أنصح، لا أن أجرّ وراءي الجموع. لكل واحدٍ منا موهبته وابتلاؤه. أنت جُبلت للاندفاع، وأنا جُبلت للتبصّر. ولو عكسنا الأدوار لضاع كل منا في ثوب الآخر.

تنهد رازين. لم يقتنع تمام الاقتناع ، لكنه لم يجد في نفسه قدرةً على المجادلة. كان في كلام أوتار شيء من الحقيقة الثقيلة، تلك الحقيقة التي لا تُحب، لكنها لا تُدحض. وفجأة شعر بأن الليل حوله أوسع من الخيمة، وأوسع من المخيم، وأوسع من الحدود التي رسمها القيصر على الخرائط. شعر أن التحدي الحقيقي ليس في موسكو وحدها، بل في الإنسان ذاته حين يُجبَر على الاختيار بين خلاصه الخاص وخلاص الآخرين.

مدّ يده إلى النار الصغيرة ، فاهتزّ لهيبها لحظةً ثم استقام. نظر إليها كأنه يقرأ في جمرها نبوءةً غامضة، وقال في نفسه :كم من ثورات بدأت بشرارةٍ مثل هذه، وكم من رجال احترقوا لأنهم ظنوا الشرارة تكفي دون ريحٍ وحطبٍ ووقت.

ثم رفع رأسه إلى أوتار وقال : أخشى يا صديقي أنني كلما اقتربت من الثأر ابتعدت عن نفسي. أخشى أن يُحوّلني الانتقام إلى صورةٍ أخرى

من الظلم الذي أهرب منه. لقد رأيت في السجون رجالًا خرجوا منها أشدّ قسوةً من الجلادين. ورأيت في الوجوه التي تنادى بالحرية من لا يعرفون للحرية إلا أن تكون سلاحًا في يدهم.

أجاب أوتار وقد لان صوته : ولذلك أتيتُ إليك الليلة. كي لا تمضي وراء نارك وحدك. القائد الذي لا يصغي إلى صديقه أول من يسقط في الفخ. احتفظ بدمك، واحتفظ باسمك، وإن اضطررت أن تخفي شيئًا من نفسك الآن، فافعل. الحقيقية ليست أن تصرخ دائمًا، بل أن تبقى حيًّا حتى تقول ما يجب قوله في حينه. ما زال الطريق طويلًا يا رازين، والسهول التي تنتظرنا أعرض من حقدنا وأكبر من ثأرنا.

ساد الصمت من جديد. لكن هذا الصمت لم يكن خاليًا ، بل كان مملوءًا بصوتين لا يُسمعان: صوت العناد في رازين، وصوت الحكمة في أوتار. وكان كلاهما يعرف أن الساعات القادمة لن تكون سهلة ، وأن الدم الذي يُسكب على طريق الانتقام لا يعود بسهولة إلى مجراه.

نهض رازين أخيرًا ، ومشى نحو باب الخيمة، ثم توقّف عنده كأنما يلتفت إلى حياته كلها. كانت الريح قد اشتدت قليلًا، وصار الدخان يتلوى فوق المساكن المنخفضة، ورأى في العتمة وجوه الرجال النائمين، وجباه الصغار، وأكتاف النساء المنحنيات فوق القلق. هناك، وسط ذلك المشهد البشري الهش، أدرك أن الثورة ليست حلم رجل واحد، بل امتحان جماعةٍ كاملة. وأن الثأر، مهما اشتدّ، لا يصنع وحده مستقبلًا.

قال بصوتٍ لم يعد فيه التردد الأول نفسه : لعلّك على حق يا أوتار. لكنني لا أعدك أنني سأصير رجلًا آخر في ليلة واحدة.

ردّ أوتار وهو ينهض : لا أطلب ذلك. يكفي أن لا تهلك قبل أن تُنضجك الأيام. فبعض الرجال لا ينمو مجدهم إلا حين يتأخر نضجهم قليلًا.

ابتسم رازين ابتسامةً خفيفة، كانت أقرب إلى الوعد منها إلى الفرح. ثم خرج إلى الليل، كمن يخرج من خيمة إلى قدره. ولأول مرة منذ زمنٍ بعيد، شعر أن الطريق الذي أمامه ليس مجرد طريق إلى ثأرٍ قديم، بل طريق إلى فهمٍ أعمق للناس، وللدين، وللحرية، وللوجع الذي يقيم في صدر كل ثائر.

ومضى في السهول الصامتة، يحمل في داخله نارًا أقل اضطرابًا، لكنها أشد عمقًا. لقد تعلّم تلك الليلة أن الثورة ليست أن تلوّح بما في قلبك

من يقين، بل أن تعرف متى تُخفيه حتى لا يقتله التسرّع. وأن الرجولة ليست في العناد وحده، بل في أن يقبل المرء أن يُنصَح، وأن يراجع نفسه، وأن يعترف بأن الطريق إلى الحق لا يُعبَّد دائمًا بالحماسة، بل بالحكمة، والصبر، والقدرة على انتظار اللحظة التي يصبح فيها الصوت الصغير نداءً كبيرًا.

وهكذا، انطفأت نار الخيمة قليلًا ، لكن شيئًا أعمق منها كان قد اشتعل في صدر رازين: نار الفكرة حين تتطهّر من الغضب، وتتحول من ثأرٍ أعمى إلى حلمٍ يرى الناس جميعًا، لا نفسه وحده.

رازين ونداء السهول: وعدُ القيادة في ليلٍ مضطرب

كانت السماء في تلك الليلة من ليالي الشمال مثل صفحة حديدية صقيلة ، لا نجمة فيها تلمع ، ولا قمر يخفف من وحشة الأرض. والريح، وهي تهبّ من الجهات الأربع ، كانت تمرّ فوق السهول مرور الرقيب القاسي على أرضٍ أرهقها القتال، فتصطكُّ بها أوتاد الخيام، وتئنّ تحتها الحبال ، كأن المعسكر كله يستمع إلى همسٍ خفيّ صادر من أعماق التاريخ.

في الخيمة الكبرى ، خيمة القيادة ، كان الضوء الشاحب يتراقص فوق وجوه الرجال ، ويُحيل الظلال إلى أشباحٍ ممتدة على الجدران من نسيج الصوف الغليظ. قرب الموقد ، حيث تتآكل الجذوع ببطء وتنفث دخانًا خفيفًا، وقف الشيخ العتيق، سيد قبيلة الجوليتبال الشرلاكسية، رجلًا جاوزت التجاربُ ملامحه، لكنه لم تسرق من عينيه حرارة الإيمان ولا صرامة العزم. كان صوته حين يتكلم أشبه بصوت نهرٍ قديم ، يعرف الطريق وإن اختلطت عليه الضفاف.

أما رازين ، فكان جالسًا على وسادة بسيطة عند الطرف الآخر من الخيمة ، متكئًا بيدٍ على ركبته ، وناكس الرأس كمن يحمل في صدره حربًا أخرى لا يراها الناس. لم يكن شابًا كسائر الشبان؛ فقد كانت في وجهه مسحة رجلٍ جرّب الخيبة قبل أن يذوق النصر، وأحسّ في قلبه مبكرًا أن الزعامة ليست تاجًا من ذهب، بل عبءٌ من نار. عيناه كانتا حادتين، لكن في عمقهما غابة من السؤال والشك والرجاء. وكان كل شيء فيه يوحي بالقوة، غير أن القوة وحدها لا تصنع قائدًا؛ إنما الذي يصنعه هو أن يظلّ واقفًا بعد أن ينهكه الخوف.

تقدّم الشيخ منه خطوة، ثم قال وهو يحدّق في ملامحه الطويلة :

ليس فيمن حولي ، ولا فيمن عرفتُ من أبناء القبائل، مَن يملك ما تملكه أنت يا رازين. أقولها ولا أريد بها مدحًا أجوف، بل شهادة رجلٍ عركته الأيام. لقد خُلِقتَ للقيادة، وكأن يدًا من الغيب صاغتك على هذا المثال؛ ثابت الجأش، نافذ البصيرة، تعرف متى تصمت ومتى تتكلم، ومتى تدع السيف يتقدّم ومتى تقدّم العقل عليه. وتلك، يا صديقي، منحة ربانية خصَّ بها الله العظيم من يشاء من عباده .

رفع رازين رأسه ببطء. كان يريد أن يبتسم، لكن ملامحه لم تطاوعه. فعبارات المديح ، مهما سمت، كانت تثير في قلبه قلقًا أعمق من الفرح. فهو يعرف أن الطريق إلى الريادة يبدأ دائمًا بكلمات جميلة، لكنه لا يلبث أن يتلوّن بالدم والوحل والشك.

قال بصوت خافت ، كأن السؤال خرج من جرحٍ لا من فم :

أتظنني أهلًا لذلك حقًّا ؟ أم أنك تقول ما تقوله لأنك تريد أن تدفع بي إلى طريق لا رجعة منه ؟

ابتسم الشيخ ابتسامة مَن يفهم الحذر ولا يعيبه ، ثم اقترب حتى صار صوته أقرب إلى الهمس:

لو أردتُ أن أدفعك إلى الهلاك لما وضعتُ في يدك زمام الرجال. إنما أنا أرى فيك ما لا يراه كثيرون: إرادة لا تلين، وصبرًا لا يتباهى، وعقلًا لا ينساق وراء أول بريق. لقد مرّت على هذه البلاد أعوامٌ صارت فيها الطاعة عبودية، وصار الصمت قانونًا للضعفاء. والناس، يا رازين، لا يحتاجون إلى بطلٍ يلوّح لهم بالسيوف فحسب، بل إلى رجلٍ يعرف كيف يجمع القلوب قبل أن يجمع السلاح .

ساد الصمت لحظةً. كان في الخيمة ما يكفي من الهدوء ليتسلل إليه صوت النار وهي تلتهم الحطب ، وصوت الأقمشة وهي تهتزّ مع الريح. عند ذلك، شعر رازين بشيءٍ يشبه الانقسام في داخله: جزءٌ منه يرفض الثقة بالوعود، وجزءٌ آخر كان يتشوّق إلى أن يصدق أن القدر قد اختاره حقًّا. تذكّر والده، وتذكّر الأرض التي نشأ عليها، وتذكّر الرجال الذين خسرهم في حملاتٍ سابقة حين كانت الجرأة وحدها سلاحه. ثم تذكّر ، قبل كل شيء، نظرة أمه يوم ودّعته؛ كانت تعرف أن من يحمل في صدره نارًا من هذا النوع إمّا أن يحرق العالم أو يبدّل وجهه.

قال الشيخ ، وقد أدرك ما يدور في نفس رفيقه ، كأنه يقرأ أفكاره من تجاعيد وجهه :

سأكون ، يا صديقي ، لا أتخلى عنك أبدًا. هذه ليست كلمة تُقال في مجلس ثم تُنسى مع انطفاء المصباح. أنا معك ما بقي فيّ نفس. وإنني، سيد قبيلة الجوليتبال الشرلاكسية ، أعلنها أمام هذه النار وأمام هذه الليلة وأمام ما بقي من شرف السهول: سيسيرون جميعًا خلفك إذا أحسنت استدعاء الزمن، لا إذا استعجلته .

رفع رازين حاجبيه وسأل ، وقد استوقفه هذا المعنى الأخير :

وكم عددهم ؟

لم يجب الشيخ فورًا. مدّ يده إلى الكأس الموضوعة قربه ، شرب جرعة ماء، ثم قال ببطء كمن يضع حجر أساس:

ستمائة من المقاتلين الأشداء. رجال لا يهابون صليل الحديد، ولا يضعفون حين تشتد وطأة الرصاص. إذا هجموا، اقتحموا خطوط المدافع بسيوفهم ورماحهم، كأنهم يندفعون من رحم الأرض نفسها. أعرف أن العدد قليل إذا قيس بجيوش القيصر وأزلامه ، ولكن كل نهرٍ عظيم يبدأ بجدول ، وكل نارٍ عظيمة تبدأ بشرارة .

لم يرد رازين على الفور. نظر إلى الأرض ، كأنه يرى فيها خريطة الحرب المقبلة. مئة سؤالٍ اندفع إلى رأسه، لكن أكثرها إيلامًا كان ذلك السؤال الذي لا يجرؤ كثيرون على مواجهته : هل يكفي رجالٌ شجعان لتحرير أمةٍ مثقلة بالهيبة والخوف ؟ أم أن الشجاعة ، إذا لم تُحسن إدارتها ، تتحوّل إلى انتحار جماعي ؟

ثم رفع رأسه وقال ، وفي صوته شيء من المرارة وشيء من الإصرار : ستمائة فقط... والعدوّ يملك من السلاح والعتاد والحاميات ما يجعل الجبال نفسها ترتجف. كيف تريدني أن أبدأ ؟ بأي يد أمسك هذا الحلم ، وبأي قلب أزحف به إلى الناس ؟

اقترب الشيخ أكثر ، وجلس قبالته. كانت عيناه الثاقبتان تحملان خبرة المفاوضات أكثر من خبرة الحروب ، لكنه يعرف أن الحرب في هذه الأزمنة لا تُكسب بالسيف وحده، بل بالمكيدة ، وببطء الخطى ، وبالقدرة على كتمان النية حتى تحين الساعة.

قال : من الآن سيكون عملي أن آخذك لمقابلة كل رؤساء القبائل الأخرى في أسفل الدون والفولجا، ثم شرقًا قرب بحيرة مايكل. هناك رجال يئنّون تحت القهر، ويكتمون غضبهم كما تكتم الأرض نارها تحت الرماد. ستراهم مترددين أول الأمر، لأن الرهبة من القيصر وأسرته زرعت فيهم الخنوع كما تزرع الريح بذور العشب في الشقوق. لكنك، إن أحسنت مخاطبة قلوبهم، ستجعلهم يرون فيك طريقًا لا مغامرة. وعندما يأتي الوقت المناسب، سيحارب معك هؤلاء جميعًا، أولئك المضطهدون الذين طال عليهم الليل .

لمّا سمع رازين أسماء الأنهار والبحيرة والقبائل ، اتسعت في صدره صورة البلاد كأنها تنفتح أمامه صفحة بعد صفحة. لم يعد يرى

الخيمة ولا الموقد ولا الشيخ وحده، بل رأى السهول البعيدة، والقرى الصامتة، والرجال الذين يخفون غضبهم وراء الخبز اليابس والعمل القاسي، والنساء اللواتي يرسلن أبناءهن إلى الحياة ولا يعلمن إن كانوا سيعودون. رأى القصور في يد الطغاة، ورأى أيضًا الأكواخ التي تُقيم فوق الصبر كما يقيم الجرح فوق العظم. وفي تلك اللحظة أحسّ أن الحرب ليست فقط معسكرًا وسيوفًا، بل وعدًا ثقيلًا بالعدل.

ومع ذلك، بقي في داخله صوتٌ آخر، صوت شديد الرهبة يقول له: الحلم الكبير قد يبتلع صاحبه.

قال في نفسه: لستُ أريد مجدًا لنفسي. لا أريد أن أكون اسمي وحده على أفواه الرجال ، ثم أنسى معنى الناس. إنما أريد أن أفتح نافذةً في هذا الليل الطويل. لكن هل يصدقني القوم؟ وهل يكفي أن أكون صادق النية؟ التاريخ لا يرحم من يظن أن النية وحدها تعصمه. التاريخ يطلب من القائد أن يكون حازمًا مثل الصخر، مرنًا مثل الغصن، صبورًا مثل نهرٍ يشقّ الحجر ولا يتوقف.

رفع عينيه إلى الشيخ وقال : إن ما تعرضه عليّ ليس خيالًا صغيرًا، بل نارًا قد تأكلنا إن أسأنا النفخ فيها. وأنا أعرف أن السرعة تفسد أكثر مما تصلح. ولكنّني أخشى أن يسبقنا العدوّ، أو أن يفضحنا بعض من نتوسم فيهم الوفاء .

هزّ الشيخ رأسه ، وكأنما كان ينتظر هذه الخشية بعينها. ثم قال :

ولهذا قلتُ : السرية أولًا، والبطء ثانيًا، والحذر ثالثًا. سنمضي كمن يزرع شجرة لا كمن يرفع راية في ساحة. لن نثير الشبهات في الحاميات الروسية. سنمرّ بينهم كما تمرّ الريح في الشتاء: لا تُرى، ولكنها تُشعر العظم بالبرد. نختبر الرجال واحدًا واحدًا، ونزن إخلاصهم كما يزن الصائغ الذهب على النار. لا نفتح الباب للاندفاع. الثورات التي تبدأ بالصوت العالي تنتهي أحيانًا في المقابر. أما نحن، فنريد أن تبدأ الحكاية همسًا، ثم تكبر حتى تصير صرخةً لا تُقاوم .

سكت قليلاً ، ثم أضاف بصوت أعمق ، كأنه يحدّث الأرض نفسها : والناس يا رازين لا ينهضون حين يسمعون وعودًا كثيرة، بل حين يرون رجلًا يشبههم في الألم ويختلف عنهم في العزم. أنت من هذا النوع. فيك شيء من الجوع القديم، وجوع المظلوم هو أصل اليقظة .

+

شعر رازين في تلك اللحظة أن الرجل العجوز لا يتكلم معه فقط، بل يبعث إليه صورة المستقبل. ورأى نفسه، في خاطرٍ عابر ، يسير بين الرجال لا بوصفه سيدًا متعجرفًا، بل قائدًا يشاركهم الطريق والبرد والخبز والخوف. كان إدراكه للقيادة يتغير شيئًا فشيئًا: لم تعد الزعامة عنده حكمًا، بل مسؤولية ؛ لم تعد رفعةً فوق الناس، بل نزولًا إلى عمق وجعهم.

وبينما هو غارق في التأمل ، وصل إلى أذنيه صوت بعيد من خارج الخيمة : صهيل فرس ، ثم وقع أقدام ، ثم ضحكة مكتومة لواحد من الحراس. كل تلك الأصوات العادية جعلته يشعر أن العالم، رغم الاضطراب، ما زال مستمرًا في عادته الغريبة : الناس ينامون ، والخيول تتنفس ، والريح تتراجع وتعود ، والتاريخ يكتب سطوره في الظل.

قال الشيخ بعد صمت : لا تنظر إلى ضعف العدد الآن. انظر إلى اتساع الفكرة. إن أربعة رجال مؤمنين بغايةٍ واحدة قد يهزون مملكةً قائمة على الخوف. وإن ستمائة رجل إذا عرفوا لماذا يقاتلون، قد يكونون بذرة جيشٍ لا يُقهَر. أما الجموع التي لا تعرف الغاية ، فهي غبارٌ تذروه أول ريح .

أحنى رازين رأسه مرة أخرى. كانت الكلمات تتسرب إلى داخله مثل ماءٍ بارد في أرضٍ عطشى. ثم قال، بصوت لم يعد فيه التردد الذي كان قبل قليل :

إذن نمضِ على بركة الله. لكنني أطلب منك شيئًا واحدًا: لا تتركني إذا وجدتني يومًا أميل إلى القسوة أكثر من اللازم، أو إلى الشك أكثر من اللازم. القائد، حين تشتد عليه الأيام، قد يرى في كل وجهٍ خديعة. وأنا لا أريد أن أتحوّل إلى ما أحاربه .

نظر إليه الشيخ نظرة فاحصة، ثم وضع يده على كتفه وقال :

هذا هو الكلام الذي يصنع الرجال. من لا يخشَ أن يفسد، لا يصلح أن يُؤتمن على الإصلاح. وسأكون إلى جانبك لأذكّرك بأن العدل لا يكتمل بالغلبة، وأن الرحمة لا تناقض القوة، بل تهذّبها. نحن لا نقاتل لنصير سادةً على أنقاض الآخرين، بل لنكسر القيد عن الرقاب، ونمنح الأرض فرصةً لتتنفس .

+

في تلك اللحظة أحسّ رازين أن شيئًا عميقًا تحرّك في صدره، كأن بابًا قديمًا فُتح في داخله على هواء جديد. لم يعد يراه رجلًا واحدًا أمامه، بل طريقًا طويلًا يمتد بين القبائل والأنهار والسهول والولاءات المتبدلة. وسمع نفسه، من حيث لا يدري، يجيب :

إذن سنبدأ من الليلة. أريد أن أعرف أسماء الرجال الذين سألتقيهم، وأن أسمع عن طبائعهم ، وما يحبون وما يكرهون ، ومن منهم يثق بالقيصر ومن منهم يلعنه في السر. لا أريد أن أتحرك كأعمى في ساحةٍ مفتوحة .

ابتسم الشيخ، وقد بدت عليه علامات الرضا. وقال : هذه هي الخطوة الأولى. القائد الحقيقي لا يطلب السيف أولًا، بل المعرفة. السيف في يد الجاهل هلاك، وفي يد العارف حكم. غدًا نبدأ الطريق. لكن قبل أن نغادر هذا الموضع، ينبغي أن يبيت قلبك ثابتًا، لأن من يريد أن يهزّ عرش الطغيان عليه أولًا أن يهزم اضطراب نفسه .

عندها نهض رازين، ببطء ولكن بثبات، وتقدّم إلى فتحة الخيمة. أبعد الجلد الساتر قليلًا، فاندفعت إليه نسمة ليلية باردة. رأى الأفق مظلمًا، لكنه لم يعد في عينيه مجرد ظلام؛ صار ظلامًا يمكن شقه. ورأى السهول البعيدة كأنها تنتظر كلمة منه. ورأى المعسكر الصغير كأنه نواةُ جيشٍ أكبر، لم يولد بعد، لكنه أخذ أول نفس.

قال في سرّه، وهو ينظر إلى الليل الممتد : لن أسمح للخوف أن يسبقني. لن أكون رجلًا يحلم ثم يتراجع عند أول حجر. إن كان القدر قد اختارني، فسأكون على قدر هذا الاختيار. وإن كان الطريق يمرّ بالسر، فسأسير في السر. وإن كان يمرّ بالبطء، فسأصبر على بطئي. لكنني لن أعود إلى الوراء بعد اليوم.

ثم التفت إلى الشيخ وقال : احفظ أسماء الرؤساء، واذكر لي مواطن القوة والضعف. سنمشي إلى الدون والفولجا كما يمشي المطر إلى الأرض العطشى، بهدوء، ولكن بلا انقطاع .

فأومأ الشيخ، وقال في نبرة يختلط فيها الاعتزاز بالشفقة : هكذا تبدأ الأمم يا رازين: لا بضربة السيف الأولى، بل بكلمةٍ صادقة، وبقلبٍ يعرف أن النصر لا يُمنح، بل يُنتزع. أما أنت، فقد بدأتَ الآن تخطو الخطوة التي لا يعود بعدها الرجل كما كان .

+

وانطفأت في الخيمة شعلةٌ صغيرة ، وبقيت الأخرى تشتعل ، كأنها تعرف أن الليلة لم تنتهِ بعد، وأن في السهول الممتدة تحت هذا الظلام مولدًا جديدًا لحكايةٍ ستكبر شيئًا فشيئًا ، حتى تصير حديث الأنهار والقبائل والفرسان. أما رازين، فظلّ واقفًا عند فتحة الخيمة، مشدود القامة، كأنما صار يسمع في صمت الليل صوت التاريخ وهو يستعدّ لكتابة فصلٍ جديد.

في ظلال السهوب

حديث الحرية والدم بين نظام الدين وأوتار أودينوف

قال نظام الدين، أو رازين كما تذكره المراجع الروسية أن تنطقه ، وهو يطوي في صوته غصّة قديمة لا تبرأ :

لقد ساعدتني الأقدار حقا بصداقة هذا الرجل الذكي الأمين.

ثم سكت لحظة، كأنما عاد ببصره إلى سنوات مضت ، إلى طرق موحلة ، وقرى نائية ، وخيام متفرقة ، وإلى وجوه رجالٍ لم تجمعهم لغة واحدة بقدر ما جمعتهم المرارة الواحدة. كان صوته حين يتكلم هادئًا، إلا أن الهدوء فيه لم يكن سكونًا؛ بل كان أشبه بسطح ماءٍ يخبّئ في أعماقه دوّامة لا يراها إلا من اقترب كثيرًا. كان كل حرفٍ يخرج من فمه كأنه يحمل وراءه صوت فرسٍ يركض، وصليل سيفٍ، وأنين أمهاتٍ خُطفت عنهن البنات، ودموع أطفالٍ أُخذوا إلى بيوت الغرباء.

ثم رفع رأسه، وعيناه تسترجعان الطريق، وقال :

حتى لحظاتي الأخيرة، كان أوتار أودينوف بجانبي. لم يكن مجرد رفيق سلاح ، بل كان عقلًا يقظًا ، ولسانًا قادرًا على أن يدخل القلوب من بابها المخفي. أخذني إلى قرى زعماء قبائل الشركس والقوزاق والتتار ، متنقلًا بين مضاربهم كما تتنقل الريح بين سهول الشتاء. وكان إذا دخل مجلسًا، دخل بثبات رجلٍ يعرف أن الكلمة قد تفتح ما لا يفتحه السيف، وأن القلب إذا لان مرةً للحق، صار حصنًا لا يُقتحم.

وسألته صديقتنا ، وقد كان في سؤالها شيءٌ من دهشة المؤرخ وشيءٌ من شكّ الإنسان الذي يعرف أن الجماعات لا تستجيب بسهولة لمن لا تعرفه :

أكانوا يقتنعون بسهولةٍ بحوارٍ يجريه معهم أحد زعماء الشركس ، وقد يرشح لهم قائدًا كان ضابطًا في جيش القيصر ، لا يعرفون له أصلًا ولا فصلًا ؟

ابتسم رازين ابتسامة باهتة ، لم تكن ابتسامة انتصار ، بل ابتسامة من عرف صعوبة الطريق وعاد منه مثقلًا بالحكمة. قال :

ما كان اقتناعهم سهلاً ، ولا الثقة تُمنح بلا ثمن. لكن الناس إذا أدمتهم التجربة ، صاروا أكثر إصغاءً لمن يحدّثهم بصدق. كان أوتار يعرف كيف يقرأ وجوه الرجال كما يقرأ الراعي أثر الحيوان على الثلج. كان يبدأ من جرحهم لا من أملٍ بعيد. يذكر لهم القرى المحروقة ، والبيوت التي صارت رمادًا ، والنساء اللواتي جُررن من أيدي أزواجهن ، والأطفال الذين نُزعوا من أحضان أمهاتهم ليكونوا خدمًا في قصور الأمراء أو وقودًا في جيوش لا تعرف عنهم إلا أنهم أرقام في دفاترها.

ثم صمت ، وأخذتْ ملامحه تنقلب في داخله كصفحاتٍ قديمة ، وتبدلت نبرته إلى نبرة من يخاطب نفسه قبل أن يخاطب الآخرين :

كان يقول لهم : إنكم تعيشون في شبه استقلالٍ مزعوم عن الحكومة الروسية. تظنون أن الجبال تحميكم ، وأن الوديان تُخفيكم ، وأن التقاليد القديمة تحرسكم من غدر القيصر ، ولكن أخبروني: هل منع استقلالكم الموهوم جيش القيصر من أن يقتل رجالكم ، ويسبي نساءكم ، ويأخذ أطفالكم إلى حيث لا يعودون ؟

كان أوتار، في حديثه ، لا يرفع صوته إلا حين تقتضي العاطفة ذلك ، ولا يلوّح بيده إلا كمن يرسم صورةً في الهواء. وكان يعرف أن الشعوب المقهورة لا تحتاج إلى خطيبٍ يزين لها الأكاذيب ، بل إلى رجلٍ يجرؤ على تسمية الأشياء بأسمائها. لذلك كان يطرق المسامع بالحق حتى لو كان الحقّ مرًّا كالعلقم.

قال رازين :

كان يقول لهم أيضًا: القيصر ورجاله لا يخشونكم لأنكم متفرقون، متعادون، متخاصمون. إن العدو إذا رأى القبائل تتنازع، رأى فيها غنيمة قبل أن يراها خطرًا. أمّا إذا رأى اليد تُصافح اليد، والراية تُرفع فوق جماعةٍ واحدة، والخوف يتراجع أمام وحدةٍ صلبة، فإنه يحسب ألف حساب. كونوا يدا واحدة، يخفْ عدوكم، ويغدو أمنكم سورًا صلبًا في مواجهة أي عدوان عليكم وعلى معتقداتكم. اتحدوا بدل هذا التفرق الذي يضعفكم، وازهدوا في عداوات الأمس، فإن الجوع واحد، والذل واحد، والدم المسفوح في القرى المتناثرة هو نفسه، مهما اختلفت الأسماء والأنساب.

وهنا شعرت صديقتنا أن السؤال لا يزال قائماً ، فسألت ، وقد استقر في عينيها شيءٌ من الحذر :

لكن كيف قبلوا أن يتبعوا رجلًا كان في صفوف القيصر ، ثم صار إلى دعوتهم ؟ أليست هذه مفارقةً تثير الريبة ؟

تنفّس رازين بعمق، كأنما يستدعي إلى صدره هواء تلك الأيام. ثم قال :

بلى، كانت الريبة أولَ ما استقبلهم به. ولم يكن أمرهم عجيبًا ؛ فالناس إذا ذاقوا الخيانة من جهةٍ ، حملوا شكهم على كل قادم. لكن أوتار لم يطلب منهم أن ينسوا ماضيه ، بل طلب منهم أن ينظروا إلى ما صار إليه. قال لهم : لا يهمني أن أُختبر ألف مرة ، إن كان في اختباري نجاةٌ لكم. إن الرجل لا يُقاس بالمنصب الذي خرج منه، بل بالموقف الذي اختاره حين عرف الحقيقة.

ثم أطرق ، وارتسمت على وجهه غشاوة خفيفة ، كأن صورًا بعينها نهضت من رقادها. رأى أخاه زارين ، ذلك الاسم الذي كان كلما ذُكر في المجالس أشعل النخوة في الصدور. لم يكن مزارين مجرد أخٍ في النسب ؛ كان مرآةً لمرحلةٍ كاملة من الكفاح ، وشاهدًا على الثمن الذي تدفعه الحرية حين تولد وسط الطغيان. قال رازين، وصوته يحمل من الحزن ما يكفي ليرجّ جدارًا حجريًا :

كان مصرع أخي زارين يثير نخوتهم. لعلها كانت النخوة نفسها التي تجعل الرجل ، وهو يسمع عن دم أخيه ، يشعر أن قلبه ليس ملكًا له بعد اليوم ، بل صار دينًا على رقبته. لقد صار موته رايةً غير مرئية ، يلتف حولها الرجال. كانوا يرون في الثأر عدلًا ، وفي الوحدة وفاءً لذكراه ، وفي مواصلة الطريق ردًا على يد الغدر.

وإذا بالزمن يعود به إلى تلك الجولة السياسية والعسكرية التي غيّرت وجه المنطقة ، لا لأنه خطط لها وحده ، بل لأن العناية نسجت خيوطها بين أشخاصٍ متباعدين في الأصل، متقاربين في المصير. قال :

لم تمر على تلك الجولة أكثر من تسعة أشهر حتى وجدتُ إلى جانبي من مختلف القبائل الشركسية والقوزاق والتتار أكثر من ستة آلاف رجل ، لا يعصون أمري ، لا لأنني كنت أملك سيفًا أصلب من سيوفهم ، بل لأنهم رأوا في ما دعوتهم إليه خلاصًا من زمنٍ طال فيه الخوف. كانوا رجالًا صلبين ، ينامون على الأرض ولا يشتكون ، ويأكلون القليل ولا يذلون أنفسهم لأحد. وفي عيونهم كانت نارٌ خافتة، لكنها لا تنطفئ: نار الكرامة.

ثم أضاف، وكأنما يحدّث نفسه ويخاطب التاريخ معًا :

لم يكن هؤلاء الستة آلاف مجرد جنود. كانوا فكرةً تمشي على قدمين. كانوا جوابًا متأخرًا عن سؤالٍ قديم: هل يمكن للفرق أن يصبح قوة؟ وهل يستطيع المقهور، إذا أدرك أن ظله طويل بقدر جماعةٍ كاملة، أن يغيّر وجه القدر؟

وسألته صديقتنا : وهل كان هدفهم واضحًا كل الوضوح ؟

فأجاب ، وقد ظهر في صوته شيءٌ من صرامة المحارب العارف أن الأهداف الكبيرة لا تُختزل في شعارات :

نعم. كان هدفهم الأسمى الحرية والسلام للجميع. لم نقل إننا نسعى إلى حربٍ من أجل الحرب، ولا إلى ثأرٍ أعمى، بل إلى يومٍ لا تُنهب فيه قريةٌ لأن اسمها مختلف، ولا يُقتل رجلٌ لأن لسانه غير لسان الحاكم، ولا تُساق امرأةٌ سبيةً لأن الجنود تعودوا الغلبة. الحرية عندنا لم تكن فوضى، بل نظامًا يرفع المظلوم من موضع التابع إلى موضع الشريك. والسلام لم يكن سكوتًا قسرًا، بل عدلًا يجعل السيف في غمده لأنه لم يعد هناك ما يستحق أن يُرفع لأجله الظلم.

وسكت قليلًا ، ثم قال ، وقد بدا كأنه يراجع قلبه كما يراجع القائد خريطة معركة :

لكن يا سيدتي ، لا تظني أن الطريق كان مفروشًا بالثقة. كنتُ أحيانًا أشعر أنني أسير على حبلٍ دقيق فوق هاويةٍ عميقة. كل خطوة قد تعني نصرًا أو سقوطًا. وكل مجلسٍ أدخله كان امتحانًا جديدًا : هل سيصدقونني ؟ هل سيرون فيَّ قائدًا أم رجلًا تخلّى عن سيده الأول وانتقل إلى سيدٍ جديد ؟ وكانت هذه الفكرة تلسعني من الداخل. لأن النفس ، مهما اشتدت، لا تهرب من سؤالها الأخطر: هل أنا حقًا أقاتل من أجل الناس ، أم أبحث عن معنىً أستند إليه كي أبرر غضبي ؟

وهنا ظهرت في كلماته طبقة أعمق ، طبقة الرجل الذي لا يكذب على نفسه. قال بصوتٍ متهدج قليلًا :

كنت أعود أحيانًا إلى الخيمة في آخر الليل ، والناس نيام ، فأجلس وحدي كأنني حارسٌ على خراب العالم. أسمع الريح تمر على أطراف القماش ، فأحسبها أنين أرضٍ واسعة. وأقول في سري : يا رازين ، هل ما زال في قلبك مكانٌ للرحمة كما كان فيه مكانٌ للغضب؟ هل ثورتك

سعيٌ إلى إصلاحٍ حقًا، أم أنها جرحٌ يريد أن يثبت للناس أنه قادر على النزف أكثر من غيره ؟

ثم رفع يده كمن يردّ شبهة عن نفسه :

لكنني كنت أجد الجواب في وجوه أولئك الرجال. في وجوه الأمهات اللواتي لم يبكين كثيرًا لأنهن تعبن من البكاء. في عيون الشيوخ الذين حملوا ذاكرة ثلاثة أجيال من القهر. في الأذرع السمراء التي تعرف كيف تزرع وكيف تحمل السلاح معًا. عندئذ كنت أقول لنفسي: إن كنتُ قد جئتُ بهم إلى هنا، فلستُ أطلب مجدًا شخصيًا، بل أُسهم، ولو بقدر صغير، في أن يتعلم المظلوم أن يقف.

وتقدمت الصديقة بسؤال آخر ، أكثر عمقًا من سابقيه :

وهل كانت قيادة هؤلاء الرجال ممكنةً لولا أوتار أودينوف ؟

ابتسم رازين، وهذه المرة كانت ابتسامته أقرب إلى الاعتراف منها إلى التذكر، وقال :

أوتار كان الجسر. وأنا كنتُ العاصفة. ومن دون الجسر لا تعبر العاصفة إلى اليابسة. كان يعرف كيف يفتح الأبواب المغلقة في صدور الزعماء. وكان يملك ذاك النوع من الحكمة الذي لا يعلو على الناس، بل ينزل إليهم. لم يكن يطلب منهم أن يحبوني لأنني قائدهم، بل أن يحكموا على الكلام من أثره. وكان يقول لهم: إن الرجل الذي يخاطر بنفسه في سبيل قضيةٍ لا تخصه وحده، جدير بأن يُسمع قبل أن يُدان.

ثم تنهد، وأضاف :

لو لم يكن أوتار إلى جانبي ، لما استقام كثير من أمرنا. كان يزيل من الطريق الحجارة التي لا يراها إلا العارف بتعقيدات النفوس. وكان يعرف أن القبائل لا تلتقي على كلمةٍ واحدة ما لم تشعر أن هذه الكلمة تحميها، لا تستعبدها. ولهذا لم يكن يدعوهم إلى ذوبانٍ يمحوهم، بل إلى اتحادٍ يحفظ لكل قبيلةٍ لسانها وكرامتها، ويجمعها تحت سقفٍ واحدٍ من المصلحة والعدل.

بقيت لحظة صمتٍ طويلة ، حتى بدا كأن الكلام قد أخذ من الهواء نصيبه كله. ثم قال رازين، وقد ضاقت عينيه كمن يرى من بعيد ختام الطريق : أتعلمين ما الذي ينجح في تجميع الناس ؟ ليس الخوف وحده، ولا الحماس وحده، بل الشعور بأنهم أخيرًا يُسمَعون. لقد كانوا طوال

سنين يسمعون الأوامر ولا يُسمِعون أحدًا شكواهم. وعندما وقف أوتار بين أيديهم وقال: إنكم لستم قطعانًا تُساق، بل رجالًا يُؤخذ رأيهم في مصيرهم، تغير شيءٌ فيهم. إن الكرامة إذا عادت إلى القلب، استيقظ معه العقل، وصار المستحيل أقرب إلى اليد.

ثم أردف، كأنه يضع خلاصة سنواتٍ من الدم والتجربة في جملة واحدة :

هكذا بدأ العدد يزداد ، وهكذا صار الحديث فعلًا ، وصار الفعل معسكرًا ، وصار المعسكر أملًا. وما الحرية ، في آخر الأمر ، إلا أن يشعر الإنسان أنه لا يطرق بابًا ليستأذن في أن يكون إنسانًا.

وختم كلامه بنبرةٍ فيها حكمة الشيخ ، ومرارة القائد ، وهدوء من يعرف أن التاريخ لا يهب الحقيقة دفعة واحدة، بل يتركها تتكشف ببطء :

لقد علمتني تلك الأيام أن الشعوب لا تنهض بالوعود ، بل بالثقة. ولا تنصاع للأسماء ، بل لما تراه من صدق الموقف. وأن الرجل ، مهما علا شأنه أو انخفض ، لا يكون كبيرًا إلا بقدر ما يهب من نفسه للناس. أما الذين يحكمون بالسيف وحده، فيظنون أن الخوف يبني المملكة؛ لكنه لا يبني إلا صمتًا مؤقتًا، وما من صمتٍ مؤقتٍ إلا ويليه صراخٌ أطول.

ثم أرخى صوته، كأن الصفحة قد أُغلقت مؤقتًا، وقال :

وهكذا ، بين أخي مزارين الذي صار موته نارًا في الصدور، وبين أوتار أودينوف الذي صار عقلاً يهدي خطواتنا، تشكلت ملامح تلك المرحلة. لم تكن مرحلة أبطالٍ بلا خطأ، ولا قديسين بلا ضعف، بل مرحلة رجالٍ اكتشفوا وسط الفوضى أن الكرامة إذا التقت مع التنظيم صارت قوة، وأن الحق إذا وجد من يصدقه تحول من كلمة إلى مصير.

وبقيت كلماته معلقةً في الهواء، كأنها درسٌ لا ينتمي إلى الماضي وحده، بل يطل على كل زمنٍ تعود فيه الأمم إلى السؤال القديم : كيف يصنع المقهورون حريتهم ؟

و الجواب ، كما قال رازين في سره قبل أن يقوله علنًا، كان بسيطًا في ظاهره، عظيمًا في أثره :

أن يتحدوا ، وأن يصدقوا بعضهم بعضًا ، وأن يؤمنوا بأن الجرح الواحد إذا جمع أصحابه لم يعد جرحًا، بل صار طريقًا.

حامياتُ الثلج والنار

كان المساء قد أرخى سدوله على المعسكر ، وامتدّ الضباب فوق السهول مثل كفٍّ شاحبةٍ تُريد أن تخفي الجراح ولا تستطيع. نارٌ صغيرة كانت تشتعل في طرف الخيمة، تلهب الهواء برتقالًا خافتًا، وتلقي على الوجوه ظلالًا متكسّرة، كأنما كلّ وجهٍ يحمل تاريخًا آخر لا يُقال. وفي ذلك السكون الذي يسبق الاعتراف ، جلست الصديقة قبالة السيد رازين، تتأمل القسمات التي نحتتها الأيام في وجهه، فلا ترى فيها رجلًا من الرجال فحسب ، بل ترى مسيرة طويلة من الشك والمرارة والصبر والرجاء.

كان رازين صامتًا ، شديد الإنصات إلى ما لا يُسمع. بعينيه مسحةُ غربةٍ لا تَخْفى ، وبجبهته أثرُ ليالٍ قضيت بين الخطر والتفكير، وبين ما يريده القلب وما يفرضه الحديد. أما هي، فقد كانت تعرف أن وراء سكوته بحرًا متلاطمًا، وأن القائد الذي يواجه العواصف في الخارج، كثيرًا ما ينهزم في الداخل أمام سؤال واحد ، أو ذكرى واحدة، أو خيبةٍ واحدة. ولمّا طال صمته، قالت وقد خفضت صوتها حتى بدا كأنه قادم من عمق الحلم:

سؤالٌ يحكّ في صدري يا سيد رازين، ولا أشكّ أن صديقتي تريد أن تسقني في طرحه عليك.

رفع رأسه ببطء، كمن يعود من بعيد. ثم قال، وفي نبرته شيء من الحذر وشيء من الدعابة المرهقة: وما ذاك ؟

تنفست الصديقة بعمق، كأنها تستجمع جرأة المعرفة قبل أن تلقيها في وجه التاريخ :

في تلك الحقبة من القرن السابع عشر ، كانت الدولة العثمانية تسيطر على تلك الأصقاع سيطرةً تكاد تكون تامة ، وكانت الدولة الفارسية من جهتها تمد سلطانها إلى المناطق الواقعة شمال أفغانستان الحالية. فكيف أقامت روسيا لنفسها حاميات هناك ، وهي بعيدة، محاطة بعدوّين شديدين، فارس من جهة وتركيا من جهة أخرى، من غير أن تُرْجَم خطوتها تلك بساعة حربٍ كبرى ؟

لم يجيب رازين على الفور. نظر إلى النار ، ثم إلى ما وراءها ، كأنما يرى وجوهًا لم تعد في الحياة. وفي نفسه مضت خواطر متسارعة: كيف يُشرح للناس أن الخرائط لا تُرسم بالحبر وحده، بل بالخوف والطمع والدهاء والاتفاقات التي لا تُكتب؟ كيف يُقال لهم إن الإمبراطوريات لا تنهض دائمًا بالجيش ، بل تتهيأ له أولًا بأيدي الضعفاء ، وبألم القبائل ، وبمساومات لا يسمعها المؤرخون إلا متأخرين ؟

قال أخيرًا : ليس كل ما يبدو غزوًا يكون غزوًا منذ البداية ، وليس كل ما يبدو سِلمًا يكون سلامًا حقًّا. كانت هناك، يا صديقتي، منطقة رمادية، يظنها الناس فراغًا، وهي في الحقيقة قلبٌ نابض بالخوف. كان بين تلك القوى شبهُ اتفاقٍ غير مكتوب، أو لنقل: هدنةٌ صنعتها الضرورة، لا الرحمة. اتفقوا ، أو تواطؤوا بصمت ، على ألّا يُمسّ أهل تلك الأطراف بحرية دينهم وعاداتهم، ما داموا لا يثيرون نارًا لا يقدرون على إطفائها. وهكذا صار الولاء موزعًا بين مراكز قوى متباينة؛ الأرمن والأرثوذكس يميلون إلى روسيا طلبًا للحماية، أو فرارًا من سطوة أقرب إليهم من السيف، والقبائل التي لا تعرف طبعًا الخضوع، كالشركس والقوزاق، كانت أشد الناس تشبثًا بحريتها، لا لأنهم يملكون فائضًا من القوة، بل لأنهم ذاقوا في الصغر مرارة الانكسار، فمن ذاق العبودية مرةً، صار يكره القيد وإن كان من ذهب.

سكت قليلًا، ثم تابع وهو يرفع يده كأنه يرسم في الهواء حدودًا لا تُرى : لكن روسيا لم تكن تنظر إلى تلك البلاد بعين الرحمة ، بل بعين الطائر الجارح الذي يدور طويلًا قبل الهبوط. لما رأت هذا التشتت، وما رأت من تنازع العشائر، وما رأت من خوف الناس من الدولتين الكبيرتين، بدأت تُحكم قبضتها ببطء. شنت غاراتٍ وحشية، قتل فيها من قتل، وسُبيت فيها النساء، وسُرقت فيها الأطفال، وجرى في الأودية من الدم ما لو رأته الجبال لتشققت من حيائها. ثم أقامت حامياتها في الشمال، بعيدًا عن حدود فارس وتركيا المباشرة، لا لتدافع عن الضعفاء كما زعمت، بل لتفتح لنفسها بابًا خفيًّا إلى قلب المنطقة، كي تُدلي يومًا ما بثقلها على أرض المسلمين حين يجيء الوقت المناسب.

تغيّر وجه الصديقة ، وبدت في عينيها غيمةُ إدراكٍ لاذعة. قالت بصوتٍ يميل إلى العجب وإلى المرارة:

إذن فالسياسة لا تعرف الوفاء، وإنما تعرف الغاية. لقد أحسنت القيصرتان إليزابيث وكاترين الكبرى الإفادة من تلك الحاميات ، فكانت

الحصون عندهما مفاتيح ، لا جدرانًا ، وبها اغتالتا استقلال تلك الجهات حتى صار الاستيلاء أمرًا متدرجًا، لا صاعقةً واحدة. ولكن يبقى في نفسي سؤالٌ آخر يا سيد رازين: ما دام القتال قائمًا، وما دمت في حاجة إلى كل عونٍ ممكن ضد قيصر روسيا ، فلماذا لم تستعن بأعوانك من مسلمي تركيا وإيران ؟ أليس بينهم من يشاركك العداء لهذا الزحف، ويقاتل معك لو أشرت إليه ؟

ابتسم رازين ابتسامةً قصيرة، فها شيء من الأسى، ثم قال :

من قال إنني لم أفعل ؟ لقد حصلت على السلاح من تركيا ، وعلى وجه التحديد. لم أكن أقاتل بعينٍ واحدة على أي حال. إنما الحرب يا صديقتي ليست في كثرة السيوف ، بل في صدق اليد التي تمسكها ، وفي الجبهة التي يعرف رجالها لماذا يقاتلون. أما المسلمون الذين تذكرينهم، فليسوا كتلةً واحدة، كما يظن السذج؛ فيهم من تمزقه المصالح، وفيهم من يخشى على بلاده من امتداد النار إليه، وفيهم من يرى في المساعدة مخاطرةً تفوق القدرة. ثم إن الدول، حين تتعبها الممالك الكبرى، لا تمد يدها إلا حين ترى الربح واضحًا، والخصم محتاجًا، والريح تميل إلى جانبها. أنا أخذت ما استطعت أخذه، ولم أستهن بحبة بارودٍ ولا بسيفٍ صدئ، فربما كان في ذلك الصدأ حياةُ رجل.

ثم مال إلى الأمام ، وخفض صوته ، كأنه يبوح بسرّ لا يريد له أن يخرج من الخيمة : ولكن ، دعيني أقل لك شيئًا أخطر من المسألة التي سألتِ عنها. إن الأمم لا تضيع لأنها ضعيفة فقط، بل لأنها تتنازع فيما بينها حتى يُفتح الباب للغريب. رأيتُ بنفسي كيف يُستدعى العدوّ أحيانًا لا لأنه أقوى، بل لأنه يبدو أهون من جارٍ قاسٍ أو حاكمٍ مستبد. وهنا تكمن المصيبة: حين يطلب الناس الخلاص من سيفٍ بسيفٍ آخر، لا ينتبهون أنهم يبدلون نوع الجرح لا أكثر. لهذا كنتُ أفهم كل يدٍ امتدت إليّ، لكني لم أُسلم لها قلبي. القائد إن لم يكن في داخله حذرُ الراهب ، ودهاءُ التاجر ، وصبرُ الفلاح ، ضاع ولو كثرت حوله الجيوش.

صمتت الصديقة لحظة ، وقد أخذها حديثه إلى ما وراء السؤال.

كانت تسمعه ، لكن قلبها كان يرى صورةً أخرى: رجلاً يجرّ وراءه وطنًا متشققًا، ويقاتل كما يقاتل الغريقُ من أجل لحظةٍ إضافية من الهواء. رأت في رازين تلك الوحدة الثقيلة التي لا يلاحظها الناس في القادة، إذ يتصورونهم من صخر، ولا يعرفون أن الصخر نفسه يتشقق من جوفه. فسألته، وقد رقّ صوتها :

وكيف احتملت هذا كله ؟

قال ، وقد ارتسمت على وجهه مسحةُ إعياءٍ نبيلة : بالشعور بالواجب أولًا ، ثم بالعناد. العناد يا صديقتي قد يكون رذيلةً في رجلٍ صغير النفس، لكنه في زمن الانكسار يصير أخًا للحياة. كنتُ كلما رأيت بلدةً تُحرق، أو طفلًا يُؤخذ من حضن أمه، أو شيخًا ينظر إلى أرضه كأنها تُنتزع من روحه، قلتُ لنفسي: إن سقطتُ أنا، فمن يبقى؟ لم أكن أقاتل من أجل مجدٍ شخصي، ولا من أجل اسمٍ يُكتب على أبواب القصور، بل من أجل أن يبقى للناس بابٌ، ولو ضيقًا، يدخلون منه إلى غدٍ غير ملوث بالذل. أتعلمين؟ إن أصعب الحروب ليست تلك التي يلتقي فيها الجيشان في السهل، بل التي يختبر فيها الإنسان معنى أن يظل شريفًا حين يصبح الانحناء عادةً يومية. هناك فقط يعرف المرء هل يحمل سيفًا، أم يحمل روحًا.

أطرقت الصديقة ، وأحست أن كلماته لم تكن جوابًا فقط ، بل مرآةً. ثم قالت :

لعل ما ينهض بالأمم حقًّا ليس السلاح وحده ، بل الوعي. غير أن الوعي نفسه قد يذبل إن لم يسنده العدل.

هزّ رازين رأسه موافقًا : صدقتِ. العدل هو السور الأول ، فإذا انهار السور دخلت الذئاب من كل جانب. ولولا أن الدول الكبرى كانت تدرك أن القهر الشديد يولد مقاومة أشد، ما ترددت في سحق تلك الأطراف سحقًا كاملًا. لكنها كانت تعرف أن الحرية لا تموت بسهولة، وأن روح القبائل الشرسة ، وإن بدت مبعثرة، إذا أُوذيتْ اشتدت أكثر. من هنا كانت الحاميات، ومن هنا كانت المساومات، ومن هنا كانت الضربات التي تأتي من مكانٍ لا يتوقعه الخصم. ليست القوة في كثرة الجنود، بل في معرفة موضع القدم التالية.

ثم غاب لحظةً في صمته ، وانزلق إلى داخله كما ينزلق المسافر إلى وادٍ عميق. رأى في ذهنه وجوه رفاقٍ سقطوا ، وخيولًا مغبرةً عادت بلا فرسان ، وقرىً صارت رمادًا ، وأمهاتٍ يخفين البكاء خلف الأبواب. وتساءل في سره : هل كان ما فعلته جديرًا بكل هذا الدم ؟ هل كان الزمان منصفًا مع من قاومه ؟ وهل يفهم الناس يومًا أن التاريخ لا يكتبه المنتصرون وحدهم ، بل تكتبه أيضًا الأرواح التي أُحرقت في الطريق إلى النصر ؟

وبينما هو كذلك ، قالت الصديقة ، وقد قرأت ما في عينيه من توترٍ داخلي : أراك تحمل أكثر مما يُحتمل على رجل واحد.

ابتسم ابتسامةً لم تكتمل : الرجل يا صديقتي لا يُعرَف بما يحمل من راحة ، بل بما يتحمّل من أثقال. وما الإنسان إلا امتحانٌ طويلٌ بين ما يريده وما يُفرض عليه. إنني أحيانًا أشتاق إلى بساطة الحياة الأولى؛ إلى خبزٍ حارّ، وإلى حديثٍ بلا خوف، وإلى ليلٍ لا يخشاه أحد. لكنني أفيق سريعًا. فالعالم لا يهب الأمن لمن يحب الراحة، بل يمنحه لمن يظل واقفًا حين تتعب العظام.

قالت ، وقد هدأ في صوتها العجب وتحول إلى احترام :

إذن فالحكمة عندك ليست زينة الكلام ، بل ثمرة النار.

أجابها : بل هي أثر الندوب. الحكمة لا تولد في القصور، وإنما في الزنازين، وفي معسكرات البرد، وعلى الطرق التي لا يرافقك فيها أحد. هناك تتعلم أن الإنسان لا يملك إلا اسمه، فإن فرّط فيه فرّط في نفسه. لذلك كنتُ أقبل العون إذا كان وسيلة ، ولا أسمح له أن يصير قيدًا. وأفرق بين الصديق الذي يمد يدًا مخلصة ، والجار الذي يبتسم وفي كُمّه خنجر. فليس كل من قال لك: أنا معك، كان معك حقًّا، وليس كل من صمتَ عنك كان عدوًا.

رفعت الصديقة نظرها إليه ، ثم قالت بنبرة فيها شيء من التأمل الفلسفي : ما أضيق الأرض حين يكثر فيها الطامعون، وما أوسعها حين يسكنها الأحرار.

فأجابها رازين : وأصعب ما في الحرية أنها لا تهبط من السماء مكتملة. إنها تُنزع نزعًا، وتُبنى لبنةً لبنة، وتُروى بالعرق، وقد تُروى بالدم. وكثيرون يحبون الحرية حين تُذكر في الخطب، أما حين تطلب منهم أن يدفعوا ثمنها، تراهم يتراجعون. أنا لا ألومهم؛ فالناس خائفون بطبيعتهم، والخوف ليس عيبًا دائمًا، لكنه يصبح عيبًا حين يحكم وحده.

ثم نهض ببطء ، واتجه نحو فتحة الخيمة، وألقى نظرة على الليل الممتدّ خارجها. كانت النجوم مبعثرةً في الأفق مثل حروفٍ لا يقرؤها إلا من عرف ألم الطريق. قال، كأنه يخاطب الليل نفسه :

أترين هذا السكون ؟ إن تحت سكونه آلاف النوايا ، وكل نيةٍ تريد أن تصير قدرًا. هكذا هو التاريخ: يبدو للعين سطحًا هادئًا، بينما في باطنه

جريانٌ شديد. وما بين سؤالٍ وجواب، يُبنى مصير أمة، أو يُهدم بيت، أو يضيع طفل، أو يولد أمل.

ثم عاد إلى مقعده، وقد هدأت في وجهه العاصفة قليلًا، وقال للصديقة في نبرة ألين : لقد سألتِ فأحسنتِ السؤال. فالسؤال الجيد نصف الحقيقة. أما النصف الآخر، فهو أن نعرف كيف نصمد أمام ما نفهمه. فكم من إنسانٍ عرف الطريق ثم لم يسلكه، وكم من أمةٍ عرفت عداء الغريب ثم فتحت له الباب بيدها. لذلك لا بد من الوعي ، ولا بد من الشجاعة، ولا بد من أن يبقى في القلب شيءٌ لا يصدأ: الإيمان بأن الظلم وإن طال، له آخر، وأن الليل مهما اشتد، فالفجر لا بد آتٍ.

ابتسمت الصديقة ابتسامةً هادئة ، كأنها وجدت في حديثه ما يشبه الطمأنينة وسط الخراب. قالت :

ما أكثر ما يحتاجه البشر إلى رجلٍ يرى النار ولا يعبدها.

فأجابها رازين : وما أكثر ما يحتاجه القائد إلى امرأةٍ ترى التاريخ ولا تنخدع بزخرفه. لأن العاقل لا يقيس الرجال بما يقولون، بل بما يتركون. والدهاء وحده لا يكفي، كما أن الشجاعة وحدها لا تكفي ، وإنما يكتمل الأمر إذا اجتمع الفهم والخلق والصبر.

وبقيت النار تتوهج في طرف الخيمة ، وبقي الليل ينصت، وبقيت الأسئلة معلقة فوق السهول البعيدة كطيورٍ لم تجد بعدُ شجرةً تحطّ عليها. أما رازين، فقد كان في أعماقه يعلم أن معركة الإنسان الكبرى لا تقع دائمًا على أسوار المدن، بل في داخله ؛ هناك، حيث يتجاور الخوف والرجاء، والندم واليقين، والرغبة في النجاة مع واجب البقاء. ومن بين تلك المتناقضات كلها، كان ينهض كل يوم، لا بوصفه رجل سياسة فحسب، بل بوصفه شاهدًا على زمنٍ لا يرحم، وحارسًا لفكرةٍ صغيرة، قد تبدو هزيلةً في نظر الطغاة ، لكنها وحدها القادرة على إنقاذ العالم: أن الحرية، مهما تأخرت، لا تموت، وإنما تنتظر من يحسن حملها.

على ضفاف الفولجا

رازين يمضي والريح تتبدّل

كانت الأيام تمضي في تلك البلاد البعيدة كما تمضي السحب فوق سهوب لا قرار لها؛ لا تستقر على لون، ولا تعرف للريح عهدًا. والناس، بين تتار وقوزاق وشركس وروس وفلّاحين، كانوا يعيشون تحت ظلّ قيصر بعيد، ثقيل الحضور، غامض البطش، لا يُرى إلا في عيون جباة الضرائب، وأقدام الجنود، وصهيل الخوف إذا مرّ في الأزقّة والقرى.

وفي ذلك الجوّ الملبّد ، كان اسم ستينكا رازين يعلو شيئًا فشيئًا، لا بوصفه رجل حرب فحسب، بل بوصفه حلمًا قديمًا أخذ يلبس سيفًا. كان الناس يتهامسون باسمه كما يتهامسون باسم الخلاص؛ بعضهم يراه سارقًا من سراق السهوب، وبعضهم يراه ابنًا بارًّا بالأرض والناس، وبعضهم لا يملك إلا أن يرفع رأسه حين يسمعه، كأن في الحروف نفسها ما يوقظ القلب من نومه الطويل.

أما أنا ، فقد كنت يومذاك مع رفيقي أوتار أودينوف، رجلًا حادّ النظرة، قليل الكلام، لكنه إذا تكلّم خرجت من عباراته حكمة مجرّبة، لا تصنعها الكتب بل تصنعها الأسفار والخطر والجوع. كان من أولئك الرجال الذين لا يتقدّمون الصفوف فقط، بل يقرؤون ما بين الصفوف، ويشتمّون رائحة الغد من غبار الأمس. وقد صحبته إلى مجلس صغير انعقد في طرف المعسكر، تحت سماء رمادية توشك أن تنقشع، وكان الحديث يومها يدور حول ما صار يُقال له في المعسكر: تحرّكات الجيش الجديد المتطلّع إلى الحرية.

دخلنا المجلس ، وإذا برجال من القوزاق والتتار وبعض الشركس متحلقون حول النار، يدفئون أيديهم ويخفون قلقهم في ضوء اللهب. كانت الوجوه من طبقات الأرض كلها: وجوه شاحبة أنهكها الطريق، وأخرى اسمرّت من الشمس، وثالثة في عيونها بريق غضب قديم، لا يهدأ ولا يلين. وفي صدر المجلس وقف أحد الرجال وسأل أوتار بصوت خفيض لكنه نافذ:

هل تحركتم نحو العاصمة الروسية ؟

لم يجب أوتار في الحال. نظر إلى النار لحظة، ثم رفع رأسه، وكأن السؤال لم يكن عن مسافة على الخريطة، بل عن ميزان القوى بين الحلم والموت. ثم قال بصوته الهادئ: لا يفعل هذا إلا المجانين. إن القيصر، إذا أحسّ الخطر على العاصمة، أمكنه أن يواجهنا بمائة ألف جندي على أقل تقدير. وليس العقل أن نضرب رأسنا في جدار من حديد لا نهدمه الآن، بل نوجع أنفسنا به. إن الواجب أن نحافظ على مواقعنا العسكرية في المناطق التي يعيش فيها التتار والقوزاق والشركس، وأن نحيط الأهالي بسياج من الأمن، لا أن نضعهم بين نارنا ونار القيصر.

ثم أضاف ، وقد اشتدّ في صوته شيء من الحزم : نحن لا نطلب الفوضى، بل نطلب أن تتنفس هذه الأرض. ولا نطلب هدم الدولة اليوم، بل أن نمنعها من أن تدهس الناس ونحن صامتون.

كان كلامه ينساب على الأسماع كالماء البارد في القيظ. وفي داخلي، شعرت أن الرجل لا يتحدث عن الحرب وحدها، بل عن معنى أعمق: كيف يمكن للثائر أن يبقى عادلًا في زمن يجرّ الجميع إلى القسوة؟ كيف يحمي المظلومين وهو يحمل سيفًا قد يلتهم الأبرياء إن هو أُطلق بلا بصيرة؟ كانت هذه هي العُقدة الحقيقية، لا في السلاح بل في الضمير.

ثم التفت إلينا وقال، وكأنّه يختبر صدقنا :

هيه، هل تبدأ أنت وزميلك المسير معنا ؟

تبادلت النظرات مع رفيقي، وكان السؤال أبعد من مجرّد انضمام؛ كان دعوة إلى أن نضع أسماءنا في الميزان، وأن نختار بين الوقوف على الشاطئ أو ركوب الموج. فقال أحدنا، وقد غلبت عليه الحماسة:

وعلى مَن العزاء يا سيّد أوتار؟

ابتسم ابتسامة قصيرة لا تكاد تُرى، ثم قال : الأتامان رازين يريد أن نحتلّ كل المدن الواقعة على حوض الفولجا الجنوبي.

لم أتمالك نفسي من الدهشة، فقلت :

الأتامان ؟ أهذا لقب جديد خلعه على نفسه ؟

ضحك أحد الجالسين في طرف الحلقة، لكن أوتار أجابني بصوت مشوب بالفخر، كأنّه يحدّثني عن حقيقة طال عليها الكتمان :

بل خلعه عليه فرسان التتار من الشركس. ومعناه: الزعيم القومي. إنهم يحبونه حبًّا كبيرًا ويطيعونه بلا نقاش.

عندها لمعت في ذهني صورة رازين كما لمعتها الأخبار المتفرقة: رجل يخرج من حدود نفسه إلى حدود جماعته، فلا يعود اسمًا بل يتحول إلى راية. ولعلّ سرّ الزعامة ليس في القوة وحدها، بل في القدرة على أن يصبح الفرد لسانًا لآلاف الصامتين.

واصل أوتار كلامه : سنبدأ المسير بالسفن على طول الفولجا، من مدينة تشركاسك. وهي مدينة خالية من الحاميات الروسية. وبعد ثلاثة أيام سنصل إلى مدينة فورنوج.

سألته، وقد بدأت الفكرة تستيقظ في رأسي كخريطة مرسومة على الماء : وهي الأخرى خالية من الحاميات الروسية ؟

هزّ كتفيه وقال : يا سيدي، سنكتشف الأمور أولًا فأولًا، فاكتشفها معنا. ولكن ليس قبل أن يرضى الأتامان رازين بذلك.

ثم أضاف بصوت أخفض، كأنه لا يريد للجدران أن تسمعه :

—إن رازين لا يحبّ التهوّر. قد يبدو في أعين البعض رجل سيف فقط، لكنه يفكّر أكثر مما يظنّ الناس. إنه يعرف أن الثورة التي لا تبصر الطريق، تلتهم أبناءها قبل أن تلتهم أعداءها.

كان في هذا الكلام ما أثار فيّ فضولًا جديدًا. فالرجال العظام لا تهمّنا شجاعتهم فقط ، بل علاقتهم بذاتهم في ساعة القرار. كيف يفكّر القائد حين يكون محاطًا بالأعين ؟ كيف يتحدث حين يعلم أن كل كلمة منه قد تصير غدًا عهدًا أو لعنة؟ وكيف ينام، إن نام، والسهوب خلفه وأمامَه، والناس معلّقة آمالهم على كتفيه ؟

وبينما كنا نتحدث ، كانت الريح تعبر الممرات الضيقة بين الخيام، فتحدث صوتًا يشبه الهمس البعيد. وكنت أُحس، في تلك اللحظة، أن البلاد كلها على وشك أن تنقلب صفحةً بعد صفحة، وأن النهر العظيم الذي يمتد كالشريان في جسد الأرض ليس مجرد مجرى ماء، بل طريق قدر، يسوق الرجال كما يسوق الزمن.

قبلنا الأتامان في قواته كمراقبين، ولم يكن ذلك من باب الشك بنا، بل من باب التدرّج الحذر. أراد أن يرى أعيننا قبل أن يسلّمنا أسرار خطته. وكان هذا، في الحقيقة، من طبعه : لا يهب الثقة دفعة واحدة ، ولا يرفضها جملةً. إنّه يزن الرجال كما يزن القائد عدد السهام في جعبته قبل المعركة.

وفي الأيام التالية ، ركبنا السفن الثلاث ، وكانت السفن صغيرة على عظمة النهر، لكنها بدت لنا كأنها حامِلات للمصير. انطلقت تشقّ الفولجا في صمت مهيب، لا يقطعه إلا ارتطام الماء بالألواح، وصوت المجاديف حين تلتقي بالتيار، ونباح بعيد يأتي من قرية على الضفة ثم يذوب في الهواء. كانت السماء منخفضة كأنها تُصغي إلينا، وكانت المياه عريضة حتى ليخيل للناظر أن العالم كله قد انفتح على اتساع لا نهاية له.

جلستُ في مقدمة السفينة ، أراقب الضفتين ، وأفكر في الرجال الذين تركناهم خلفنا، وفي أولئك الذين سنمرّ بهم بعد قليل. من هم هؤلاء الناس؟ ما الذي يريدونه حقًّا؟ هل يريدون ملكًا جديدًا، أم عدلًا أقدم من الملوك جميعًا؟ هل تَحمل الثورات في أصلها حلمًا طاهرًا، أم أنها لا تلبث أن تتلطخ حين تقترب من الأرض؟ كانت هذه الأسئلة تتزاحم في رأسي، وكأنّ النهر نفسه يطرحها ولا يطلب الجواب.

كان رازين ، حين يمرّ بين الرجال ، لا يبدو متعاليًا. كان يرفع كتفيه كمن يعرف ثقل المسؤولية، لا ثقل المجد. وفي عينيه شيء من قسوة البحّارة، وشيء من حنان الفقراء. إذا تحدث، أصغى الجميع. وإذا صمت، شعر من حوله أن الصمت عنده نوع من القرار. ولم يكن يكثر من الخطابة إلا إذا اضطر. ومن أندر صفاته أنّه كان يعرف متى يُلهب الحماسة، ومتى يطفئها خشية أن تتحول إلى طيش. فليس كل نارٍ قادرة على الإضاءة؛ بعضها لا يُحسن إلا الحرق.

على طول الطريق ، كنا نرى القرى المبعثرة على ضفتي النهر، وكأن الناس هناك نسوا أن العالم قد تغيّر، أو كأنهم آثروا أن يتركوا أنفسهم لقدرهم. في بعضها كانت النسوة يخرجن إلى الماء بثياب بالية وعيون قلقة، وفي بعضها كان الأطفال يركضون حفاة فوق الطين، يطاردون طيورًا لا تُمسك. وكان الفلاحون، حين يسمعون بأمر الحملة، ينظر بعضهم إلى بعض في حذر. إنهم يعرفون أن ظهور جيش جديد لا يعني دائمًا الخلاص؛ فقد يكون خلاصًا، وقد يكون وجهًا آخر للمحنة. لذلك كانت نظراتهم خليطًا من الرجاء والخوف، وهذان أكثر ما يتشابه في عيون البشر حين يشتدّ بهم الانتظار.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت السفن راسية قرب منعطف هادئ من النهر، اقتربت من أوتار وسألته عن رازين نفسه، لا عن الجيش ولا عن المدن. قلت له: أهو رجل غزو، أم رجل فكرة ؟

تأملني لحظة ثم قال :

هو ابن هذا الزمان، لكنه لا يريد أن يكون أسيرًا له. لو كان غازيًا فقط، لما تبعه هؤلاء. ولو كان صاحب فكرة مجردة، لما ثبت معه هؤلاء. إنه يحسن أن يُشعر الناس بأنهم ليسوا قطيعًا، بل جماعة لها حقّ في الاسم والكرامة.

ثم صمت قليلًا وأضاف : لكن احذر؛ فكل من يرفع الناس من الأرض، يوشك أن يجرح يديه بأظفارهم إذا خافوا الارتفاع.

كانت هذه الكلمات تطرق قلبي كما يطرق المطر سقفًا قديمًا. فهمت أن الثورة ليست حكاية أبطال يركبون الأحصنة فحسب ، بل هي اختبار طويل للنفوس: من يبقى إنسانًا حين تكثر الدماء ؟ من يحفظ العدل حين تدعو الضرورة إلى الحزم ؟ من لا يتحول من مظلوم إلى ظالم وهو يظن نفسه منتقمًا ؟

ومع بزوغ الفجر التالي ، أخذت الشمس تخرج من بين الضباب كأنها قطعة نار وُضعت على صفحة ماء. انكشف النهر أمامنا أكثر، وبدت السفن الثلاث كأنها تمضي نحو قدر لا يعرف التراجع. كنت أراقب الأفق وأشعر أن كل شيء في هذه الرحلة يحمل معنى مزدوجًا: النهر طريق، والنهر حاجز؛ السفينة نجاة، والسفينة خطر؛ الرجل قائد، والرجل أيضًا إنسان قد يخطئ إن ثقل عليه الحمل.

حين اقتربنا من مدخل الميناء النهري القريب من مدينة فورنوج، خفّ الصوت في السفن. لم يعد أحد يتحدث إلا همسًا، كأننا نقترب من باب لا يجوز أن يُفتح بصخب. وكان الهواء أثقل، والعيون أكثر يقظة، والقلوب أسرع نبضًا. هناك، عند حافة المدينة، شعرنا أن الحملة قد دخلت طورًا جديدًا، وأن كل ما مضى لم يكن إلا تمهيدًا لما سيأتي.

وقفتُ أتأمل الضفة ، وأنا أعرف أن ما بيننا وبين المصير سوى لحظات. وفي داخلي دار حديث طويل لم يسمعه أحد: أأنا هنا شاهد على ميلاد قوة جديدة، أم على فاجعة أخرى من فواجع التاريخ؟ أهذا المسير سيمنح الناس نافذة على الحرية، أم سيزيد الأرض جراحًا؟ ثم خيل إليّ أن التاريخ نفسه لا يكتب باليقين، بل بالمجازفة؛ وأن الرجال الكبار ليسوا أولئك الذين لا يترددون، بل الذين يترددون ثم يختارون، ويحملون عبء اختيارهم حتى النهاية.

وهكذا وصلنا إلى فورنوج ، لا كمسافرين عابرين ، بل كشهود على بداية فصل جديد من فصول النار والأمل. وكانت السفن الثلاث

ترسو في الماء، والمدينة أمامنا صامتة، كأنها تحبس أنفاسها. أما رازين، فكان واقفًا في المقدمة، يحدّق إلى اليابسة بعينين تعرفان أن الطريق إلى الحرية لا يُمهد بالهتاف، بل بالثبات، وأن من أراد أن يحكم الريح، فعليه أولًا أن يعرف كيف يقف في وجهها.

وكان ذلك أول درس تلقّيناه من الأتامان: أن العظمة ليست في أن تبلغ، بل في أن تعرف إلى أين تمضي، ولماذا.

على ضفاف الفولغا
المدينة التي كانت تخفي الحرب وراء ابتسامة الماء

ساد صمت قصير فوق ظهر السفينة ، حتى خُيّل إلينا أن مياه الفولغا نفسها قد أمسكت أنفاسها وهي تترقب ما سيؤول إليه مصير المدينة الراقدة على ضفافها. كانت الشمس تميل نحو الغرب، فتسكب على صفحة الخليج الهادئ ذهبًا سائلًا، بينما انعكست أسوار القلعة فوق الماء كأنها أطلال حلم قديم، لا حصون مدينة تستعد لأن تكون ميدانًا للدم والنار.

وقف الأتامان أوتار عند مقدمة السفينة ، يحدق في الأفق بعينين لا تعرفان التردد. كان وجهه يحمل قسوة الرجال الذين ألفوا الحروب، غير أن خلف تلك القسوة سكنت حكمة طويلة، صنعتها سنوات من التنقل بين القبائل والسهوب، ومجابهة القياصرة الذين لم يعرفوا سوى الحديد وسيلة للحكم.

التفت إلينا ببطء ، وقال بصوت هادئ ، لكنه كان يحمل يقينًا لا يتزعزع : سنحاول أن نتجنب القتال مع الحامية الروسية ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. فإن رضي حاكم المدينة بالاستسلام، فقد حققنا غايتنا من غير أن تراق قطرة دم واحدة. أما إذا أصر على عناده، فلن يبقى أمامنا سوى الاشتباك.

لم يكن في صوته شيء من الحماسة الفارغة التي يطلقها قادة الجيوش قبل المعارك، بل كان حديثه أقرب إلى رجل يعرف ثمن الدم، ويكره أن يريقه إلا حين يصبح آخر الدواء.

رفعت صديقتي رأسها ، وقد ارتسمت على وجهها علامات التفكير، ثم قالت في هدوء : وهل عرضت عليه شروطًا كريمة؟ شروطًا تجعله يختار السلام بدل الخراب ؟ فهو، مهما يكن، لن يسلم مدينة اعتاد أن يرفع فوقها راية القياصرة بسهولة.

ابتسم أوتار ابتسامة خفيفة، بدت فيها مرارة التجارب أكثر مما بدا فيها السرور.

قال : يا ابنتي، الحكام لا يتنازلون عن سلطانهم طوعًا. إنهم يتعلقون بالكراسي كما يتعلق الغريق بخشبة في عرض البحر. لكن المدينة ليست الحاكم وحده، بل أهلها أيضًا. وإذا نهض الناس في وجهه، فلن يجد سبيلًا إلى المقاومة.

وسكت لحظة، ثم أردف : أكثر سكان هذه المدينة من التتار والقوزاق، وهؤلاء لا يحملون في قلوبهم ولاءً صادقًا للقيصر. لقد أثقلتهم الضرائب، وأرهقتهم الأوامر، وضاقت صدورهم من ظلم الموظفين والجنود. لذلك فإن أملي كبير في أن يجنبنا أهل المدينة الحرب.

نظرت من فوق السور الخشبي للسفينة إلى البيوت البيضاء المتناثرة حول الخليج. كانت المراكب الصغيرة تمخر الماء في هدوء، والصيادون يلقون شباكهم كأن النهار لا يحمل سوى رزق البحر، لا رائحة البارود.

الأطفال يركضون بين الأزقة الضيقة، والنساء ينشرن الثياب على الحبال، والرجال يتبادلون الأحاديث والضحكات على الأرصفة الخشبية.

كل شيء يوحي بالحياة... ولا شيء يوحي بالحرب.

شعرت بقشعريرة خفية تسري في أعماقي.

همست لصديقتي حتى لا يسمعنا أحد : أترين ما أراه ؟

قالت وهي تراقب المدينة بعينين متوجستين :ماذا تقصد ؟

قلت : لا أدري... لكن هذا السكون يخيفني. المدن التي تنتظر الحرب لا تبدو هكذا. هناك شيء لا أفهمه. كل شيء هادئ أكثر مما ينبغي.

حدقت هي الأخرى في الخليج طويلًا، ثم قالت : صدقت. حتى الحراس فوق الأسوار لا يظهر عليهم شيء من الاستعداد. كأن المدينة تنام مطمئنة ، أو كأنها تعرف سرًا لا نعرفه.

ثم التفتت إلى أوتار وقالت : لعل لديك تفسيرًا لهذا الهدوء يا سيدي ؟

استدار نحونا ، وأشرق على وجهه شيء من الابتسام ، كأن سؤالنا أكد له أننا ما زلنا حديثي العهد بحيل القوزاق.

قال : أنتما تنظران بعينيكما، أما القوزاق فينظرون بعقولهم.

ثم أشار إلى الصيادين المنتشرين فوق الماء.

أتريان أولئك الرجال ؟

أجبنا معًا :نعم.

قال : تراهم يلقون الشباك، ويتبادلون الضحكات مع رجالنا، وكأنهم يعرفونهم منذ سنوات.

ثم سألنا : ماذا يعني هذا في رأيكما ؟

ترددت لحظة، ثم قلت :أهو دليل على أن الحاكم أعلن استسلامه ؟

هز رأسه نافيًا.

لا... لم يعلن ذلك بعد.

وصمت قليلًا، ثم قال بصوت خافت : لكنه سيعلنه راغمًا.

انعقدت الدهشة على وجوهنا.

قالت صديقتي : وكيف عرفت ؟

اقترب منا أكثر، وخفض صوته، حتى كدنا لا نسمع سوى همسه المختلط بحفيف الماء.

منذ يومين ، خرج أحد رجالنا ليلًا. سبح تحت الماء مسافة طويلة ، حتى دخل المدينة من جهة لا يحرسها أحد. لم يكن يحمل سلاحًا، بل كان يحمل كلمة.

رفع سبابته، وأضاف : والكلمة، أحيانًا، أشد فتكًا من المدفع.

أنصتنا إليه في اهتمام بالغ.

قال : التقى مندوبنا برجال المقاومة السرية داخل المدينة. هناك رجال من التتار والقوزاق يعملون منذ أشهر في الخفاء، ينتظرون ساعة الخلاص. وقد بايعونا على التعاون.

ثم اتسعت ابتسامته قليلًا.

ليس هذا فحسب.

سألته : ماذا أيضًا ؟

قال: نجحوا في الاتصال ببعض أفراد الحامية نفسها. كثير من الجنود تعبوا من خدمة القيصر، ولم يعودوا يرغبون في الموت دفاعًا عن ظلم لا يؤمنون به.

ساد صمت طويل.

كنت أشعر أنني أسمع حديثًا يغير مجرى التاريخ.

تابع أوتار : اتفق رجالنا مع العناصر المؤيدة لنا داخل الحامية على أنه إذا رفض الحاكم الاستسلام، فسوف يلقون القبض عليه، ويسلمونه إلينا، لتجنب معركة لا يريدها أحد.

بدت الفكرة جريئة إلى حد يكاد يكون مستحيلًا.

قلت وأنا أحدق في وجهه : وهل تثق بهم؟

نظر إلي نظرة طويلة.

قال : الحرب يا بنيتي ليست ثقة مطلقة، ولا شكًا مطلقًا. إنها موازنة دقيقة بين الاحتمالات. ومن لا يحسن قراءة الناس، يهزم قبل أن تبدأ المعركة.

ثم عاد ببصره نحو القلعة.

سننتظر يومًا آخر فقط.

سألته : ولماذا ؟

قال : لأن الحاكم إن أمر بسحب المدافع من فوق الأسوار، فسيكون ذلك علامة على أنه قرر الرحيل. سيغادر المدينة مع من بقي مخلصًا له، ويتركها لأهلها.

تدخلت صديقتي قائلة : وإن لم يفعل ؟

ساد الصمت مرة أخرى.

وللمرة الأولى ، بدت على وجه أوتار ظلال حزن عميق.

قال ببطء : عندها ستتكلم البنادق.

خفض رأسه قليلًا، ثم أردف : لكن حتى لو اضطررنا إلى القتال، فلن نحارب أهل المدينة.

نظر إلينا بعينين امتلأتا بأسى دفين.

لقد رأيت بعيني ما يفعله الروس بالمدن التي تستسلم لهم. يحرقون البيوت، ويقتلون الشيوخ ، ويذبحون الأطفال ، ويسوقون النساء سبايا ، ثم يزعمون أنهم جاءوا لينشروا الحضارة.

اشتد صوته وهو يقول : إن القسوة لا تبني إمبراطورية، بل تبني مقابر.

ثم هدأ قليلًا.

أما نحن ، فلا نريد أن يرث أبناؤنا الكراهية التي ورثناها. نريد أن يدخل رجالنا المدن كما يدخل المطر الأرض العطشى، لا كما تدخل النار الهشيم.

شعرت أن كلماته لم تكن خطاب قائد إلى جنوده ، بل اعتراف رجل أنهكته الحروب.

واستمر يقول : إذا أردنا أن تلتف القبائل حولنا، فعلينا أن نكون مثالًا للعدل قبل أن نكون مثالًا للقوة. الناس لا يتبعون السيف طويلًا، لكنهم يتبعون العدل جيلاً بعد جيل.

ثم رفع بصره نحو السماء.

لقد تعلمت من السنين حكمة لا تخطئ.

سألته : وما هي ؟

ابتسم ابتسامة هادئة وقال : أن المدينة التي تفتح أبوابها بالمحبة، تظل وفية لمن دخلها. أما المدينة التي تُفتح بالنار، فإن رمادها يظل يطلب الثأر حتى بعد عشرات السنين.

وساد الصمت من جديد.

لم يعد أحد منا ينظر إلى المدينة كما كان ينظر إليها قبل لحظات.

كانت البيوت نفسها... وكان البحر نفسه... وكان الصيادون أنفسهم... غير أنني صرت أرى خلف ذلك الهدوء بحرًا آخر، تموج فيه المؤامرات والعهود والخيانة والوفاء، وتتشابك فيه مصائر الرجال كما تتشابك خيوط الشباك في قاع الفولغا.

وأدركت للمرة الأولى أن أعظم المعارك ليست تلك التي تدوي فيها المدافع ، بل تلك التي تدور في عقول البشر وقلوبهم ، قبل أن يرفع أحدهم سيفًا في وجه الآخر.

ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في أوتار. ترى كم حربًا خاضها حتى صار يفضل انتصار الكلمة على انتصار المدفع ؟ وكم صديقًا فقد حتى صار يحسب لكل قطرة دم ألف حساب؟ بدا لي، في تلك اللحظة، رجلًا يحمل في صدره وطنًا كاملًا، لا قائدًا يسعى إلى فتح مدينة فحسب. ولعل أعظم القادة هم أولئك الذين يعرفون أن النصر الحقيقي لا يقاس بعدد القلاع التي تسقط، وإنما بعدد الأرواح التي تنجو.

في وديان الحرية
اتامان رازين وميلاد الحلم الجريح

استقبل أهلُ ثغرِ فورنوج الاتامان رازين استقبالَ الأبطال الفاتحين. خرجوا إليه من الأزقة الضيقة ، ومن الأرصفة المبللة بندى الصباح، ومن البيوت الخشبية التي طالما أُغلقت نوافذها خوفًا من السوط والضرائب والجنود الغرباء. كانوا ينظرون إليه كأنهم ينظرون إلى وعدٍ طال انتظاره ، أو إلى شهابٍ شقَّ ليلًا طويلًا ثم استقر في موضعه فوق رؤوسهم. ارتفعت الهتافات، وتماوجت القبعات في الهواء، وامتزجت الدموع بالابتسامات كما يمتزج المطر بالنار في وجه العاصفة.

لكن الاتامان، على غير ما توقع الناس ، لم يبقَ في الثغر طويلًا. لم يلبث أن ترك الميناء بما فيه من ضجيجٍ ورائحة بحرٍ وأصداء مجاديف ، ومضى برجاله إلى الداخل، كأن البحر لم يعد يسعه بعد الآن ، وكأن للثورة قلبًا آخر غير قلب الأمواج. كانت خطواته ثابتة ، إلا أن عينيه كانتا تحملان ما هو أعمق من الثبات؛ كانتا تحملان يقظة رجلٍ يعرف أن المجد إذا استقر في السهل أكلته العيون، وإذا نام في الثغر ابتلعته الفخاخ.

سأله بعضُ المقربين، وقد أربكهم هذا الانتقال المفاجئ : لِمَ تترك فورنوج ، وقد فتحت لك أبوابها، وأمدتك بما تحتاج إليه ؟

فأجابهم بصوتٍ هادئٍ لا يخلو من صلابة، كصوت السيف حين يُسحب من غمده لأول مرة :

لأنها لا تصلح مركزًا للمعلومات ولا موضعًا تدوم فيه القيادة. الثغر يُرى من البحر ، ويُقاس بأنفاس السفن ، أما الثورة فلابد لها من صدرٍ جبليّ يخبئها، وظهرٍ منيع يحميها. ثم إن أهلها قد أمدونا بما في مخازنها من المدافع والبارود والرصاص، بل وخرجت معنا ثلاث سفن أخرى تحمل مزيدًا من متطوعي المدينة. لقد أعطتنا فورنوج ما تستطيع ، أما البقاء فيها فكان يعني أن نضع رقابنا في متناول الصيادين.

سكت برهة ، ثم أضاف وكأنما يخاطب القدر نفسه : الثورة لا تعيش في المرافئ، بل في مواضع لا تبلغها أيدي الطغاة بسهولة.

تبادل الرجال نظراتٍ متفهمة. كان في كلامه منطق القائد، ولكن في أعماقه كان هناك شيءٌ آخر لا يُقال بسهولة: شعورٌ قديم بأن المدينة الساحلية، على جمالها، لا تصلح لتكون رحمًا لحلمٍ يولد بين السيوف. كان يعرف أن الجيوش، مثل الذئاب، تحسن الصعود إلى السهل، لكنها تتردد أمام التلال، وتضيع في الشعاب، وتتعثر في الممرات الضيقة. ولذلك اختار وديان نهري إيلوغنا وتشِكينا، حيث تنبسط الأرض ثم تنهض فجأة في تلالٍ ساحرةٍ تشرف على الاستبس ، وحيث الريح نفسها تبدو كأنها تعرف أسماء الراكضين في الفلاة.

قال لأصحابه حين بلغوا تلك الديار : هنا نكون أقرب إلى السماء وأبعد عن مخالب القصر. هنا نستطيع أن نرى العدو قبل أن يرانا، وأن نضرب قبل أن يتهيأ، وأن نحول الوادي إلى قلعةٍ من الصبر، والتلة إلى راية، والريح إلى رسول.

كانت الطبيعة هناك تفيض بجمالٍ حزين. الأنهار تجري كخيوط فضةٍ على بساطٍ أخضر، والمرتفعات تعلو كأنها أكتافُ عمالقةٍ نائمين، أما الاستبس فكانت تمتد بلا نهاية ، صامتةً ، شاسعةً ، كأنها صفحة تاريخٍ لم يكتبه أحد بعد. في تلك الديار ، التي اعتادت خيول القوزاق والتتار أن تطرقها، نشأ في قلب رازين شعورٌ غامض بأنه لا يقود رجالًا فحسب، بل يقود زمناً يريد أن ينتقم من نفسه.

هناك، في ذلك الوادي الساحر ، حدث ما يشبه ما يُروى عن الثائر القديم سبارتكوس ، حين تحرك العبيد من قاع الذل إلى قمة التمرد. غير أن رازين لم يكن يرفع سيفًا وحده، بل كان يرفع فكرة. لقد بدا، منذ استقر في الوادي، وكأنه يضع القواعد الأولى لجمهوريةٍ ناشئةٍ على أرضٍ لم تعرف من قبل إلا انحناء الظهور، ومرارة السخرة، ومهانة المحتلّ كلما تغيّر اسمه وتبدلت هيئته. كان الناس هناك قد تعبوا من أن يكونوا ظلًا لغيرهم، أو عددًا في سجلات الجباية، أو قطيعًا يُساق باسم القانون ثم يُذبح باسم النظام.

جمع الاتامان رجالَه ، وكانوا خليطًا من الهاربين والمظلومين والمغامرين والفقراء ، ومن أولئك الذين لم يعد لديهم ما يخسرونه سوى الخوف. وقف بينهم، ورفع يده، وقال:

اسمعوا يا رفاق. الحرية للجميع، لا تُشترى ولا تُوهب ولا تُقاس بذهب القصور. هي حقٌّ يولد مع الإنسان كما يولد النور مع الفجر. وقواعد الشرف والفروسية هي قوانيننا التي يخضع لها الأفراد جميعًا. لا

فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الجاد في سبيل الجميع. من يتعب فله نصيب، ومن يجتهد فله مكان، ومن يخن الجماعة فقد خان نفسه قبل أن يخون غيره. أما الأنانية الفردية فستُعامل بكل قسوة، لأن الطمع إذا دخل الجماعة أكلها كما يأكل السوس خشب البيت من الداخل. ولن يراق دم أحد إلا بموافقةٍ إجماعية من زعماء الأولوية، فلا سيف في أيدينا إلا حين تعجز الكلمات، ولا عقاب إلا حين يصبح العفو خيانةً للناس.

ساد الصمت لحظةً بعد كلماته. لم يكن صمتًا عاديًا ، بل كان صمت رجالٍ يشعرون بأنهم يسمعون شيئًا أكبر من نظامٍ جديد؛ كانوا يسمعون تبريرًا للحياة نفسها. بعضهم تهلل وجهه، وبعضهم طأطأ رأسه كأنما يعيد حساب عمره، وبعضهم لم يفهم كل ما قيل ، لكنه فهم نبرة الرجل التي لا تشبه نبرة اللصوص ولا نبرة السادة، بل نبرة من قرر أن يصنع عدلًا في أرضٍ اعتادت الظلم.

غير أن بين الذين أحاطوا به من بقي متوجسًا ، يراقب الكلمات كما يراقب الجراحُ نبض المريض. كان أحدهم، شيخًا ذا لحيةٍ مبعثرةٍ وعينين تعرفان ما يخفيه الوجدان ، قد اقترب منه غير مرة ، ثم تراجع ، ثم عاد. وفي مساءٍ هادئٍ، حين خفتت الأصوات وسكنت الخيول واشتعلت النار عند أطراف المعسكر، اقترب من رازين وهمس:

يا اتامان ، إن الناس يسمعون منك العدل، ويصدقونك لأنهم ذاقوا من الظلم أكثر مما يحتمل الجسد. لكن قل لي، وهل العدل وحده هو ما يدفعك؟ أم أن في قلبك نارًا أخرى لا يعرفها إلا الليل ؟

رفع رازين بصره إلى الأفق. كانت النجوم فوقه متناثرة كأنها شظايا من مصيرٍ بعيد. ولم يجب فورًا. لقد أثارت الكلمات في صدره بابًا قديمًا ظل موصدًا في النهار، ولا يفتح إلا حين يختلي بنفسه. قال في نفسه: ما أهون أن يصدق الناس الراية، وما أصعب أن يصدقوا الجرح الذي تحتها. ثم سمع الشيخ يعيد السؤال بصوتٍ أهدأ :

ماذا لو عرفوا أن هدفك الحقيقي ليس تحقيق العدالة وحدها، بل الوصول إلى ثأرك من الأمير دولغوروكي وزوجته ؟

هبَّت ريحٌ خفيفة، وحركت أطراف النار، كأنها هي الأخرى تنتظر جوابًا. شعر رازين بأن السؤال لم يطرق أذنه فقط ، بل طرق تاريخه كله. هناك، في الزاوية الأعمق من روحه ، كان وجهان يطلان عليه: وجه الرجل الذي يريد أن يؤسس جمهوريةً للفقراء، ووجه الابن

القديم الذي لم ينسَ الإهانة. وبين الوجهين حافةٌ دقيقةٌ كحدّ السكين. قال بعد صمتٍ طويل :

الثأر يا شيخ ليس دائمًا عدوًا للعدل. أحيانًا يكون الشرارة التي توقظ العدل من سباته. لكن الشرارة، إن تُركت وحدها، أحرقت البيت كله. وأنا أخاف من النار بقدر ما أحتاجها.

ثم أطرق قليلًا، وكأنه يفتش في ذاكرته عن لحظةٍ لم تبرحها المرارة. لقد رأى نفسه في طفولته—صبيًا يسمع عن القهر قبل أن يعرف كيف يتهجى اسمه—ورأى جموعًا من الرجال يبتلعون الإهانة لأن أبواب القصور موصدةٌ في وجوههم. كان يكره أن يعترف لنفسه بأنه خرج أيضًا ليقتص، وأن بعض ما في قلبه ليس من صنع المبادئ وحدها، بل من صنع الذكرى. ومع ذلك، لم يكن يرى في هذا التناقض عيبًا محضًا. كان يرى أن النفوس الكبيرة لا تتحرك بدافعٍ واحد، بل تختلط فيها الرغبة بالواجب، والجرح بالفكرة، والحلم بالحساب.

قال الشيخ، وقد لانت نبرته : إذن فأنت بشر، لا أسطورة. وهذا أدعى لأن يُخاف عليك ويُرجى منك. فالرجل الذي لا يجرحه ماضيه لا يعرف كيف يرحم الحاضر.

ابتسم رازين ابتسامةً باهتة، ثم قال — :ولعل الله يبتلي القادة بما لا يبتلي به الرعية، لكي يعرفوا أن العدل ليس شعارًا يُرفع، بل كفٌّ تمسك النار حتى لا تنفلت.

ومضت الأيام ، ثم الشهور ، ثم انقضى عامٌ كامل والجمهورية الناشئة تثبت أقدامها في تلك الأودية. صار النظام واضحًا ، والرجال يعرفون مواضعهم، والفرسان يحرسون المعابر، والنساء يخبزن للمعسكر كأنهن يخبزن للغد نفسه، والأطفال الذين كانوا يرتجفون من وقع الخيل صاروا يجرون بين الخيام غير خائفين. كان العدل، للمرة الأولى، لا يُرى في الكتب ولا يُسمع من أفواه الوعاظ، بل يُلمس في توزيع الطعام، وفي تقاسم الغنائم ، وفي منع التعدي ، وفي احترام الضعيف، وفي كسر يد السارق قبل أن تمتد إلى جهد الجماعة.

وانتشر خبر ما يسود تلك الحكومة من عدلٍ وحرية بين أهالي القرى المجاورة ، فكان الخبر يسير أسرع من الخيل ، وأخف من الغبار ، وأشدَّ نفوذًا من المدافع. كانت العجائز يهمسن به عند الأفران، والرجال يتناقلونه عند الحقول، والشبان يرفعون رؤوسهم حين يسمعونه، كأنهم

يسمعون اسمًا جديدًا للكرامة. بعضهم أتى متشككًا، وبعضهم أتى جائعًا، وبعضهم أتى حاملًا معه غضبًا طويلاً لم يجد له مخرجًا. وكان كل واحد منهم، حين يرى النظام في تلك الديار، يشعر بأن العالم ليس مغلقًا كما ظن، وأن الظلم مهما طال لا يصبح قدرًا.

ومع ذلك، لم يكن رازين غافلًا عن هشاشة ما صنع. كان يعرف أن السلطة التي تُولد في البراري لا تُسامحها الممالك ، وأن القصر لن يترك هذه البذرة تنمو حتى تتحول إلى شجرة. كان يعلم أن كل عدلٍ يهدد الظالمين يصبح في نظرهم فتنة، وأن كل جمهوريةٍ فقيرةٍ تُقام على حافة الاستبس تُعدّ، في ميزان القصور، جريمةً تستحق الإبادة. لذلك كان ينظر إلى الوديان التي تحميه كما ينظر الأب إلى طفله وهو نائم: بحبٍّ، وقلقٍ، واستعدادٍ لأن يضحي بكل شيء كي لا ينطفئ الحلم.

وفي الليالي الطويلة ، حين يهدأ المعسكر وتغفو الخيول على وقع الريح ، كان رازين ينفرد بنفسه. كان يسمع فيها أصواتًا لا يسمعها الآخرون: صوت البحر في فورنوج، صوت الناس وهم يهتفون له، صوت الشيوخ الذين حذروا من الغرور، وصوتًا أعمق من ذلك كله، صوت الأمير دولغوروكي وزوجته وهما يمثلان في ذهنه معنى الإهانة القديمة. هناك، في عزلته، كان يدرك أنه لا يستطيع أن يمحو الماضي، لكنه يستطيع أن يمنعه من أن يلتهم المستقبل. وكان يقول في سرّه : ما قيمة الثأر إذا ضاع معه الناس ؟ وما معنى العدالة إذا صارت مجرد اسمٍ آخر للانتقام ؟

وهكذا ، ظل الاتامان رازين بين نارين: نار القلب، ونار القضية. وكان سرُّ قوته أنه لم يُنكر واحدةً منهما، بل حاول أن يجعل من صدامهما طريقًا. ولعل التاريخ، في مثل هذه اللحظات، لا يبتسم كثيرًا. لكنه يسجل. يسجل أن رجلاً خرج من بين ركام المهانة، وجمع حوله مَن لم يجدوا مكانًا في سجلات السادة، ثم أقام في وادٍ بعيدٍ حلمًا شبيهًا بالمستحيل. حلمًا لم يكن كاملًا، ولا بريئًا تمام البراءة، لكنه كان حيًا؛ والحيّ وحده هو الذي يخيف الطغاة.

وفي نهاية ذلك العام ، حين وقفت القرى المجاورة على أعتاب التغير، كان اسم رازين قد صار أكثر من اسم قائد. صار رمزًا لزمنٍ جديدٍ يطل من بين الضباب، ويقول للناس إنهم ليسوا خُلقوا ليُقادوا وحدهم، بل ليصيروا جزءًا من تاريخٍ يكتبونه بأيديهم، مهما كانت الريح عاتية، ومهما كان الثمن باهظًا.

الجمهورية التي كانت تمشي على حدِّ السيف

لم تكن الثورات ، منذ أن عرف الإنسان معنى الظلم ، تولد كاملةً كما تولد الأساطير في أفواه الشعراء، وإنما كانت تنهض من بين الرماد، تتعثر في خطواتها الأولى، ثم تتعلم السير فوق الجراح. وكما اجتذبت ثورة سبارتاكوس في سالف العصور كل من ضاقت به الأرض أو ضاقت به نفسه، كذلك كانت جمهورية الأتامان رازين الوليدة تفتح أبوابها لكل هارب من قبضة القيصر ، حتى غدت الأرض الصغيرة التي انتزعها بالسيف أشبه بجزيرةٍ تتقاذف إليها أمواج البشر من كل صوب.

جاؤوا أفواجًا ، يحمل كل واحد منهم حكايةً لا تشبه الأخرى.

كان فيهم الأمناء الذين آثروا الجوع على أن يبيعوا ضمائرهم ، والأشراف الذين فقدوا أموالهم ولم يفقدوا كرامتهم، وأرباب الحرف الذين أرهقتهم الضرائب، والعلماء الذين ضاقت بهم صدور الحكام، والفلاحون الذين طحنهم الظلم حتى لم يبق في عظامهم سوى الصبر.

لكن الأرض ، كما تنبت القمح ، تنبت الشوك أيضًا.

فقد تسلل بينهم سُرّاقٌ اعتادوا أن يجعلوا الليل ستارًا لجرائمهم ، وقطاع طرقٍ لم يعرفوا من الحرية إلا حرية السلب والنهب، وهاربون من سجون القيصر، وجنود فروا من الخدمة العسكرية بعدما أثقلت الحرب ظهورهم، وآخرون لم يحملوا إلى الجمهورية سوى أطماعهم.

كنتُ أتأمل تلك الجموع وهي تعبر النهر إلى الضفة الجديدة ، فتداخل في نفسي شعوران متناقضان ؛ رجاءٌ في أن تكون هذه الأرض بداية عهد مختلف ، وخوفٌ من أن يكون الخراب قد ارتدى ثوب اللاجئين.

اقتربت من الأتامان رازين ، وكان يقف فوق ربوة ترابية يتأمل الناس في صمت. كان وجهه ساكنًا، إلا أن عينيه كانتا تخفيان حربًا لا تهدأ.

قلت له بعدما طال صمته : ألا ترى في ذلك خطرًا على جمهوريتك الوليدة ؟

التفت إليّ ببطء.

تابعت : طوال عام كامل لم تقع هنا جريمة واحدة. لم يُقتل بريء، ولم تُنهب دار، ولم تمتد يد إلى مال غيرها. أفلا تخشى أن يفسد هؤلاء ما بنيته؟ ماذا لو تمردوا على قوانينك ؟ ماذا لو رأوا في كثرتهم قوةً تغريهم بقلب النظام ؟

ظل ينظر إلى الأفق قبل أن يجيب بصوت هادئ : لن يحدث ذلك.

ثم أضاف بثقة لا يخالطها تردد : لقد أصدرت قانونًا يقضي بإعدام كل من يتمرد على النظام العسكري أو يحاول تقويض أمن الجمهورية.

ساد بيننا صمت قصير، كان أثقل من هدير الريح.

قلت وأنا أحدق في وجهه : تلك هي البداية التي عرفها التاريخ مرارًا. فما أكثر الحكام الذين بدأوا بحماية الدولة، ثم انتهوا إلى امتلاكها. وما أكثر القوانين التي وُلدت لحراسة الحرية، فإذا بها تصبح السلاسل التي تقيدها. إن الناس قد يرون فيك دكتاتورًا، وربما أشد قسوة من القيصر الذي خرجت لمحاربته.

لم يغضب. بل أطرق رأسه لحظة، كأنه كان ينتظر هذا السؤال منذ زمن بعيد.

ثم قال : إن القوة التي لا يحكمها قانون تتحول إلى فوضى، أما القانون الذي لا يراقبه الناس فيتحول إلى استبداد. لذلك لم أجعل نفسي فوق الجميع.

سكت قليلًا، ثم أردف : لقد أنشأت مجلسًا للشورى يضم رجالًا من أصحاب الرأي والخبرة، ولن أمنح نفسي حقًا يزيد على حق أي عضو فيه. فإن أخطأت، قوموني، وإن ظلمت، فحاسبوني.

ابتسمت ابتسامة باهتة.

وقلت : الكلمات الجميلة يسهل قولها، لكن الامتحان الحقيقي يبدأ حين يصبح الكرسي أثمن من المبادئ.

رفع رأسه فجأة، وكانت في عينيه نار خافتة.

أتعرف ما الذي يخيفني ؟

هززت رأسي.

قال : ليس أن أخسر الحكم... بل أن أخسر نفسي.

كانت العبارة قصيرة، لكنها خرجت من أعماق رجل أنهكته الحروب.

تأملته طويلًا.

كان الناس يرونه قائدًا لا يعرف التراجع ، لكنني كنت أرى خلف ذلك الوجه المتماسك إنسانًا يحمل ندبةً لا تراها العيون.

قلت بصوت خفيض : وماذا لو عرف الناس أن العدالة ليست هدفك الأول ؟

حدق فيّ طويلًا.

ثم قال : ماذا تقصد؟

قلت : ماذا لو اكتشفوا أن وراء هذه الثورة كلها ثأرًا قديمًا؟ وأن الدم الذي يسكن قلبك ليس دم آلاف المظلومين، بل دم أخيك الذي قُتل ظلمًا على يد الأمير دولوجوركي وزوجته ؟

ساد الصمت. حتى الريح بدت كأنها توقفت عن الحركة.

رأيت أصابع رازين تنقبض شيئًا فشيئًا فوق مقبض سيفه.

ولأول مرة منذ عرفته، رأيت القائد يختفي، ويظهر الأخ الثاكل.

قال بصوت مبحوح : بعض الجراح لا يداويها الزمن.

ثم أغلق عينيه لحظة، وكأن بابًا قديمًا انفتح في ذاكرته.

عاد يرى أخاه كما كان ؛ يضحك، ويحلم، ويؤمن بأن العدالة لا بد أن تنتصر. ثم رآه ممددًا في دمه، بينما كان القتلة يحتفلون بانتصارهم.

همس لنفسه : منذ ذلك اليوم، لم أعد الرجل نفسه.

وفي داخله دار صراع لم يسمعه أحد.

أأنا أقاتل من أجل الناس ؟ أم من أجل نفسي ؟ هل أقود الثورة لأنقذ المظلومين ، أم لأنقذ الطفل الذي مات داخلي يوم قُتل أخي ؟ وهل يمكن للإنسان أن يفصل بين العدالة والانتقام ؟

كان يدرك أن الثورة التي يقودها إن تلوثت بروح الثأر ، فسوف تتحول إلى نسخة أخرى من الظلم الذي خرج لمحاربته.

قال بعد صمت طويل : لن يعرفوا ذلك أبدًا.

ثم أضاف بنبرة صارمة : هذا السر لا يعلمه غير رجل واحد.

سألته : أوتار أودينوف؟

أومأ برأسه.

نعم. إنه صديقي منذ الشباب ، ورفيق سلاحي ، ونائبي في إدارة الجمهورية.

قلت : وهل تثق بالبشر إلى هذا الحد ؟

ابتسم ابتسامة شاحبة.

لا أثق بالبشر... وإنما أثق بالمواقف التي عشناها معًا.

قلت : والمواقف تتغير.

قال : نعم.

قلت : والطموح أيضًا يتغير.

نظر إليّ نظرةً طويلة.

فقلت : السلطة تمتحن الرجال أكثر مما تمتحنهم الحروب. ففي ميدان القتال يعرف الإنسان عدوه، أما في القصور فلا يدري أعدوه يجلس أمامه أم خلفه. وكم من صديق أسقطته فتنة السلطان، وكم من خائن كان في يوم من الأيام أوفى الناس.

بدت على وجه رازين أمارات التفكير. كان يعلم أن كلامي ليس ضربًا من التشاؤم، وإنما هو خلاصة ما علمه التاريخ للبشر.

أما في الجهة الأخرى من المعسكر ، فقد كان أوتار أودينوف يتابع الجنود وهم ينظمون صفوف القادمين الجدد.

كان وجهه جامدًا ، لكن عينيه كانتا تلمعان ببريقٍ غامض.

ترى... أكان ذلك بريق الوفاء ؟ أم بريق الطموح ؟

إن القلوب لا يقرأها إلا الله، أما البشر فلا يرون منها إلا الأقنعة.

وفي تلك الليلة ، حين غابت الشمس خلف الغابات ، وخيم السكون على الجمهورية الوليدة ، لم يكن أحد يعلم أن أخطر المعارك ليست تلك التي تدور عند حدود البلاد ، وإنما تلك التي تبدأ داخل قلب الإنسان.

فقد يستطيع الرجل أن يهزم ألف عدو ، لكنه قد يعجز عن هزيمة شهوةٍ واحدة إلى السلطة.

وهكذا بقي السر حبيس صدرين ؛ صدر رازين، وصدر أوتار أودينوف.

لكن الأسرار، شأنها شأن النار تحت الرماد، لا تموت. إنها تنتظر فقط الريح التي تكشفها.

وكانت رياح القدر قد بدأت تهب، في صمت، دون أن يشعر بها أحد.

في ظلال الأتامان: حين صار التمرد أسطورة

ما زلنا في جيش الأتامان نظام الدين ، أو ستيفان رازن كما تسميه التقارير الروسية ، ذلك الرجل الذي أوشكت ثروته أن تقوّض عرش آل رومانوف في روسيا ، وتفتح في جدار الدولة القيصرية شقًّا يتسع كل يوم ، كأنما كانت الأرض نفسها تميل إلى جانبه ، وتخونه السماء في خصومه.

كان اسمه يسبق خطاه، وتسبقه خطاه إلى حيثما حلّ، حتى غدا حديث السهول والوديان، وحكاية المعسكرات ، وهمس القرى ، وموضوع السمر الطويل في الليالي الملبدة بالدخان والبرد. لم يعد رجلًا من لحم ودم فحسب ، بل صار فكرة تمشي على قدميها ، وشبحًا يتهيب الناس له المرور، وأسطورة تتناقلها الأفواه كما تتناقل الحقول خبر المطر بعد طول قحط.

وقد صحبتُ وكيلتنا في مجالسة الأتامان وجيشه زمنًا ليس بالقصير، حتى ظننت أنني رأيت ما يكفي لأفهم الرجل، فإذا بي كلما دنوت من حقيقته ازددتُ بعدًا عنها. كان في وجهه ما يدعو إلى الثقة، وفي صوته ما يورث التوجس، وفي صمته ما يربك القلب أكثر من الكلام. لا يبتسم إلا كأن الابتسامة قناع، ولا يرفع عينيه إلى محدّثه إلا وفيهما شيء من حساب بعيد، كأنّه يزن الناس والوقائع كما يزن التاجر ذهبه في الميزان الدقيق.

جلستْ وكيلتنا ذات مساء إلى جانبي ، وقد أرهقتها رحلة النهار ، ولفحها برد السهوب حتى تغلغل في أطرافها، ومع ذلك كانت عيناها يقظتين، وفيهما ذلك البريق الذي لا يهدأ ، بريق امرأة عرفت الخطر فلم تعد تهاب الاقتراب منه، بل صارت تتلمسه كما يتلمس الجراح نبض الجرح بيده الخبيرة.

قالت بعد أن طالت صحبتنا للأتامان وجيشه ، وقد خفضت صوتها كأنها تضع السرّ على طرف لسانها خشية أن يسمعه الهواء :

يا صديقي ، في رأيي أن هذا الرجل غير صادق فيما يعلنه من عزمه على تحرير القوزاق والتتار والشركس.

نظرتُ إليها وقد أثارت في نفسي ما اعتدتُ أن تثيره من الشكوك والظنون، وقلت : وما الذي وراء هذا الشك في نيته؟ أليس قد تبعه حتى الآن أكثر من عشرين ألفًا من الثائرين من تلك القبائل ، وهم قوم قلّ أن يخضعوا لزعيم واحد، أو يجتمعوا على رأي لا تفرقه الأهواء ؟

هزّت رأسها هزّة بطيئة ، وقالت ، وفي نبرتها شيء من امرأة تعتقد أنها تمسك بطرف الحقيقة : أجل ، ولكن الرجل في مسيرته يكثر من السؤال عن تحركات الأمير دولغوروكي، عدوه الشخصي الذي قتل أخاه. ماذا لو كان لا يبحث إلا عن ثأره ؟ ماذا لو كانت راية التحرير مجرد ستار يخبئ خلفه نارًا أخرى ، نارًا لا تهدأ حتى تلتهم دمًا بدم ؟

كانت كلماتها تنزل على روحي نزول الرذاذ البارد على الحديد الساخن؛ لا هي أطفأته ، ولا هي تركته على حاله. ثم أردفت، وقد بدا لي أنها استجمعت في صدرها أسئلة كثيرة طال كتمانها :

ثم لماذا يكثر من السؤال عن زوجة دولغوروكي ؟ عن كاتيا التي كانت وراء مصرع أخيه ؟ إن الرجل لا يبحث عن شيء إلا عن ثأره. تلك طبيعة تعرفها الأمم حين يكسوها الجوع ، وتعرفها القلوب حين ينهكها الفقد. الثأر إذا دخل نفسًا واحدة أقام فيها مدينة من الظلمة ، وجعل صاحبها يرى العالم كله من نافذة الجرح.

سكتُّ لحظة، ورحتُ أستعيد ما رأيت من نظام الدين، وما سمعت عنه، وما تناقلته الألسنة في الطرقات والخيول والخيم. نعم، لم يكن يخفى على أحد أنه أكثر من مجرد قائد متمرّد. كان فيه من الحيلة ما يجعل المرء يتساءل: أهو يسيّر الرجال أم يسير بهم ؟ أهو يفتح لهم أبواب الحرية أم يجرّهم إلى قدره الخاص كما تجرّ الريح سحابة لا تدري أين تمطر ؟

قلت لها بعد تفكير : لا أنكر أن هذا الشك في نيات رازن قد لون إعجابي به بالخوف، وجعل في القلب حذرًا يجاور الإعجاب. أخشى أن يكون قد دفع رجاله إلى مخاطر غير محسوبة ، إذا ما قرر القيصر التصدي له بعد واقعة الأسطول. ومع هذا، فإن المرء يقف حائرًا أمام النجاح المدوي الذي حققه رجاله. لقد صاروا في نظر الناس قوة لا يستهان بها، ورايةً تهتز فوق السهوب، وكأن الأرض فتحت لهم صدرها ، وكأن الريح تحرس أقدامهم.

أجابتني وكيلتنا وهي تشبك أصابعها في ثوبها كمن يحاول جمع الخيوط المتناثرة لفكرة واحدة : النجاح وحده لا يثبت النية الصادقة. كثير من السيوف لمعت قبل أن ترتد على أصحابها. وكثير من الرجال خرجوا من ظلمة الفقر والمهانة، فظنهم الناس رسلًا للعدل، ثم اكتشفوا أنهم لم يفعلوا سوى نقل الظلم من يد إلى يد.

كان الليل قد بدأ يهبط على المعسكر ، هبوطًا بطيئًا يشبه انسكاب الزيت الأسود على صفحة الأرض. ألسنة النار تنتشر هنا وهناك، يحيط بها الرجال في دوائر صامتة، بعضهم يرقع ثوبه، وبعضهم يشحذ سيفه، وبعضهم يحدق في الفراغ بعين نصف نائمة، كأن كل واحد منهم يخشى أن يوقظه حلمٌ يراه في يقظته. كانت الخيول مربوطة إلى أوتاد خشنة، تنفخ في الهواء البارد حتى يتصاعد من أفواهها بخار أبيض يشبه أرواحًا صغيرة خرجت لتسخن المساء.

في تلك اللحظات ، لم يكن رازِن بالنسبة لي مجرد اسم تتناقله الأخبار ، بل ظلًا طويلًا يسير بين النيران ، وجوهًا متبدلة ، وحضورًا يملأ المكان حتى حين يغيب. رأيته غير مرة واقفًا وسط رجاله، فلا يبدو قائدًا فحسب، بل يبدو كأنه مخلوق من نفس الطينة التي تصنع منها الحكايات بعد أن تمتحنها الشدائد. في هيئته شيء من خشونة البراري، وفي نظرته شيء من فروسية قديمة لا تعرف الخضوع، وفي صمته ما يوحي بأن الكلام عنده ليس ضرورة، بل أداة يخرجها حين يريد أن يحرّك الماء الراكد.

لقد أثار في نفسي من الإعجاب بقدر ما أثار من الخوف. كان الرجل يقف دائمًا على حافة الهاوية، لكن وجهه لا يفضح ارتجافًا. كأنما اعتاد أن يرى الموت قريبًا حتى ألفه، أو كأنما صالحتْه الكوارث القديمة على أن لا يطلب من الدنيا إلا لحظة عابرة من المجد.

وفي صباح ذلك اليوم ، شاع في المعسكر خبر الاستيلاء على ست قطع من سفن الأسطول الروسي. وما إن استقر الخبر في الآذان حتى تبدلت وجوه الرجال ؛ انفجرت الصيحات ، وتعالت الأهازيج ، وهرع بعضهم إلى بعض يعانقون ويضحكون ويرفعون السلاح في الهواء، كأنهم لم يظفروا بسفن فقط، بل ظفروا ببرهان جديد على أن السماء ما تزال تميل إليهم.

ثم حدث ما لم يكن كثيرون ينتظرونه، فقد أمر رازِن بإطلاق الأسرى الذين كانوا في مخازن تلك السفن. وقف بينهم، وقد اصطف

الرجال أمامه في خشوع العساكر أمام قائدهم، ثم قال بصوت هادئ، لكنه نافذ كحدّ السكين :

أنتم أحرار الآن. اذهبوا حيث شئتم. لا أستطيع إرغامكم على البقاء معنا. ولكن من شاء أن يبقى، فلن يجد منا غير الترحيب.

كان كلامه بسيطًا ، غير أن بساطته حملت ما هو أثقل من الخطب الرنانة. هنا فقط فهمت لماذا كانت أقدار الرجال تتبعه؛ لأنه لا يطلب الطاعة بوصفها إذلالًا، بل يطلبها بوصفها عهدًا بين من يخاطرون معًا. لقد عرف كيف يغري النفوس لا بالذهب وحده، بل بالإحساس أن لها مكانًا في الحكاية، وأنها ليست حطبًا يُلقى في النار، بل أسماءً يُشار إليها.

ومع ذلك ، لم يبرح الشك قلبي. كلما شاهدت هذا الوجه الإنساني في الرجل ازددتُ خوفًا من الوجه الآخر المختبئ خلفه. فالطبيعة البشرية، حين تُبتلى بالدم، لا تعطي قلبًا واحدًا فحسب، بل قلبين؛ واحدًا يظهر للناس، وآخر يخبئه الإنسان لنفسه. وربما كان رازِن من أولئك الذين لا يعرفون الفرق بين العدل والثأر إلا بعد أن يتأخر الوقت عن الاعتراف.

قلت في سري : إن الثورة إذا بدأت من رغبة في الانتقام، كثيرًا ما تنتهي إلى انتقام أكبر من صاحبها. فما أشبه الإنسان الذي يظن أنه يقود القدر، ثم يفاجأ بأن القدر هو الذي كان يقوده إلى المصير الذي أراد الفرار منه.

ولم يكن في المعسكر من يجهل ما يقال عنه في الأقاليم الجنوبية من روسيا ، في سهول القوزاق وجبالها. هناك كانت اسطورته تنمو كالعشب البري بعد المطر. يرويها الرعاة عند الأنهار، ويتناقلها الصبية في الساحات، وتغني بها النساء في الليالي الطويلة، وتتخذها أفواه الشعراء مادة لأغانٍ يصدح بها المطربون المتجولون، كأنهم ينشدون لرجل لا يُرى إلا على حدود المعجزات.

كانوا يقولون إن مجرد ظهوره يحيل الهزيمة إلى خوف ، وإن نظرته وحدها تهزم جيشًا من الألوية. وبعضهم كان يبالغ حتى يلبسه ثوبًا من الخوارق، فيزعم أن أمه من الغيلان، وأن أباه من الجن، وأنه لا ينتمي إلى البشر إلا بقدر ما تنتمي النار إلى الضوء. ولم تكن هذه الأقاويل كلها إلا دلالة على ما يحدثه الخيال الشعبي حين يعجز عن تفسير الجرأة الخارجة عن المألوف.

لكن الحقيقة ، كما تعلمناها من تجارب الدنيا، أقل سحرًا وأكثر قسوة. فالرجال العظام لا يولدون من الأساطير ، بل تصنعهم المحن، وتكبرهم الخيبات، وتُصلبهم الفاقة ، حتى إذا وقفوا يومًا على رأس جموعهم ظنهم الناس من عالم آخر. وما كان رازِن، في أعماقه، إلا رجلًا جريحًا يعرف كيف يحول جرحه إلى راية.

وفي إحدى الليالي ، بعدما انفضّ جمع الرجال عن النار ، وجدتني أفكر فيه طويلاً. كيف ينام هذا الرجل ؟ وما الذي يراه حين يغمض عينيه؟ أيرى وجه أخيه المقتول؟ أم وجه دولغوروكي ؟ أم وجه كاتيا التي صارت في ذهنه رمزًا لألم لا يهدأ ؟ أم أنه لا يرى إلا طريقًا طويلًا من الدم المؤجل، يمشي فيه وحده، والليل خلفه، والجيش أمامه، والتاريخ من حوله يفتح دفاتره لاسم جديد ؟

تساءلتُ أيضًا : هل كان حقًا يطمح إلى تحرير القوزاق والتتار والشركس؟ أم أنه وجد في تلك الشعارات ما يجمّع حوله الناس كما تجمع الراية العاصفة شظايا الغبار؟ فالحرية، في زمن الاضطراب، كلمة واسعة، يدخل فيها الطامح والمقهور، المؤمن والمنتقم، الحالم والمحتال. وكل منهم يسمع منها ما يوافق جرحه أو طمعه.

أما وكيلتنا، فقد ظلت على ظنها ، ولم تَزُلْ عنه. كانت ترى الرجل بعين البصيرة الباردة، لا بعين الإعجاب. وفي ذلك شيء من الحكمة وشيء من القسوة. قالت لي في آخر حديثها :

لا تثق كثيرًا في القائد الذي يقود الناس إلى المعركة وهو يحمل في صدره معركة أخرى. لأن المعركتين إذا تداخلتا ، ضاع الفاصل بين الواجب والهوى ، وصار الدم لغة الجميع.

أطرقتُ طويلًا. كانت كلماتها كافية لتوقظ في داخلي سؤالًا قديمًا: هل يصنع التاريخ الرجال أم يصنع الرجال التاريخ ؟ وربما كانت الإجابة في هذا الرجل بالذات ، إذ بدا كأنه كلما حاول أن يثور على زمنه ازداد انغراسًا فيه ، وكأنه لم يعد يملك من أمر نفسه إلا ما يسمح به له جرحه الأول.

ومع بزوغ الفجر ، خرجتُ إلى طرف المعسكر. السماء رمادية ، والريح تقضم ما بقي من دفء الليل ، والرجال يتحركون كأنهم جزء من مشهد أكبر من أجسادهم. هناك، على مسافة غير بعيدة، رأيت رازِن على ظهر جواده، يحدق إلى الأفق ، لا في مهابة القائد فحسب ، بل في صمت

الإنسان الذي يعرف أن الطريق أمامه أطول من انتصاره. كان في وقفته شيء من التحدي، وشيء من الوحدة، وشيء من ذلك الحزن العميق الذي لا يراه إلا من اعتاد قراءة الوجوه كما تُقرأ الخرائط.

قلت في نفسي : لعل هذا هو سرّه. ليس في قوته فقط، بل في قدرته على أن يبدو أقوى مما في داخله. فالإنسان أحيانًا لا ينجو بشجاعته، بل بصورته عن نفسه. ومن استطاع أن يقنع العالم بأنه لا يُقهر، اقترب من حدود الحقيقة التي يصنعها الخوف.

وهكذا ظللتُ بين الإعجاب والحذر ، بين التصديق والارتياب ، أرقب هذا الأتامان الذي صعد من تراب الفقر إلى قمة العاصفة، وأتأمل كيف يمكن لرجل واحد أن يجمع في صدره نداء الحرية ونداء الانتقام، وأن يلبس للناس وجهًا، ثم يخفي تحت ذلك الوجه وجهًا آخر، لا يراه إلا من اقترب من النار حتى احترقت أصابعه.

ولعل الأيام وحدها كانت قادرة على أن تكشف هل كان رازن محررًا حقًا، أم مجرد عاصفة اتخذت من الحرية اسمًا، ومن الدم طريقًا، ومن التاريخ مرآةً لتضخيم مأساتها. أما نحن، فلم يكن لنا يومئذ إلا أن نتابع خيط الحكاية، وأن نصغي إلى وقع الحوافر فوق السهوب، كأنها تطرق باب القرن كله ، وتعلن أن روسيا القديمة لن تبقى كما كانت بعد اليوم.

رازين بين النهر والعرش
حين يبتسم القدر للثائر ويُخفي السيف في عباءة الحلم

لم يكن المساء في تلك الأرض يشبه مساءات العالم ، بل كان أشبه بجرحٍ مفتوح على صفحة الماء. النهر يمتدّ، ثقيلًا، داكنًا، كأنما يجرّ وراءه تاريخًا كاملًا من الدم والخذلان، والسفن الراسية عند ضفته تئنّ تحت وطأة الصمت، كأنها كائنات خشبية تنتظر أمرًا يوقظها إلى الهلاك أو المجد.

وقف ستينكا رازِين على شاطئ النهر ، عريض الصدر ، صلب الملامح ، وقد حفرت الرياح في وجهه خطوطًا تشبه شقوق الأرض العطشى. كانت عيناه اللامعتان تلتقطان كل شيء: ارتجافة الجندي، تردد القائد، خضوع السهل، وحتى ذلك الوميض البعيد الذي يسبق العاصفة. لم يكن رجلاً عاديًا، بل كان من أولئك الذين تسبقهم الحكايات إلى المكان قبل أن تطأه أقدامهم. يقال عنه إنه لا ينام إلا وعيناه مفتوحتان على الخرائط، وإنه يرى في الليل ما لا يراه غيره في النهار. ويقال، همسًا لا جهرًا، إن امرأة من عالم الجن قد ارتبطت به، تأتيه بالأخبار ، وتكشف له ما يُخفى عن العيون ، حتى كأن الحجب كلها ترفع له وحده.

لكن رازِين ، على ما فيه من بأس وغموض ، لم يكن يعيش على أسطورة وحدها. كان يعرف أن القوة التي لا تسندها السياسة تُهزم، وأن السيف الذي لا يحرسه العقل ينكسر مهما بلغ من الصلابة. لذلك كان يقف أمام البحيرة البشرية من الرجال والسفن والرايات، وفي صدره نار مزدوجة: نار الثأر، ونار العرش.

قال أحد مَن حضروا تلك اللحظة، وقد امتلأت روحه بالدهشة:

من رأه في معركة النهر قال إنه تصدّى وحده للسفن كلها. وما إن نظر إلى ربان سفينة القيادة حتى خرّ المسكين أمامه صعقًا، كأن النظر نفسه سهمٌ اخترق صدره.

ابتسم رازين ابتسامةً لم تبلغ عينيه. كان يعلم أن الناس يحبون تضخيم أفعالهم إذا صارت أسطورية ، لكن ما لا يعرفونه هو أن كل بطولة تحمل في باطنها خوفًا خفيًا، وكل انتصار يترك في النفس ندبة لا

يراها أحد. لقد قاتل كثيرًا، نعم، لكنه كان يعرف أيضًا أن لحظة المجابهة ليست في صليل السيوف، بل في تلك الثواني التي ينهض فيها الإنسان فوق ضعفه. وكان هو، في كل مرة، ينهض.

اقتربت منه رفيقته القديمة ، تلك المرأة التي كانت تتكلم حين يصمت الآخرون ، وتفضح ما يستتر في الصدور كما تفضحه النار على القش اليابس. كانت تعرف كيف تستفزّه، ليس بدافع العبث، بل لأن قادة الثورات يحتاجون إلى مرآةٍ لا تهادنهم.

قالت وهي تحدّق فيه بعينين نافذتين :

يا أتامان رازين، إنك تبحث عن الأمير دولغوروكي وزوجته بإصرار كلب الصيد. كلما قيل لك إنه في ناحيةٍ ما أسرعت إليها كأنك لا ترى سواه. ألا ترى أن رغبتك العنيفة في الأخذ بثأر أخيك قد تفسد أمور جمهوريتك الجديدة؟ أليس في هذا ما يبدد حلمك الكبير ؟

ظلّ رازين صامتًا لحظة. هبط الصمت بينهما مثل حجرٍ في بئر بعيدة، ثم رفع رأسه ببطء، كأنما يفتّش في الهواء عن جواب لا يريد أن يفضحه بسهولة. كانت في داخله أصوات كثيرة تتعارك: صوت القائد الذي يريد أن يبني دولة من رماد، وصوت الأخ الذي لم يهدأ له قلب منذ سقط أخوه قتيلًا، وصوت الثائر الذي لا يكتمل له المجد ما دام خصمه يتنفس.

قال أخيرًا، وقد صارت كلماته أشبه باعترافٍ خرج من غياهب النفس : لا أنكر ذلك. لن أستريح قبل أن أنتقم لأخي. ثم بعد ذلك، أفرغ للقيصر.

ثم سكت، كأنما كل ما في صدره من نار قد خرج دفعة واحدة ، أو كأنه خشي أن يسمع من في الأفق ارتجاف الحقيقة. نظر إلى الماء، ثم تابع بصوتٍ أخفض، ولكن أكثر صلابة :

لقد عقدتُ معاهدةً سرية مع السلطان العثماني. ستدخل حيز التنفيذ فور أن تتجه قواتي لمحاصرة العاصمة. لقد أمدّني بالسلاح، وبالمدافع على وجه التحديد، غير أنه حتى الآن لا يُظهر استعدادًا لإرسال جيشه نحو الرب الروسي.

رفعت المرأة حاجبيها باستغراب ، وقالت : ولماذا نريده أن يتحرك؟

أجابها رازين وهو يمشي خطواتٍ بطيئة بمحاذاة الضفة ، كأنما يزن الأرض بحذائه :

أريده شاهدًا على صدق نيته في تهديد العاصمة الروسية من ناحية الغرب، إذا شرعتُ أنا في مهاجمتها من ناحية الشرق. لا أريد أن أقاتل وحدي أكثر مما ينبغي. فالثورة، يا امرأة، ليست رجولةً منفردة، بل حسابٌ دقيق في لحظةٍ لا تحتمل الخطأ.

قالت بنبرةٍ فيها مزيج من الإعجاب والقلق : إذن أنت توزّع نيرانك على جبهتين ، وتطلب من القيصر أن يحاصر نفسه بنفسه ؟

فأجابها : بل أطلب من القدر أن يتعب من الوقوف في صف أعدائي.

كانت هذه من العبارات التي يحبها الرجّال الذين يصنعون لأنفسهم مقامًا فوق العادة. لكن وراءها كان رازين يعرف جيدًا أن التحالفات الملتبسة لا تصنع نصرًا نظيفًا، وأن من يفتح بابًا للغرباء قد يترك لهم منفذًا إلى بيته أيضًا. ومع ذلك لم يكن له من خيار آخر. فالدولة التي يحلم بها لا تبنى بالنقاء وحده، بل بالمناورة، وبالوقت، وبالشك أيضًا.

ثم جاءت المسألة التي كان يتجنبها منذ أيام ، مسألة الدين والهوية والولاء. فقد سمع الناس أنّ سلطانًا ما ، من تلك السلاسل السياسية التي تربط السيوف بالفتاوى، طلب منه إعلان إسلامه وإظهار أصله الشركسي. وكان الخبر قد وصل إليه عبر رسولٍ لبق، يحمل على لسانه أكثر مما يحتمل صدره.

تذكّر رازين تلك اللحظة بمرارةٍ خفية. لقد جلس يومها في خيمةٍ متواضعة، والريح تطرق أطرافها كأنها أصابع مترددة، ثم دخل رسول السلطان، يحمل كلامًا مغلفًا بالمجاملة، لكن الحروف كانت واضحة في جرحها: أعلن إسلامك، وأظهر أصلَك الشركسي، ليكتمل الاتفاق ويثبت صدق النية.

لم يستجب رازين فورًا ، بل ترك الجواب ينهض في نفسه خطوةً خطوة. كان يدرك أن العبارة ليست دينية فقط ، بل سياسية أيضًا. من يطلب منه ذلك لا يطلب تغييرًا في القلب بقدر ما يطلب إعلانًا يُرضي الحسابات. وكان هو، رغم ما فيه من جرأة ، يخشى أن تتحول هذه المسألة إلى شرارةٍ تشعل الفتنة بين رجاله. ففي جيشه رجالٌ مسلمون ،

ورجالٌ أرثوذكس متعصبون ، وأناسٌ يضعون الولاء للعقيدة فوق الولاء للراية. وإن هو أعلن ما يريد السلطان، انقسم الجمع. وإن هو رفض كليًا، خسر المدد والسلاح وربما خسر منفذًا إلى خصمه الأكبر.

لذلك قال لرسول السلطان، وقد اختار كل كلمة كأنها حجر في بناءٍ دقيق :

آنَ أوان هذا لم يأت بعد. إني أخشى الفتنة الطائفية بين رجالي ، فكما فيهم المسلمون ، فيهم أيضًا الأرثوذكس المتعصبون. لقد وعدتُ الجميع بحرية الأديان بعد الانتصار الأكبر ، فلا أريدهم أن يتشككوا في نياتي ، فتقوم فتنة تشتت شملنا.

وحين نطق بهذه الكلمات ، لم يكن يخاطب رسول السلطان وحده ، بل كان يخاطب التاريخ أيضًا. كان يقول له: إنني أؤجل ما لا أحتمله الآن، لا لأنني أضعف، بل لأنني أعرف أن الثورات تموت أحيانًا بسبب كلمةٍ في غير أوانها.

رفع رأسه، وفي عينيه بريقٌ حاد، ثم قال كأنه يقطع جدلاً داخليًا طال أكثر مما يجب : لا أريد أن أنحر وحدتي بيدي.

كانت رفيقته تسمعه ، وتراه في آنٍ واحد ، فقالت بعد صمتٍ قصير : أنت لا تخشى القيصر وحده يا رازِين. أنت تخشى أن ينهض القيصر من داخل صفوفك.

نظر إليها طويلًا ، ثم أطرق. لقد أصابت كبد الحقيقة. فما أسهل أن يحارب الإنسان عدوه الظاهر، وما أصعب أن يراقب الشقوق التي تنمو في جدار بيته. كان يعرف أن الثورة حين تطول، تبدأ في ابتلاع أبناءها، وأن السيوف التي رُفعت لنصرة العدالة قد تنقلب على بعضها تحت رايات الشعارات.

قال بصوتٍ خفيض، لكنه ممتلئ بما يشبه المرارة الناضجة :

نعم. أخشى ذلك. لذلك أريد أن أسبق الانقسام بالنصر. أريد أن أرى الرايات فوق العاصمة قبل أن أرى الخلافات في المعسكر.

ثم أضاف، كأنما يحدث نفسه : إن الرجل الذي لا يعرف متى يبطئ، يهلك. والذي لا يعرف متى يجمع الناس، يهزم قبل أن يقاتل.

كانت المرأة تنظر إليه بإعجاب لا تخلو منه خشية. فهي تعرف أن وراء هذا الصدر الواسع قلبًا لا يهدأ ، وأن وراء هذه القسوة حاجةً قديمةً

إلى الاعتراف والعدل. وكم من مرة رأته ليلًا وحده، جالسًا قرب النار، يتأمل الشرر المتطاير كما لو كان يقرأ فيه مصيره. لم يكن قاسيًا لأنه لا يشعر، بل لأنه يشعر أكثر مما يحتمل. الثأر يلسعه، والسلطة ترهقه، والحلم يفتنه، والشك ينهشه. وكان كل ذلك يتجمع في رجلٍ واحد، كأنما القدر أراد أن يختبر في جسده حدود التناقض.

في تلك الليلة ، بعدما خفتت الأصوات ، جلس رازِين منفردًا في طرف المخيم، والبرد يتسلل إلى أطرافه كأنما يذكّره بأنه مهما عظمت راياته فالجسد يظلّ جسدًا. أخذ يحدق في السماء، وفي داخله حوارٌ طويلٌ لم يسمعه أحد.

قال لنفسه : ماذا يريدون مني ؟ هل يريدون منّي أن أكون ثائرًا بلا قلب ؟ أم رجل دولة بلا دم ؟ كيف يمكن لمن فقد أخاه تحت سطوة الظلم أن يقسم قلبه نصفين ؟ نصفٌ للثأر، ونصفٌ للمستقبل ؟ وكيف تُقام إمبراطورية من رجالٍ لا يتفقون حتى على معنى الخلاص ؟

ثم عاد يسأل نفسه : أأنا أريد العرش لأنني أحب العرش ، أم لأنني أكره أن يظل القيصر يملك وحده مصير البشر ؟ أأنا أقاتل لأحكم ، أم لأفتح بابًا لمن لم يجدوا بابًا قط ؟

تذكّر طفولته البعيدة ، عندما كانت الأرض أوسع من الأحلام ، والناس أبسط من السياسة ، والعدالة كلمة يسمعها في الأغاني لا في ساحات الإعدام. تذكّر وجه أخيه، وتذكّر كيف انطفأت الحياة في عينيه. منذ تلك اللحظة صارت الثأر عنده عقيدة، وصار الصعود السياسي وسيلةً لا غاية. لكنه كان يعرف، في أعماقه، أن الثأر وحده لا يكفي. فالأخ لا يعود، والدم لا يشفي إلا لحظةً ثم يفتح جرحًا جديدًا. لذلك كان يسعى إلى شيءٍ أكبر، شيءٍ يشبه الخلاص الجماعي، ولو كان هذا الخلاص ملوثًا بالمساومات.

غلبه النعاس لحظةً ، ثم أفزعه صوت أحد الحراس وهو يعلن وصول رسولٍ جديد.

نهض رازِين ، وعدّل عباءته، وكأنما أزال عن صدره غبار الأحلام. دخل الرسول متلهفًا، وتلا خبرًا جديدًا عن تحركاتٍ مشبوهة في بعض المناطق، وعن وجوهٍ بدأت تتململ، وعن قادةٍ صغار لا يفهمون أن الثورة إذا لم تضبط نبضها تحوّلت إلى فوضى.

سمع رازِين الخبر، فبقي ساكنًا كالصخرة. ثم قال :

ليقل كل واحدٍ ما يشاء. أنا لا أخشى الكلام. أخشى فقط أن يتسرب الارتباك إلى قلوب الرجال.

ردّ أحد الحاضرين : لكن الناس يتحدثون عنك كما لو كنت نصف إنسان ونصف أسطورة. يقولون إنك تصادق الجن، وإنك تعرف ما لا يعرفه غيرك.

ضحك رازِين ضحكةً قصيرة لم تخلُ من السخرية :

دعهم يقولون ما يشاؤون. إن احتاجت الثورة إلى جنيةٍ لتخبرني بأخبار أعدائي، فذلك أهون من أن أحتاج إلى خائنٍ في معسكري.

ثم عاد إلى جدّيته، وقال : الناس يحبون أن يحيطوا القائد بالغيب حين يعجزون عن فهم الحساب. لكنني لا أعتمد على الجن وحدهم، بل على العيون التي ترى، والرجال الذين يصدقون، والوقت الذي لا يرحم.

في عمق تلك الكلمات كان رازِين يعلن شيئًا أكبر من مجرّد دفاع عن نفسه. كان يعلن أن التاريخ لا يصنعه السحر، بل الإرادة الممزوجة بالخوف. وأن ما يبدو معجزة للناس ليس إلا نتيجة رجلٍ وقف طويلًا في العتمة، يتعلم كيف يحوّل القلق إلى فعل.

وفي اليوم التالي ، حين عاد الحديث إلى القيصر وإلى محاصرته القادمة ، جلس رازِين مع قادته تحت شجرةٍ عتيقة، وقد تجمعوا حوله كأنهم ينتظرون فتوى حرب لا قرارًا عسكريًا فحسب. قال لهم :

إن القيصر ميخايلوفتش ليس رجلًا واحدًا، بل هو نظامٌ كامل من الخوف. إن أردنا هزيمته ، فعلينا ألا نقترب منه فقط بالسلاح ، بل بتفكيك صوره في قلوب الناس. يجب أن يفهموا أن العرش ليس قدرًا ، وأن السلطة ليست ظل الله على الأرض، بل امتحانٌ لضمير البشر.

ساد صمتٌ ثقيل. كان بعضهم يفهم، وبعضهم لا يفهم، وبعضهم يخشى أن يكون الفهم نفسه خطرًا. ثم قال أحدهم :

ولكن يا أتامان ، ماذا عن اختلافنا ؟ كيف نجمع هؤلاء تحت رايةٍ واحدة ؟

فردّ رازِين : لا نجمعهم بالكذب ، ولا بالقهر ، بل بالخوف المشترك من الطغيان ، وبالأمل المشترك في يومٍ لا يُساق فيه الإنسان إلى الذل باسم الرب أو باسم القيصر. لقد وعدتُهم بحرية الأديان بعد

النصر، وهذا الوعد ليس ترفًا، بل ضرورة. فمن لم يطمئن في عقيدته، لن يثبت في المعركة.

ثم أضاف بصوتٍ أقل حدّة : لا أريد أن أكون سيدًا على أشلاء الشك. أريد رجالًا يقاتلون لأنهم آمنوا بأن غدًا يمكن أن يكون أفضل.

كانت الشمس في تلك اللحظة تميل إلى الغروب ، فتسقط أشعتها على الماء فتجعله كقماشٍ من الذهب الممزق. نظر رازِين إلى الأفق، وشعر أن ما ينتظره أعنف من أي معركة خاضها. فالقيصر ليس خصمًا يمكن هزيمته بالسيف فقط، والسلطان ليس حليفًا يمكن الوثوق به بلا تحفظ، والرجال ليسوا حجارةً تصفّها كيفما تشاء. كل شيءٍ حيّ، وكل شيءٍ قابل للكسر.

ومع ذلك، لم يتراجع.

في داخله كان هناك صوتٌ واحد لا يخمد : امضِ. فالثائر الذي يتردد لحظةً يكتب خصومه تاريخَه. والثورة التي تخاف من تناقضاتها تموت في مهدها. أما هو، ستينكا رازين، فقد قرر أن يسير بين نارين: نار الانتقام، ونار التأسيس. أن يحمل سيفه بيد، وحلم الدولة باليد الأخرى. أن يفاوض السلطان دون أن يخضع له، وأن يواجه القيصر دون أن يتسرع. وأن يقول للناس إن الحرية، مثل النهر، لا تأتي كاملةً ، بل تتشكل من آلاف الجداول الصغيرة التي تدفعها الأرض إلى الأمام.

ولعل أكثر ما كان يؤلمه أنه يعرف ذلك كله، ومع ذلك يبقى بشرًا. بشرًا يشتاق إلى أخيه، ويخاف فتنة رجاله، ويطارد الأمير دولغوروكي كأنما يطارد شبحًا يخصّ قلبه لا السياسة. بشرًا يبتسم حين تشتد الضغوط، ويبدو للعامة أسطورة، بينما ينهشه في الداخل سؤالٌ قديم: هل يكفي أن ننتصر، أم يجب أن نكون جديرين بالنصر أيضًا ؟

+

ظلّ النهر يجري، والسفن تنتظر، والليل يقترب مثل قدرٍ طويل. أما رازِين فكان واقفًا ، بين الماء والسماء، بين الحلم والحديد، بين الإنسان والأسطورة. وفي عينيه لمعةُ من رأى أكثر مما ينبغي، ثم قرر رغم ذلك أن يمضي.

وهكذا بدأت الحكاية لا من المعركة ، بل من الجرح. لا من السيف، بل من القلب. لا من الراية، بل من السؤال الذي لا يجيب عنه إلا

الثائر حين يواجه نفسه: إلى أين يأخذني انتقامي، وإلى أين يأخذني وطني؟

وفي هذا السؤال بالذات ، كانت روسيا كلها تختبئ، وتنتظر.

حين انحنت المدينة على صليل القدر

في تلك الأيام التي كانت فيها سهوب الفولغا تمتد كبحرٍ لا شاطئ له ، وكانت الريح إذا هبّت على الماء كأنها تقرأ سرّ البلاد القديمة ، جاء إلى أتامان رازين رجلٌ يحمل في ملامحه أثر السفر، وفي صوته ارتجاف الخبر قبل أن يستقرّ على اللسان. دخل عليه في ساعةٍ كان فيها الراعي الثائر، سيد القلق واليقظة، جالسًا قرب الخرائط الخشنة، يحدّق في خطوط الأنهار كما يحدّق رجلٌ في الكفّ باحثًا عن مصيره. كان رازين يومئذٍ لا يرى العالم كما يراه الناس؛ فالمدينة عنده ليست حجرًا، والجيش ليس رجالًا فقط، والسلطان ليس اسمًا بعيدًا، بل هي كلها وجوهٌ لصراعٍ واحد: صراع الإنسان مع الخضوع، وصراع الجائع مع المخزن، وصراع المقهور مع من ورثوا السيف والعرش.

قال الرجل ، وهو يلتقط أنفاسه : يا أتامان ، لقد جاء أمر القيصر، ونزل الأمير دولغوروكي في مدينة تزاريتسين.

رفع رازين رأسه ببطء ، كأنّ الخبر لم يدهشه بقدر ما أيقظ في داخله نارًا كانت تتقد تحت الرماد. لم يسأل أول الأمر عن المدينة ، ولا عن المدافع ، بل عن صاحبها ، لأن الثائر يعرف أن الحروب لا تبدأ من الأسوار بل من الرجال. قال بصوتٍ خفيضٍ لكنّه نافذ ، كالسهم إذا خرج من قوسٍ مشدود : و لِمَ أُرسل دولغوروكي على وجه التحديد ؟ أمعه زوجته ؟

كان في السؤال سخريةٌ مرّة ، وسخرية الراعي المتمرّس الذي لا ينسى إهانة سابقة. فالقيصر حين يرسل أميرًا إلى الحصون، لا يرسل عقلاً فحسب، بل يرسل بيتًا من المجد، وأحيانًا يرسل معه أيضًا ظلًّا من الكبرياء والترف، وذاكرةً من العدوان. أجابه الرجل وهو يتردد: لا أدري يا أتامان، ولكنّه يعكف على تقوية الحامية في تزاريتسين ، وقد أمدّه القيصر بكثيرٍ من المدافع الثقيلة.

ساد الصمت لحظةً قصيرة ، غير أنّها كانت في داخل رازين أطول من موسمٍ كامل. لقد سمع ما يكفي ليفهم أنّ المدينة تُحاصر قبل أن تُحاصر ، وأنّ القيصر لا يثق بتقلبات الأرض ، فيستوثق لها بالحديد. تزاريتسين ليست مدينة عادية في عينيه ؛ إنها بوابةٌ من بوابات الجنوب

الروسي ، عقدةٌ من عقد النهر، وموضعٌ تنتهي عنده أطماع الأتراك وتمتدّ منه أعين موسكو. كانت حصينةً حتى ليخيَّل للغافل أنّ حجارتها موضوعةٌ بيد القدر لا بيد البشر. وقد جرّبها العثمانيون من قبل، فأحاطوا بها عامًا كاملاً، ثم انصرفوا عنها كمن أراد اقتلاع شجرة من جذورها فلم يجد في الأرض ما يلين. ولهذا كانت تزاريتسين في الوعي الشعبي مدينةً مشهورة بالقسوة والعناد، مدينةً لا تعطي مفاتيحها إلا لمن يملك الصبر والدهاء، لا لمن يطرق أبوابها بالسيوف وحدها.

أدار رازين وجهه نحو مساعده أوتار أودينوف، ذلك الرجل الذي عرف الشدائد كما يعرف الفارسُ لجام حصانه ، ونادى بصوتٍ فيه حزمُ القائد وارتجافُ المصير : أوتار ، أوتار أودينوف ، أعدّ السفن للرحيل على الفور.

لم يعارضه المساعد ، فقد كان يعرف أن رازين حين يلمع الشرر في عينيه لا ينطق إلا بعد أن اكتمل القرار في أعماقه. ومع ذلك ، فإن أودينوف ، وقد خبر مزاج الأتامان ، لم يترك الصمت يبتلع النصيحة. أعدّ السفن ، وشرع في جمع الرجال ، وشدّ المدافع إلى مواضعها ، غير أنّه حين خلا إلى رازين بعيدًا عن آذان القادة ، قال له بصدق الجندي الذي يخاف على قائده من اندفاعه :

يا أتامان، إن تزاريتسين من أشدّ مدن الجنوب الروسي تعصّبًا ، ولم تقع قط في أيدي الأتراك رغم أنهم حاصروها عامًا كاملًا. إنها مدينةٌ إذا أقبلت عليها الريح ردّتها ، وإذا أرادت المدافع أن تُرعبها التفتت إليها كأنها نباح كلابٍ بعيدة.

ابتسم رازين ابتسامةً لا تكتمل فيها البهجة ولا العجب ، بل يختلط فيها التحدي بالاعتداد ، ثم قال بنبرة من يرى المستقبل قبل أن يراه الآخرون : ستقع في يدي أنا.

كانت العبارة قصيرة ، لكنها حملت ثقل رجلٍ لا يهاب إلا الهزيمة التي لا يفهم سببها. كان في أعماق رازين يقينٌ غريب ؛ يقينٌ لا يأتي من الحساب وحده ، بل من العداء الطويل بينه وبين العالم. لقد اعتاد أن يرى الجدران وسيلةً لتربية البشر على الطاعة ، ولذلك أحبّ تحطيمها. كان يوقن أنّ المجد لا يمنح للمترددين، وأنّ التاريخ لا يكتب لمن يكتفي بالمشاهدة. ومع هذا، لم يكن في قلبه فراغ المغامرة العمياء ؛ بل كان فيه جرحٌ قديم ، جرح أخٍ راح في التربة البعيدة، وجرحُ رجلٍ كثر خصومه ،

فصار لا يرى في كل حصنٍ إلا قبرًا مؤجلًا لعدوه وقبرًا مؤقتًا لهيبته إن لم يُفلح.

ثم رفع رأسه كما لو كان يستعيد صورةً بعيدة من طفولته ، و قال : لنرسل إلى السلطان العثماني ليحرّك جيشًا نحوها ، حتى يضطر دولغوروكي إلى توزيع قواته.

كان هذا جزءًا من عقل رازين الحربي : أن يربك الخصم من جهته ، وأن يجعله يقاتل على جبهتين ، وأن يحوّل الحصن نفسه إلى فخ. فالحرب عنده لم تكن صراع عضلاتٍ، بل لعبة عقولٍ متوحشة. بيد أن أوتار، وقد عرف نزق الأتامان وخبر قسوته في الحرب ودهاءه في السياسة ، سأله وقد بدا عليه شيءٌ من القلق : أوَتدعو السلطان هذه المرة أيضًا ؟

صمت رازين. كان السؤال قد لمس موضعًا حساسًا. فالسلطان العثماني لم يكن في حسابه مجرد قوةٍ عسكرية ، بل كان أيضًا أداةً يوقظ بها سواكن المعسكرات ، ويشوّش بها مراكز الروس ، ويزرع في قلب دولغوروكي وهماً بأن البحر والبر والنهر كلها تتواطأ عليه. لكنه في تلك اللحظة شعر بشيءٍ من المرارة. لقد كان قد استخدم هذه الأوراق من قبل، ولكنّ ثمن اللعبة كان كبيرًا، وراح ضحيتها كثيرون ممن ساروا خلفه في الفتوح. ومع ذلك، لم يكن رازين رجلًا يطيل الوقوف أمام الندم. قال بصوتٍ منخفض : لا. لن أرسل إليه هذه المرّة.

ولِمَ ؟

لأنّ انتقامي من دولغوروكي وزوجته اللعينة ينبغي أن يكون بيدي ، لا بظلّ سواهما.

كان في العبارة ما يكشف روحًا ملتهبة. لم يكن رازين يكره الأمير وحده، بل يكره في الأمير صورة السلطة التي تتوارث الإذلال وتُحسن تغليفه بالحرير. كانت زوجته في ذهنه رمزًا لوجهٍ آخر من وجوه الاستعلاء ، وجهٍ يظنّ أن النفوذ يولد من النسب وأن القوة تُقاس بما يرفل به المرء من الأنساب والألقاب. أما رازين ، ابن السهوب ونهر الفولغا ، فكان قد خرج من رحم الفقر والتمرد ، فصار في داخله نوعٌ من العدالة الوحشية : أن يردّ الغرور إلى حجمه ، وأن يجعل من فم المُترف غبارًا، ومن قصره ساحةً للخيبة.

وهكذا أخذ القوم يهيئون السفن ، وتتحرك فوق الماء مثل قطيع من الظلال. كانت المجاديف تضرب صفحة الفولغا ضربًا منتظمًا، كأنها دقات قلبٍ جماعي يسير نحو امتحانه الأخير. والرجال الذين رافقوا رازين لم يكونوا جميعًا من طينةٍ واحدة؛ منهم من كان يحمل حلم الغنيمة، ومنهم من حمل فكرة الانتقام الاجتماعي، ومنهم من رأى في الأتامان قائدًا يجمع حوله ما تفرّق في صدور الناس من غضبٍ على الأمراء والجباة والمحتكرين. فالثورات لا تقوم بيدٍ واحدة، بل تتآلف فيها المصالح والآلام، وتتشابك فيها الأحقاد مع الآمال. وقد كان رازين ، بذكائه الغريزي ، يعرف أن سُخط العامة هو الحليف الخفيّ لكل رايةٍ مرفوعة على السيف.

ولمّا دنت السفن من تخوم المدينة ، أخذت تزاريتسين تظهر من بعيد مثل قلعةٍ نبتت من صخرٍ أبيض ، تُكلّلها المدافع وتحرصها العيون. بدا كل شيءٍ فيها مستعدًا للردّ ، حتى الهواء نفسه كان كأنه يتأهب لصفعة. عندها راحت الأسئلة تتناسل في عقول الرجال : كيف يمكن اقتحام حصنٍ هذا شأنه ؟ كيف يمكن لمدافع المدينة أن لا تدكّ السفن فتغرقها قبل أن تبلغ الجدران ؟ كيف لزِقاقٍ ضيقٍ بين الماء والحصن أن ينفتح فجأةً على انتصار ؟

قيل له : يا أتامان ، كيف دخلتها ؟ وكيف لم تنطلق مدافعها فتغرق كل سفنك وتبيد كل رجالِك ؟

تلفّت رازين حوله ، وكأنّه لا يريد أن يبوح بالسر إلا للريح. ثم قال : قبل أن تدخل سفني في مدى المدافع ، تسلّل عشرة رهبان في قوارب صغيرة ، من قوارب صيادي الفولغا. كانوا كالأشباح في ثياب الورع ، لا تثيرهم الأعين ولا تشكّ فيهم الحرس. أولئك الرهبان الوهميون هم الذين فتحوا لنا الأبواب وضربوا مدافع الأسوار. لقد سقطت تزاريتسين كما رأيتم ، في أقل من ساعتين.

ثم أطرق برهةً ، وفي عينيه شيءٌ من الغبطة المختلطة بالألم ، وكأنه لا يحتفل بالنصر وحده ، بل يشيّع فيه ذكرىً أخرى. قال بصوتٍ كان يحمل رجفةً خفيّة :

اليوم أخذت بثأري. اليوم تهدأ روح أخي مورين في مرقدها.

هنا انقسم الزمن في صدره إلى قسمين: زمنٍ مضى مع الدم، وزمنٍ يجيء على هيئة انتقام. كان مقتل مورين قد تركَ في نفسه ندبةً لا

تندمل، وأضحى القتل في ذهنه ليس جريمةً فقط، بل لغةً من لغات الوفاء لدمٍ قديم. ومع ذلك، فإن هذا الوفاء نفسه كان ينهشه من الداخل. فهو كلما انتقم أحسّ أن النار تنطفئ قليلًا، ثم تعود أشدّ توقدًا. وهكذا يجد الثائر نفسه أسيرًا للدائرة التي صنعها بيده: يطلب القصاص فيصير القصاص سببًا لقصاصٍ جديد. وفي هذا المعنى، كانت نفس رازين مسرحًا لصراعٍ عجيب بين العدل الشخصي والعنف التاريخي ، بين الحنين إلى الأخ وبين الرغبة في تحطيم العالم الذي قتل الإخوة.

اقترب أوتار منه ، وقال وقد خفت صوته احترامًا وهيبة : أدلّ يا أتامان، فإن الرجال ينظرون إليك كما ينظر العطاش إلى المطر.

فأجاب رازين ، وهو يبتسم ابتسامةً ممزوجةً بالاعتزاز والشرود: الدليل ليس في كلامي وحده، بل في هذا الماء الذي حملنا، وفي تلك الحجارة التي سقطت ، وفي الخوف الذي استقرّ في قلب دولغوروكي قبل أن يستقرّ في خيمته.

ثم تنفّس بعمق ، كأنّ الصدر الذي طالما ضاق بالحروب قد وجد فسحةً في لحظة النصر. لقد انتصر ، نعم، لكن انتصاره لم يكن نقيًّا من الكلفة. كان يعرف أن المدينة التي سقطت في ساعتين لا تسقط إلا لأنّ داخلها ثغرةً في الثقة، أو خيانةً في الداخل، أو تعبًا في روح الحامية ، أو حيلةً بالغة الدقة تعرف كيف تخترق الحجر عبر قلب البشر. ولهذا لم يرَ نفسه فاتحًا بالسيف وحده، بل فاتحًا بالعقل والاحتيال واستغلال اللحظة المناسبة. وكان في ذلك ما يليق بتاريخ الجنوب الروسي، حيث لا يكفي أن تملك البنادق، بل يجب أن تملك النفوس.

ولئن بدا رازين ، في ظاهر الأمر ، قاسيًا لا يلين ، فإن من يقترب من باطنه يرى رجلًا تنام فيه العاطفة على جمر. كان يعرف أنّ القائد الحقّ ليس من يصرخ بالرجال، بل من يوقظ فيهم معنى القتال. وكان يعرف أيضًا أن التاريخ لا يرحم الضعفاء، لكنه لا يرحم كذلك من يظنّ نفسه خالدًا. لذلك ظلّ يحدّق في أسوار تزاريتسين ، كأنها لم تعد جدرانًا، بل مرآةً لعصرٍ كاملٍ يوشك أن يتغيّر. هناك، بين الرصاص والدخان، وبين الصياح والماء، فهم رازين أن الإنسان لا يملك في هذا العالم إلا اسمه وصورته في عيون الذين يتبعونه. فإذا انهار الاسم، ضاع الباقي. وإذا ثبت، صار من الخشونة ما يلامس الأسطورة.

وهكذا انتهت تلك الوقعة التي بدأت بخبرٍ صغير وانتهت بزلزالٍ في الذاكرة. مدينةٌ عصيّة انكسرت ، وأميرٌ متكبّر اهتزّ مقامه ، وأتامانٌ

ثائرٌ ثبت أن الجرأة حين تتزاوج بالدهاء تُنجب من التاريخ فصلًا جديدًا. لكن الراوي، إذا أراد الإنصاف ، لم يقل إن الأمر كان نصرًا مجردًا، بل قال: كان نصرًا يحمل في طيّاته ثمنه، لأن كل حصنٍ يُفتح يفتح معه بابًا آخر من الأسئلة: إلى أي حدّ يستطيع الإنسان أن ينتقم دون أن يتحول إلى صورةٍ أخرى من عدوه؟ وإلى أي مدىً يبقى القائد سيد قراره، قبل أن يصير أسيرًا لدمٍ قديمٍ أو مجدٍ متعطّش ؟

في تلك الليلة ، حين هدأت المدافع ، ونامت الأمواج على صمتٍ مكسور ، جلس رازين وحده قليلًا ، وأصغى إلى الداخل. ولم يسمع هناك صخب الرجال، بل سمع أخاه مورين، وسمع صدى المدينة، وسمع أيضًا ذلك الصوت الخافت الذي يهمس في نفس كل قائدٍ بعد المعركة: لقد انتصرتَ اليوم، لكن ماذا ستفعل غدًا؟ عندئذٍ تمتم كمن يلقي على روحه حكمةً من حكم السهوب : ليس الشجاع من لا يخاف، بل من يعرف كيف يمشي والخوف خلفه.

وكانت تلك، على قساوتها، خلاصةَ رازين: رجلٌ صنع من الألم إرادة، ومن الانتقام مشروعًا، ومن الحيلة سيفًا، ومن التاريخ مسرحًا كبيرًا لمعاركه. وفي سيرته بقيت تزاريتسين اسمًا لا يدلّ على مدينةٍ فقط، بل على اللحظة التي انحنت فيها الأسوار أمام عقلٍ جريء، وعلى الليلة التي رأت فيها الفولغا كيف يمكن لثأرٍ قديم أن يغيّر وجه الخرائط.

في ظلال القيصر:
حين طارد رازِينُ دولغوروكي إلى أبواب موسكو

لم تكن المدينة الجديدة ، يوم دخلها رازِين ، مجرّد موضعٍ على الخريطة أو حصنٍ يستند إلى طينٍ وحجارة ، بل كانت ، في عينه ، مرآةً واسعةً تعكس صراع الروس مع أنفسهم ، وتكشف ما يختبئ تحت ثياب القيصر من خوفٍ، وتحت صرخات الحامية من وهنٍ، وتحت صمت الناس من رجاءٍ خافتٍ كالجمر تحت الرماد. كانت المدينة قد ارتجفت تحت سنابك الخيل، وانفتح قلبها المرهق على غبار الغزاة، فصار كلُّ بابٍ فيها يشبه جرحًا، وكلُّ نافذةٍ عينًا مذعورة، وكلُّ زقاقٍ رقبةً تنتظر السيف.

في تلك الليلة ، جلس رازِين في صدر القاعة التي اتخذها مقرًّا لقيادته ، وقد أطفأت الريح ما علق في المشاعل من لهبٍ واهن ، فلم يبقَ إلا ضوءٌ مضطربٌ ينساب على وجهه كأنه ظلُّ فكرٍ لا يستقر. كانت لحيته الكثيفة ، وعيناه الغائرتان، وصمته الذي يسبق العاصفة، يحيطونه بهالةٍ من الرهبة. لم يكن رازين رجلَ حربٍ فقط، بل كان رجلًا يصنع من الحرب لغةً، ومن الفزع سلطة، ومن الانتصار حجةً على التاريخ. ومع ذلك، فإن في أعماقه نيرانًا أخرى؛ نيرانًا لا ترى، نيران الشك ، والجوع إلى المجد ، والخشية من أن يخونه الزمن كما خان كثيرين قبله.

دخل أوتار، أحد رجاله الأقرب إلى قلبه ، يخطو بخفة المقاتل الذي تعلم أن يزن كلماته كما يزن طعناته. انحنى قليلًا ، ثم قال : أيها الأتامان، دولغوروكي ليس في المدينة

رفع رازِين رأسه ببطء، كأن العبارة لم تبلغ أذنه وحدها، بل بلغت جرحًا خفيًّا في كبريائه. ساد صمتٌ ثقيل، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ، ولكن فيه حدَّ السكين : كيف ؟

أجاب أوتار: فتشنا الدار دارًا، وفتنا الحامية فتًّا ، وعذّبنا قائدها حتى انهار، فقال إن دولغوروكي غادر المدينة منذ أسبوع

سأل رازِين ، وقد التمعت في عينيه شرارة مطاردةٍ لا تعرف الرحمة : «إلى أين ؟

قال أوتار: إلى موسكو يا أتامان .

تمتم رازِين بشتيمةٍ خرجت من بين أسنانه كأنها رماد نارٍ متأخرة: اللعين... أكان معه زوجته ؟

تردد أوتار لحظة، ثم قال : أجل ، كانت معه. وقد هرب من الأبواب الخلفية حين اقتحمنا نحن الأسوار

هنا، لم يظهر الغضب على وجه رازِين دفعةً واحدة ؛ بل تصاعد ببطءٍ كغيومٍ سوداء تتجمع قبل أن ينفجر الرعد. لم يكن يكره دولغوروكي لأنه خصمٌ عسكري فحسب، بل لأنه يمثل ذلك النمط الذي طالما كرهه في رجال البلاط: الرجل المرتب، المستظلُّ بقانون القيصر ، المتزيّن بسلطة الدولة ، والمتحصّن بعائلةٍ واسمٍ ونسبٍ. أما رازِين، فكان ابن الطريق، ابن النهر، ابن الريح التي لا تعترف بشجرةٍ إلا إذا قاومتها. لذلك كان يرى في هروب دولغوروكي إهانةً شخصية ، كأن الخصم أفلت من قبضته لا بوصفه رجلًا ، بل بوصفه فكرةً كان يريد أن يذبحها على مرأى من زوجته ومن العالم.

مرَّت لحظاتٌ صامتة ، ثم نهض رازِين من موضعه ، وراح يتمشى في القاعة بخطواتٍ بطيئةٍ ثقيلة. وكان في مشيته شيءٌ من أسدٍ جريحٍ لا يريد أن يُظهر جرحه، وشيءٌ من قائدٍ يحوّل خيبته إلى قرار. في الداخل، كانت عواصفه أشد من الظاهر. قال في نفسه : أهرب يا دولغوروكي ؟ أإلى موسكو ؟ أإلى صدر القيصر ؟ أتظن أن أسوارها أرحم من سيفي ؟ أتظن أن زوجتك تحميك ، أو أن اسمك يرد عنك غضبي؟ لا... إن الرجل لا يموت يوم يُقتل، بل يوم يظن أن ظله يكفيه.

كان رازِين يعرف أن المطاردة ليست دائمًا نصرًا ، وأن بعض الهاربين يربحون الوقت لا النجاة. لكنه كان ، على الرغم من خبرته، أسير نزعةٍ قديمة فيه: نزعة التحدي حتى آخر الطريق، كأن الهزيمة لا تُحتمل إلا إذا تحولت إلى درسٍ للعدو. وكان في قلبه أيضًا شيءٌ من قسوة الفلاحين حين يثوبون على أسيادهم؛ قسوةٌ تولد من قرونٍ من الانحناء ، فإذا قامت استوت نارًا. هو ابنُ هذا الغضب الروسي الملتبس ، ذاك الذي يمتزج فيه الألم بالثأر، والتدين بالخرافة، والبطولة بالوحشية.

قال أوتار بعد أن رأى الشرود في عيني قائده :

يا أتامان، لقد استولينا على المدينة. وما بقي إلا أن نحكم قبضتنا، ونُري الناس أن القوة لا تتوقف عند أسوارٍ سقطت.

توقف رازين ، وأدار وجهه إليه. كان في ملامحه شيءٌ من الصلابة وشيءٌ من التهكم ، كأنه يقول : نعم ، سقطت المدينة ، لكن المدينة الحقيقية ليست هذه الحجارة ، بل ذلك الرجل الذي فرّ ، وتلك الخريطة التي ما تزال تنتظر خطوتي التالية.

ثم جاءه أحد رجاله بخبرٍ آخر ، خبرٌ كالنار حين تنتقل من خشبٍ إلى خشب : إنه يقيم في إياك يا أتامان.

هز رازين رأسه كمن وجد الخيط الذي كان يفتشه في الظلام. ارتسمت على شفتيه ابتسامة قصيرة، لكنها لم تكن ابتسامة فرح، بل ابتسامة صيادٍ شمَّ أثر فريسته.

قال بحسم : حسنًا... سنسير إلى إياك.

ما كاد الكلام يخرج حتى تقدم أوتار ، وفي عينيه قلقٌ صادق لا يشوبه التملق. كان يعلم أن شجاعة رازين، على عظمتها، قد تنقلب إلى تهورٍ يفتح للعدو أبوابًا لم تكن مفتوحة. قال بنبرةٍ تمزج الاحترام بالخوف :أتامان ، لا أنصح بهذا. إن هذا فخٌّ ينصبه لك القيصر كي تتوغل في الأرض الروسية ، فتبتعد عن قادة عملياتك ، وتبتعد عن سندك، ثم إن إياك أمنع من عقاب الجو.

ابتسم رازين ابتسامةً واهنة ، ثم قال : وكذلك كانت تزارتسين ، وقد استولينا عليها.

قال أوتار : لكننا، يا أتامان ، لن نتمكن من الاستيلاء على إياك بالخديعة هذه المرة كما فعلنا مع تزارتسين

اقترب رازين منه حتى صار بينهما نفسٌ واحد ، وقال ببطءٍ شديد ، كأنه يسكب الكلمات سكبًا : إننا أكثر عددًا وعدة. سنفاجئها بالهجوم من كل أركانها. الخديعة قد تُفتح بها أبوابٌ مرةً ، لكن الرعب يفتحها مراتٍ لا تُحصى

ثم عاد فجلس ، وأسند مرفقه إلى ركبةٍ مثنية ، وراح يتأمل خريطةً مبسوطة أمامه. كانت خطوطها بالنسبة إليه ليست مجرد أنهار وطرق ، بل عروقًا في جسدٍ ضخمٍ اسمه روسيا ، وهو اليوم يريد أن يعرف أين يضغط ليتدفق الألم. ولم يكن النصر عنده مجرد اقتحام مدينة ،

بل أن يجعل القيصر نفسه يسمع صدى الهزيمة في قصره. هنا، انفتحت في ذهنه صورةٌ أخرى: صورة موسكو، وهي ترتجف من اسمه، وصورة دولغوروكي وزوجته ، وهما يستمعان إلى وقع ملاحقتهما كأنه دقُّ نعش.

في تلك اللحظة ، طلب رازِين أن يُستدعى أوتار ثانية. دخل الأخير ، فوجد القائد وقد سكن جسده لكن لم يسكن عقله. قال رازِين : سنراسل السلطان ، ليحرّك جيشه من الناحية الغربية نحو إياك.

تساءل أوتار : أي السلطان ؟

قال رازِين ، وقد عاد إليه بريق الحساب : ذاك الذي يعرف أن الحرب لا تُحسم بيدٍ واحدة. إن الوقت مناسب لوضع المعاهدة بيني وبينه موضع التنفيذ. اذهب إليه بنفسك يا أوتار

انحنى أوتار احترامًا ، لكنه لم يخفِ دهشته. لقد كان يعرف أن القادة ، في لحظة القوة، يُحسنون الجمع بين السيف والرسالة، بين الخنجر والورقة. غير أن رازِين لم يكن يسلك السياسة كملوك البلاط ، بل كذئبٍ يعرف أن الفريسة الكبيرة تحتاج أكثر من نابٍ واحد. كان يفاوض حين يفاوض ، ويهدد حين يهدد ، ويمدّ يده كما لو أنه يصافح ، لكنه لا ينسى أن يترك في راحته أثر قبضة.

خرج أوتار ، وبقي رازِين وحده قليلًا. هنا، بدأ الحوار الحقيقي داخل صدره؛ ذاك الحوار الذي لا يسمعه أحد، ولكنه يكوّن ملامح القرار.

دولغوروكي هرب مع زوجته. إذن فهو لم يهرب وحده ؛ هرب مع خوفه وشرفه وبيته. أما أنا فلا بيت لي إلا المعركة. كل رجلٍ يحتمي بما يملك ، وأنا لا أملك إلا ما أستطيع أخذه. هل هذا عدل؟ لست أدري. هل هذا قدر ؟ لعلّه كذلك. إن الحكم يُكتب أحيانًا بيد المنتصر، لكن الذاكرة تكتبه بيد الضحية. وأنا، أيًّا كانت الأيام، لن أكون ضحية إلا إذا صمتُّ.

ومع هذا التدفق الداخلي ، كان في نفسه شيءٌ آخر ، شيءٌ أرقُّ من حدّ السيف وأشد إيلامًا: إحساسٌ بأنه كلما ارتفع، اقترب من السقوط. كان يعرف أن التاريخ لا يرحم القادة الذين يثقون كثيرًا بظلالهم. ولذا كان يتلفت، في داخله، كمن يسمع خطوات قدره خلف الباب. ولم يكن يجهل أن زوجة دولغوروكي ليست مجرد امرأةٍ في مطاردةٍ عسكرية ؛ إنها رمزٌ آخر من رموز العالم الذي يريد أن يصطاده : عالم البيت ،

والاستقرار، والاسم المحفور في السجلات. أما هو، فكان محرومًا من كل ذلك، أو متظاهرًا بأنه محروم حتى لا يضعف.

وهكذا انقضت ساعات الليل، والقمر ينسكب على السطوح البعيدة كصفحةٍ من فضةٍ باردة.

وفي الخارج ، كانت المدينة الجديدة تحاول أن تتعلم كيف تعيش تحت سلطةٍ لا تشبه ما اعتادته. بعض الناس أغلقوا الأبواب بالدعاء، وبعضهم بالدمع، وبعضهم باللعنات، وبعضهم بالمراوغة. وكان رازين يعلم أن المدن لا تُهزم بالكامل يوم تُحتل ، بل يوم تُقنع نفسها أن المقاومة صارت عبثًا. لذلك كان يصرّ على أن يُبقي الرعب حيًّا في الهواء، لأن الرعب في عرفه جنديٌّ لا ينام.

وفي فجر اليوم التالي ، وقف على عتبة المقر، وحدق في الضباب الذي يهبط على السهول. قال أحد رجاله : أيها الأتامان، إن الطريق إلى إياك طويل.

أجاب رازين، وقد شبك يديه خلف ظهره : الطريق الطويل هو ما يجعل الرجال رجالًا. القصير يليق بالتجار ، أما نحن فإلى المعنى نسير لا إلى المسافة.

ثم أضاف، كأنما يحدث نفسه ويحدثهم معًا : من أراد المجد فليدفع ثمنه. ومن أراد أن يدوّن اسمه في ذاكرة الروس ، فلينزل إلى المكان الذي لا يجرؤ غيره على الوصول إليه.

عندها، علت في ذهنه أبياتٌ كان يسمعها منذ صباه ، فتمتم بها كمن يستنجد بالحكمة القديمة :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

ثم قال بعدها ، وقد ارتسم على وجهه أثرٌ من سخرية القدر: لكن النجوم أحيانًا لا تُنال إلا إذا احترقت الأيدي.

وتذكَّر مثلًا روسيًا كان قد سمعه ذات يوم من شيخ في قريةٍ نائية : أن النهر لا يخشى الموجة ، بل يخشى أن يتوقف عن الجريان. فابتسم في سره ، وقال : أنا النهر ، ولو جففتني الحرب، فسيبقى في الطين أثر مجراي.

وفي الطرف الآخر من المشهد ، كان دولغوروكي يواصل فراره إلى موسكو ، لا بوصفه هاربًا فقط ، بل بوصفه رجلًا يشعر بأن المدينة

التي خلفه لم تعد مدينةً له، وأن زوجته، وهي تشاركه الهرب، لم تعد مجرد زوجةٍ في المعنى البارد للكلمة؛ بل أصبحت شاهدًا على انكسار طبقة، وارتباك سلطة، وتصدع عالمٍ قديم. أمّا رازين، فكان يرى ذلك كله ولا يراه، لأن عينه كانت معلقةً بالخطوة التالية. وكان يعلم أن التاريخ لا يكتب لمنتصف الطريق، بل للذي يغامر حتى النهاية، سواء أكان بطلاً أم طاغية، سواء أكان محررًا أم كارثة.

ومن هنا تتبدّى حقيقةُ رازين : رجلٌ ولد من رحم الفوضى ، فعاش لها ، وحاول أن يصنع منها نظامًا خاصًا به. كان يحكم بالعنف أحيانًا ، لكنه كان يفعل ذلك وهو يظن أن العنف هو اللغة الوحيدة التي يفهمها العصر. وكان ، في قرارة نفسه ، يتوق إلى أن يُنصفه الزمن ، لكن الزمن لا ينصف أحدًا؛ الزمن فقط يسجّل. أما الإنصاف، فيأتي متأخرًا، إذا جاء.

وهكذا ، بين مدينةٍ سقطت ، ورجلٍ فرّ، وزوجةٍ نجت ، وأتامانٍ يرفع راية المطاردة ، كانت الحكاية تمضي نحو فصلٍ جديد. فصلٌ لا تُحسم فيه الأمور بالسيف وحده، بل بالمهابة، والحيلة، والتوازن الدقيق بين طموح القائد ومصير الجماعة. وكان رازين يعرف، كما يعرف الموج طريقه إلى الشاطئ، أن الخطوة نحو إياك ليست مجرد حملةٍ عسكرية، بل امتحانٌ آخر لروحه: هل يبقى سيّدًا للعاصفة، أم يصبح واحدًا من ضحاياها ؟

ولم يجب الزمن. لكنه كان قد بدأ يكتب.

حين خانت الوعودُ السيوفَ
بين دهاء السلطان وحيلة رازين

لم يكن التاريخ يوماً دفترًا بريئًا تُدوَّن على صفحاته الوقائع كما جرت، بل كان مرآةً تعكس أطماع البشر، ومسرحًا تتصارع فوق خشبته النفوس قبل أن تتصادم الجيوش. وما أكثر الملوك الذين أقسموا بالوفاء، ثم جعلوا من العهد جسراً يعبرون عليه إلى مصالحهم، فإذا انتهت الحاجة، انكسر الجسر وسقطت الوعود في هاوية النسيان.

وقد صدق الحكيم العربي حين قال :

ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمًّا عليه ويندمِ.

وكان السلطان العثماني واحدًا من أولئك الذين يتقنون صناعة الموازنة بين السيف والسياسة. لم يكن يريد لرازين أن يُهزم، لكنه لم يكن يرغب كذلك أن ينتصر انتصارًا كاملاً. فقد كان يرى في الرجل نارًا يصعب إخمادها إن اشتعلت، وخطرًا قد يتجاوز حدود روسيا ليطرق أبواب أملاكه الشرقية. كان يخشى أن يتحول ذلك القائد الجسور، إذا فرغ من أعدائه، إلى إعصار جديد يقتلع ما بقي من نفوذ الدولة العثمانية في تلك الأصقاع البعيدة.

وهكذا ظل وعده بالمساندة معلقًا بين الأرض والسماء؛ لا هو أوفى به، ولا هو أعلن تراجعه عنه.

وفي الخفاء، كانت عيون السلطان تتحرك بصمت. رجال لا يعرفهم أحد، يلبسون وجوهًا شتى، ويتحدثون بألسنة الشعوب المختلفة، يتسللون إلى الأسواق والخانات، ويجلسون حول النيران مع الجنود والرعاة، ثم يحملون أخبار رازين إلى إسطنبول كما يحمل النحل رحيقه إلى الخلية.

وكانت تقاريرهم تتوالى تباعًا. قال أحد الجواسيس وهو ينحني أمام السلطان : يا مولاي... إن رازين لا يتحدث عن فتح المدن بقدر ما يتحدث عن الثأر. إن قلبه ما زال معلقًا بدم أخيه، ولا يرى أمامه إلا

الأمير دولوجوروكي وزوجته. يظن الناس أنه يقاتل من أجل قضية كبرى، أما نحن فقد علمنا أنه يطارد شبحًا يسكن ذاكرته.

وأضاف جاسوس آخر : وقد سمعناه أكثر من مرة ينكر ما يُقال عن إسلامه أو أصله الشركسي، بل زعم أمام بعض خاصته أن أباه كان من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، وأنه تربى بين تراتيل الأديرة قبل أن تربيه أصوات البنادق.

ساد الصمت في القاعة.

لم يعلّق السلطان طويلًا، لكنه أطرق برأسه، كأن تلك الكلمات أكدت ما كان يخشاه منذ البداية.

قال في نفسه : الرجل الذي تحركه الذكريات أخطر من الرجل الذي تحركه المطامع. فالطامع يشبع، أما صاحب الثأر فلا يشبع حتى يدفن آخر خصومه.

+

أما رازين، فلم يكن ساذجًا حتى تخفى عليه ألاعيب السياسة. كان يعرف أن السلطان يناوره، ويعرف أن كل رسالة تأخرت لم تكن بسبب وعورة الطرق، بل بسبب حسابات القصور.

وفي أعماقه دار حديث طويل لم يسمعه أحد. إذن... لم أكن إلا حجرًا آخر على رقعة شطرنجهم. كنت أعلم أنهم يخشون الروس، لكنهم يخشونني أكثر.

ما أغرب الملوك... يبتسمون لك حين تحتاج إليهم، ثم يحسبون أنفاسك إذا اشتد ساعدك.

رفع رأسه نحو السماء الملبدة بالغيوم.

لا بأس... لقد ولدت قبل أن أعرف سلطانًا، وسأنتصر إن شاء الله دون أن أحتاج إلى عرشه.

ثم تذكر أخاه. ذلك الوجه الذي لم تغادره صورته قط. رآه كما كان في آخر لقاء، يضحك بثقة الشباب، ثم غاب بين سحب الدم والدخان. شعر بوخزة تمزق صدره. لن يهدأ هذا القلب حتى أقف أمام دولوجوروكي. لن أقتله غضبًا... بل سأقتله عدلًا.

+

كان الليل قد أرخى سدوله على السهوب الواسعة، والريح تعزف بين الأعشاب اليابسة لحنًا يشبه رثاء الجنود الذين ابتلعتهم الحروب.

وفي تلك الليلة ، اتخذ رازين قرارًا لم يخطر ببال أحد.

خلع ثياب القائد، وارتدى ملابس راعٍ مغولي بسيط ، خشنة الصوف ، مغبرة الأطراف ، ووضع على كتفيه عباءة قديمة ، وأمسك بعصا طويلة ، ثم ساق أمامه قطيعًا صغيرًا من الأغنام. لم يعد يشبه الرجل الذي دوّخت انتصاراته الجيوش. صار مجرد راعٍ أنهكته الحياة.

اقترب من أسوار المدينة ببطء، يتظاهر باللامبالاة، بينما كانت عيناه تعملان كعينَي صقر. أحصى الأبراج. عدّ الحراس. راقب تبديل النوبات. تأمل فتحات المدافع. لاحظ أماكن الظل التي يغفل عنها الجنود. وتوقف طويلًا عند البوابة الشمالية.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

لكل حصن باب... ولكل باب مفتاح. عاد قبل طلوع الفجر، يحمل في ذاكرته خريطة أدق من كل الخرائط.

+

وفي المعسكر ، كان أوتار ينتظره بقلق ظاهر. وما إن رآه حتى أسرع نحوه.

قال وهو يخفض صوته : — وصلتني أخبار جديدة يا أتامان... السلطان لم يرسل إلا كلمات، أما الرجال فلم يرسل منهم أحدًا.

ساد الصمت.

جلس رازين قرب النار ، يحدق في الجمر المتقد.

ثم قال بهدوء : حتى لو جاءنا السلطان بكل جيوشه، فلن نستطيع اقتحام المدينة بالقوة.

اتسعت عينا أوتار. ولأول مرة منذ أيام ، شعر بشيء من الارتياح.

قال مبتسمً ا: إذن فقد عدلت عن الفكرة؟

نعم... لقد أدركت أن الأسوار أقوى من أن تكسرها السيوف.

تنفس أوتار الصعداء.

ثم قال : هذا هو الرأي الحكيم يا أتامان. فلندع الأمير دولوجوروكي وزوجته لعدالة السماء. ربما يأتي يوم يقتص الله فيه منهما دون أن نخسر رجالنا.

رفع رازين رأسه ببطء. وكانت في عينيه تلك النظرة التي يعرفها كل من قاتل معه ؛ النظرة التي تسبق أخطر قراراته.

قال بصوت هادئ ، لكنه حاسم كحد السيف : ومن قال إنني أفكر في الانسحاب ؟

تجمدت ابتسامة أوتار.

ماذا تعني ؟

اقترب رازين من النار ، وأخذ يرسم بطرف خنجره خطوطًا فوق التراب.

إن المدينة تنام مطمئنة. لم يشعر أهلها بعد بوجودنا خلف هذه التلال. الحراس يراقبون الطرق الكبرى ، ولا يخطر ببالهم أن الخطر يزحف إليهم من حيث يظنون السكون.

رفع رأسه، ثم أكمل : القوة لن تفتح هذه الأبواب... لكن الحيلة قد تجعلهم يفتحونها بأيديهم.

ساد صمت ثقيل.

كان الرجال ينظرون إلى قائدهم ، وكأنهم يرونه للمرة الأولى.

أما أوتار، فقد شعر بقشعريرة تسري في جسده.

قال هامسًا : أي حيلة تدور في ذهنك ؟

ابتسم رازين ابتسامة غامضة. ثم أنشد بصوت خفيض :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبًا فما حيلة المضطر إلا ركوبها.

ثم أردف وهو يحدق في أسوار المدينة البعيدة التي كانت تلمع تحت ضوء القمر : غدًا... لن نهاجم المدينة.

توقف قليلًا.

ثم قال بصوت يكاد يكون همسًا : بل سنجعل المدينة هي التي تستقبلنا بنفسها.

حيلةُ الرهبان

في الصباح الذي انفتحت فيه المدينة على نورٍ شاحبٍ لطيف ، كان الضباب لا يزال عالقًا بأطراف الأبراج ، كأن الليل لم يقتنع بعد بالرحيل ، وكأن الشمس نفسها كانت تتقدم بحذر ، تضع قدمًا وتؤخر أخرى، تتلفت إلى الأسوار العالية التي طالما حفظت للمدينة هيبتها ، وحفظت في الوقت نفسه قلقها القديم. هناك ، عند الباب العظيم ، وقف الحراس متحفزين ، وقد اعتادوا في تلك الأيام أن يروا في كل غريبٍ احتمالَ خيانة ، وفي كل صرخةٍ إنذارًا ، وفي كل خطوةٍ مقبلةٍ بوابةً لفتنة لا تُعرف عاقبتها إلا بعد فوات الأوان.

كانت المدينة يومئذٍ تعيش تحت ظل سياسةٍ لا تعرف الرخاء إلا بقدر ما تعرف الحذر ، وتتنفس بقدر ما تسمح به السيوف. لم تكن أخبار الحرب بعيدة ، ولا همسات البلاط هادئة ، ولا الناس في الأسواق مطمئنين إلى غدهم. ومع ذلك، فإن صباحًا واحدًا قد يحمل في طياته ما لا تحمله شهورٌ من الرتابة. وهذا الصباح حمل معه أربعة رجالٍ ظهروا من بعيد ، كأنهم خرجوا من أحشاء الأسطورة لا من طريقٍ ترابيٍّ يفضي إلى المدينة.

رآهم الحارس الأول قبل غيره ، فقبض على رمحه ، ثم ضيق عينيه ، وأمال رأسه متفحصًا. كانوا أربعة رهبان ، ولكنهم لم يشبهوا الرهبان الذين اعتاد الناس رؤيتهم في ساحات الكنائس أو على عتبات الأديرة. ثيابهم ممزقة ، قد رُقعت مرارًا حتى غدت الرقع أكثر من القماش ، وأقدامهم حافية تلامس الأرض الباردة بلا شكوى ، ورؤوسهم مكشوفة ، وقد علت وجوههم مسحة تعبٍ عميق ، لا تعب سفرٍ فقط ، بل تعب الروح حين تطيل المسير في أرضٍ قاسية. وكان كل واحدٍ منهم يعتمد على عصا من غصن شجرة، ملتويةٍ كأنها شهدت ما شهدوه من جوعٍ وليلٍ وبرد ، وعلى صدورهم أحبال غليظة عُلقت بها صلبان خشبية كبيرة ، خشناً لونها، ثقيلة المعنى، فبدت لهم كالوزر المقدس الذي يحملونه كما يحمل المؤمن خطيئته ورجاءه معًا.

صاح الحرس بصوتٍ جافٍّ فيه شيء من التوتر وشيء من الزجر :

أيها الرهبان، ابتعدوا عن الأبواب. سنطلق النار على كل من يقترب من الأسوار.

توقف الأربعة ، ولكنهم لم يتراجعوا. كانت لهم وقفة من يعرف أن الخطر ليس جديدًا عليه ، وأن الرصاصة ، وإن كانت سريعة ، لا تسبق دائمًا الفكرة. نظر أحدهم إلى رفاقه نظرة خاطفة ، ثم تقدم خطوة. كان هذا هو رازين ، أتمُّهم هيبةً وأشدُّهم ثباتًا ، عيناه غائرتان وفيهما بريق غير مألوف، كأنهما تحملان نارًا هادئة لا تصرخ ولكنها لا تنطفئ. بدا في وجهه شيء من العافية المكسورة؛ وجه رجلٍ أكلته الأسفار، لكنه لم يفقد قدرته على الإقناع ، ولا لسانه على الصياغة، ولا ذهنه على تحويل الخوف إلى يقين.

رفع رازين رأسه، وخاطب الحراس بصوتٍ وديعٍ من جهة، نافذٍ من جهةٍ أخرى، كأن العذوبة فيه قشرةٌ رقيقة تغطي صلابةً أعمق :

أيها الرجال الطيبون ، أبهكذا علَّمكم راعي كنيستكم ؟ أأن تطردوا رهبان الرب عن أبواب الرب ؟ إننا لا نطلب من دنياكم مالًا، ولا نبتغي من مدينتكم جاهًا ، ولا نمد أيدينا إلى خبز أحد. جئنا نطلب الصلاة ، ونلتمس أن نرفع أكفنا إلى السماء في بيتٍ جعلته السماء مأوى لاسمها. إنما نريد عبادة الرب ، وتبجيله ، وتقديس اسمه في كنيسة المدينة.

كان كلامه من النوع الذي لا يُقال ليُصدَّق وحده، بل ليخلخل يقين السامع أولًا. وقد أدرك الحراس هذا المعنى ، فازدادوا صرامة. فليس أخطر على الجندي من خطابٍ يبدو بريئًا في لفظه ، وهو يحمل في باطنه غرضًا قد يهدم اليقظة.

قال أحدهم، وهو أكثرهم خشونةً وأقلهم صبرًا : الكنائس كثيرة ، فاذهبوا إلى مدينة أخرى. اهبطوا إلى كنيسة قرية سالنكا، ليس بينها وبين مدينتنا إلا فرسخان.

انفرجت شفتا رازين عن ابتسامة صغيرة ، تكاد لا تُرى ، لكنها كانت كفيلة بأن تفضح في لحظةٍ واحدة أنه لم يأتِ إلى هذا الباب بلا خطة. لقد ألقى الحارس باسم القرية ، كأنما يفتح له بابًا من حيث لا يدري. هكذا كثيرًا ما تتسع الفجوة الصغيرة في الكلام لتصبح ممرًا يدخل منه الذكاء.

قال رازين، وقد شدّ صوته قليلًا حتى يسمعه الجميع : ليس هكذا قالت لنا البشارة.

سأله رئيس الحرس ، وقد أثارت عبارته شيئًا من الريب في صدره : بشارة ؟ أيُّ بشارة ؟

وهنا تغير وجه الراهب تغيرًا دقيقًا لا يلاحظه إلا من تمرَّس بقراءة البشر؛ فقد انحنت فيه الملامح انحناءة رجل يضع سرًّا كبيرًا بين كفيه، لا ليخفيه فحسب، بل ليقنع الآخرين بأنه لا يُقال إلا في مقامه. قال :

الرؤيا التي رأيناها نحن الأربعة ، وهي رؤيا تبشر روسيا كلها بمولد ولي العهد الذي ينتظره الروس جميعًا. لقد جئنا من أقاصي سيبريا ، من الثلج الذي يبتلع الأثر ، ومن السكون الذي لا يسمع فيه المرء إلا صوته الداخلي ، نمشي بأمرٍ رأيناه في المنام وكأن السماء قد ختمت عليه. كانت الرؤيا واضحة، عظيمة ، مهيبة : نورٌ يخرج من كنيسة المدينة، وصوتٌ يقول لنا إن الصلاة هنا هي التي تُتمُّ الإشارة، وإن القدر لا يُقرأ إلا حيث وُضع على الأرض علامةً لا يراها إلا من أخلص النظر.

سكت الحراس لحظة ، وبعضهم تبادل نظراتٍ حذرة. أما رازين ، فكان يراقب أثر كل كلمةٍ كما يراقب الصياد ارتعاش الشَرك حين تلمسه الطريدة. لقد عرف أن الطريق إلى القلوب المضطربة ليس الخطابة وحدها، بل المزج بين الغيب والمصلحة، بين القداسة والمنفعة، بين ما يُقال في السماء وما يُفهم في الأرض. ومن ذا الذي لا يرتجف أمام ذكر مولد ولي عهدٍ تُعلَّق عليه الآمال ؟ ومن ذا الذي لا يخاف أن يُتهم بتأخير ما كتبته العناية ؟

قال رئيس الحرس، وهو يحاول أن يبقى متصلبًا : ومن يشهد لكم بأن ما تقولونه حق ؟

أجاب رازين في هدوء : الشهود أربعة ، ونحن أربعة. وأشد الشهود صدقًا حين يكونون متفقين على الخوف والرجاء معًا. ثم إن البشارة لا تحتاج إلى تصديق البشر أولًا، بل إلى أن يُفسح لها الطريق، فإذا جاء التأويل جاء البرهان بعده.

هنا اضطربت نفس رئيس الحرس. فقد كان رجلًا جُبل على الطاعة ، لكن الطاعة نفسها علمته أن يتوجس من كل أمرٍ يأتي ممهورًا باسم القدر. وبين الخوف من مخالفة الأمر والخوف من تمرير مكيدة ، وجد نفسه واقفًا على حد السكين. وفي داخله بدأ صوتان يتنازعان: صوتٌ يقول إن الرهبان ربما كانوا كاذبين ماكرين، وصوتٌ آخر يقول: وماذا لو كانوا صادقين ؟ أيمكن لجندي أن يقف في وجه رؤيا ، ولو

ادعى العقل أنها محض حيلة ؟ ثم ما قيمة الصرامة إذا أفسدت احتمالا قد يستدعي غضب البلاط ؟

كان الحراس من حوله يتطلعون إليه. بعضهم يريد أن يغلق الباب فورًا، وبعضهم بدأ يلين أمام تلك القصة ، لأن البشر ، حين يسمعون أن وراء الطلب إرادة عليا، تخف قسوة قلوبهم ولو إلى حين. فالسماء، في نظر العامة، أمضى من القوانين، وأشد هيبة من البنادق.

في تلك اللحظة ، علت من داخل رازين حركة نفسية عميقة ؛ إذ لم يكن يتكلم للجنود وحدهم، بل كان يتكلم إلى خوفهم الجمعي. لقد أدرك منذ زمنٍ أن الجماعة لا تُقنع بالحجة المنطقية فحسب، بل بفتح الباب للحرج الأخلاقي، ثم تركه يتسع وحده. وهكذا جعلهم بين أمرين كلاهما ثقيل: إن صدقوه، فرفضهم جريمة في حق النبأ ؛ وإن كذبوه، فالاحتياط يقتضي ألا يردوا احتمالًا يحمل اسم العناية.

قال الحارس الأكبر سنًا، بصوت خافت : لعلنا نرفع الأمر إلى الأمير.

تبادل الراهبان خلف رازين نظرةً سريعة. كان أحدهما ، أصلدهم صمتًا، يضغط على عصاه حتى ابيضت مفاصله ، والآخر يسبح في ثيابه الممزقة كأن البرد لا يؤذيه ما دامت الخطة تمضي. أما رازين فظل ثابتًا، كأنه الرجل الذي يرى النهر يسير إلى المصب، فلا يعجله ذلك، بل يزيده ثقةً في التيار.

قال في رقة محسوبة : افعلوا ما ترونه صوابًا، فنحن لا نطلب إلا الطريق إلى الصلاة.

غير أني أقول لكم قولًا واحدًا : لو أبطأتم هذا الأمر ، أو جعلتموه يقف على عتبة الشك طويلاً ، فقد لا تتحقق البشارة على الوجه الذي رأيناه. هكذا قالت لنا الملائكة في الرؤيا ، وهكذا فهمنا أن التردد نفسه قد يكون عائقًا أمام ما كُتب له أن يتم.

كانت الجملة الأخيرة أشد وقعًا من الأولى ، لأنها لم تهددهم تهديدًا مباشرًا ، بل جعلت التردد عدوًا خفيًّا. وهذا ما كان رازين يجيده: أن يحول كل اعتراضٍ إلى عقبة أمام أمر سماوي، وكل تأخيرٍ إلى ذنبٍ محتمل. وما أسهل أن يرتجف رجلٌ يحرس بابًا حين يُقال له إن يده قد تعطل مشيئةً لا يعرفها.

في داخل رئيس الحرس ، أخذت الذكريات تتدافع. تذكر أمًا عجوزًا كانت تؤمن أن بعض الأمور إذا ذُكر فيها اسم القدر صار من العار ردها. تذكر حكايات الناس عن رجالٍ طردوا متعبدين ثم ندموا حين أصابتهم مصيبة. تذكر أيضًا التقارير القادمة من البلاط، وكيف أن كل كلمة تُرفع هناك تُقرأ بعدساتٍ كثيرة، وكيف قد يفسَّر المنع على أنه تحدٍّ لرمزٍ عظيم. ومع ذلك بقي في قلبه شيء من الحذر القاسي، كحصاة لا تذوب.

قال أخيرًا : ابقوا هنا حتى أستأذن. لكن إن كان في كلامكم مكيدة، فلن يرحمكم القانون.

ابتسم رازين ابتسامة خفيفة ، و قال : القانون ابنُ النية، يا سيدي. من طلب وجه الرب لا يخشى أن يُفحص .ومن جدّ وجد، ومن زرع حصد، هكذا يقول الحكماء، ونحن لم نزرع إلا التعب والرجاء.

ثم انحنى انحناءة صغيرة، ليست انحناءة ذلّ بل انحناءة من يعرف كيف يجعل التواضع جزءًا من خطة النجاة. ولمّا ابتعد الحراس قليلًا للتشاور، التفت أحد الرهبان إلى رازين وهمس :

أأتظنهم سيصدقون ؟

أجاب رازين وهو لا يزال ينظر إلى الباب العالي : لا يهم أن يصدقوا من البداية. المهم أن يشعروا أن في الرفض مغامرةً أكبر من القبول .الناس يا أخي لا يقودهم المنطق دائمًا، بل ما يظنونه أثقل على ضمائرهم. إذا خُيّر المرء بين أن يكون حذرًا وبين أن يكون عائقًا للقدر، اختار الثاني أقلَّ ما يكون. وهكذا تُبنى الحيلة، لا على الكذب وحده، بل على معرفة ما يخشاه القلب.

قال الراهب الآخر : ولكن إن انكشف أمرنا ؟

رد رازين ببطء، وقد اتخذت عيناه صلابةً أعمق : لكل حيلةٍ ظلّ ، ولكل ظلّ آخرُ ينتظره. نحن لا نراهن على الجهل وحده، بل على لحظة التردد. ثم إن التاريخ، يا أخي، لا يكتب فقط بما وقع، بل بما ظنه الناس أنه قد يقع. ومن أحسن اللعب على حافة الظن، ملك مفتاح الأبواب.

ومضى الصمتُ بين الأربعة كأنه قنديلٌ معلق في هواء الصباح. كانت المدينة أمامهم كائنًا حيًا ذا جفونٍ ثقيلة ، يحرسها الحجر، وتحرسها أوهام الناس ، وتحرثها الأخبار القادمة من البلاط والأديرة والأسواق. و

هناك، خلف الحائط ، كانت حياةٌ كاملة تتأرجح بين الخوف والرجاء ، بين السياسة والقداسة ، بين ما يقال وما يُخفيه الصدر.

وراح رازين يتأمل السور كمن يتأمل خصمًا يعرفه جيدًا. لم يرَ فيه مجرد حجارةٍ صلبة، بل رأى فيه صورة المجتمع كله: علوٌّ في الظاهر، وخشيةٌ في الداخل، وقلقٌ يلبس ثوب النظام. وقال في نفسه، في ذلك الحوار الداخلي الذي لا يسمعه أحد : كم من أبوابٍ فُتحت لا بالقوة ، بل بالمعنى ؟ وكم من حصنٍ انهار لأن أصحابه خافوا أن يكونوا أول من يكذّب النبأ ؟

ثم تذكر أيام الثلج البعيد، حين بدأ كل شيءٍ بفكرةٍ صغيرة تشبه الخيط، ثم صارت الخيوط شبكة، وصارت الشبكة قدرًا. وتذكر الوجوه التي تركها وراءه، والوعود التي لم يعد بها أحد ، والليالي التي كان فيها يتساءل : أأنا رجل إيمان أم رجل حيلة ؟ ثم كان يرد على نفسه : وما الإيمان في عالمٍ تخلط فيه السياسة بين السماء والأرض إلا قدرةً على أن تقرأ الشقوق التي تدخل منها الريح ؟

قال في نفسه، كأنه يرفع لنفسه حجةً ضد الوهن : إن النجاة لا تكون دائمًا بالاستقامة المجردة ، بل بمعرفة الطريق الذي يفهمه الناس. ومن لم يفهم مفاتيح النفوس، ضلَّ عن مفاتيح الأبواب.

اقترب منه أحد الرهبان وسأله بصوتٍ منخفض : ألم تخف ؟

أجاب رازين من غير أن يلتفت :

الخوف موجود ، لكنه ليس السيد. أنا أخاف أن أفشل ، نعم. وأخاف أن يكتشفوا الحيلة ، نعم. لكنني أخاف أكثر من أن نخسر هذه اللحظة ، وهي تمضي ثم لا تعود .إن المرء إذا وقف طويلًا عند بابٍ واحد، ضاعت عليه أبوابٌ كثيرة.

عادت مجموعة الحرس بعد قليل. وكان رئيسهم أكثر هدوءًا، أو أكثر استسلامًا، لا فرق. قال : سوف يُرفع أمركم إلى الأمير. وحتى ذلك الحين، لا تتجاوزوا المكان.

انحنى رازين مرة أخرى، وقال :

حسنًا .فما من بشارةٍ إلا ولها انتظار، وما من انتظارٍ إلا وله ثمن. لكن تذكروا، يا رجال، أن الصبر مفتاح الفرج ، وأن من استعجل الثمرة قبل أوانها أكلها مرّة.

ثم أخذ الرهبان الأربعة يقفون في طرفٍ من الطريق، كأشباحٍ لا يُدرى أهي حقًا رهبانية أم هي صنعة ذهنية أتقنها رجلٌ فطن. وكان الصباح من حولهم يمضي ببطء، والهواء يبرد قليلًا، لكن في قلب رازين كان شيء آخر يشتعل. لم يكن اشتعال فرحٍ خالص، بل اشتعال ذهنٍ نجح في أولى حلقاته. وراح يفكر في الأمير، وفي الكلمات التي ستصل إليه، وفي الطريق الذي ستأخذه القصة حين تنتقل من فم الحارس إلى أذن السلطة.

لقد عرف منذ البداية أن الحكاية ليست مجرد عبور أربعة رجال إلى كنيسة. إنها امتحانٌ لعقل المدينة: أهو عقلٌ يثق في السيف وحده، أم عقلٌ يمكن أن تروَّضه الحكاية حتى يفتح الباب؟ وكانت هذه هي حيلة الرهبان: أن يأتوا في لباسٍ يوقظ الشفقة، وفي خطابٍ يوقظ المهابة، وفي خبرٍ يوقظ الطمع السياسي، حتى ينهزم الشك أمام الثلاثة معًا.

وهكذا ، في ذلك الصباح المشرق الذي بدا في ظاهره عاديًا، بدأت الحيلة عملها العميق. لم تكن ضربةً واحدة، بل خيطًا خفيًا يشدّ النفوس قبل أن يشدّ الأبواب. وكان رازين ، بعقله المتوقد وروحه المتوترة، يعرف أن التاريخ كثيرًا ما يتغير لا في ساحات القتال وحدها، بل في لحظةٍ يقف فيها حارسٌ أمام بابٍ ويقول في نفسه: أأغلقه خوفًا من الكذب، أم أفتحه خوفًا من أن أكون أنا العائق أمام القدر ؟

وهنا بالتحديد، بين السؤالين ، تولد الحكاية. وهنا بالتحديد، تنحني السلطة قليلًا أمام ظلّ الحيلة. وهنا بالتحديد، كان الرهبان الأربعة قد انتصروا قبل أن يدخلوا.

حين انكسرت الأبواب وارتجفت موسكو
ليلة انتصار رازين ومرآة الكبرياء والمهانة

لم تكن تلك الليلة من ليالي التاريخ العادية ، بل كانت ليلةً كأنها خرجت من جوف الأسطورة ، تحمل في طياتها رائحة الحديد، وصرير الخيول، وارتجاف القلوب في ممرات السلطة. في العتمة التي تسللت على أسوار موسكو، كانت الريح تصفر بين الأبراج كأنها تنبئ بشيءٍ أكبر من معركة، وأشد من اقتحام، وأعمق من انتقام. كان كل شيء يوحي بأن المدينة العتيقة، بما حملته من عظمة القياصرة وذلّ الناس، تقف على حافة التحول، وأن الباب الذي سيُفتح بعد قليل لن يكون بابًا خشبيًا فحسب ، بل بابًا إلى صفحة جديدة من الدم والذاكرة.

جاء الرجال في صمتٍ مدروس ، وقد تنكّروا في هيئة وادعة لا تُثير الشك ، حتى إذا وقفوا عند الباب ، بدت هيئاتهم كأنها من أهل الطاعة والخدمة. وكان قائد الأبواب، ذلك الرجل الساذج الذي لم يعرف كيف يقرأ ما وراء العيون، قد صدّق وجوههم أو تظاهر بالتصديق ، لأن الخديعة إذا وجدت قلبًا غافلًا، اتخذت منه سلمًا إلى الجريمة. وما إن أدار المفتاح، وانفرج المصراع الثقيل، حتى خرجت السيوف من تحت الثياب كالأفاعي السود، لا تلمع إلا لتلدغ، ولا ترتفع إلا لتقطع الطريق بين الحياة والموت. في لحظة واحدة تبدّل الهواء، وصارت العتبة التي كانت تستقبل الداخلين ممرًا للقتل، وسقط الحراس صرعى كأوراق الخريف، لا تسمع لهم إلا همهمة أخيرة، ثم سكونٌ يليق بالأجساد حين تخرج منها الروح وتبقى المرارة في المكان.

أما رازين، فكان في صدر الموكب كأنه قدرٌ يمشي على قدمين. لم يكن رجلاً عاديًا في أعين أتباعه، بل كان ناريًا، متقلب النظرات، عميق الصمت، تسبق خطاه رهبةٌ لا تُفسَّر بسهولة. في وجهه شيء من البحر حين يضطرب ، وشيء من السهل حين يحتدم، وشيء من فوضى الدنيا حين تفقد ميزانها. كان يدرك في داخله أن الثورة ليست غضبًا فقط ، بل مسرحٌ تتنازع فيه العدالة والانتقام ، وأن الدم إذا سال لا يعود كما كان، وأن الرجل الذي يرفع السيف باسم الحق قد ينتهي به الأمر عبدًا لما أشعل.

دخلت الجموع، وفي وسطها الأمير دولوجوركي وزوجته ، مقيدين كما تُقاد الغنيمة بعد سلبها. كان الأسر في وجهيهما مختلفًا؛ فالمرأة تحمل ذلًّا يختلط بالخوف، والرجل يتشبث بآخر ما تبقى له من كبرياء السلالة واللقب. وقفوا أمام الأتامان ، والعيون كلها شاخصة، بعضُها يشتهي رؤية النهاية، وبعضها يرجو رحمةً لا يعرف إن كانت ستأتي. كانت الساحة صامتة إلا من وقع الأنفاس، كأن الجميع ينتظرون قولًا يفصل بين الدهرين: دهرٍ كان فيه الأمير سيدًا، ودهرٍ صار فيه أسيرًا ينتظر الحكم من خصمٍ صنعته الجراح والثلج والماء المالح وأحزان الفقراء.

رفع رازين رأسه، ثم ألقى نظرته الحادة على الأمير، وفي صوته امتزج الاحتقار بالمرارة، وقال بشدةٍ تحمل لهيب السنين: أنت تذكر مورين، أليس كذلك؟ ذلك الجندي الذي أمرتَ بشنقه، بعد أن ضربه رجالك بالنعال، ثم طعنوه بالسيف، ثم ألقوا بجثته في مجاري موسكو، كأن الإنسان عندكم لا يساوي أكثر من قشرة خبزٍ في مهبّ الجوع.

لم يتهدج صوت رازين وهو يتكلم، لكن في داخله كان شيء آخر ينهض. كان يرى، كأنما بعينيه الداخليتين، وجه مورين ساعة أُخذ من بين الناس، يسمع صرخته المكبوتة، ويتخيل برد الماء على جسده حين دُفع إلى المجاري. لم يكن الأمر عنده قصة رجلٍ قُتل فحسب، بل كان رمزًا لعالمٍ كاملٍ يُسحق فيه الفقير حين لا يجد من يدافع عنه. وكان في نفسه يقول :كم من مورين في البلاد لا يعرفهم أحد؟ كم من صرخة ابتلعها الطين ولم يكتبها التاريخ؟ هكذا كان انتقامه يتغذى من ذاكرة جماعية لا من حقد شخصي فقط.

أما الأمير، فرفع ذقنه في كبرياءٍ موروث ، تلك الكبرياء التي تتغذى من الألقاب وإن كانت الجدران قد تهدمت من حولها. وقال ببرودٍ يشبه حجر القصور : لا أذكر شيئًا من هذا. وحتى لو كان ما تقول حقًا ، فلا ريب أن ذلك الجندي قد ارتكب ما يستحق عليه القتل.

عندها ارتجف بعض الحضور من قسوة الرد ، إذ بدا الأمير كأنه لم يتعلم شيئًا من انكسار السلطة سوى فنّ الإنكار. هنا ضاق صدر رازين ، لا لأنه لم يسمع الرفض ، بل لأن الرّجال الكبار كثيرًا ما يرفضون الحقيقة حين تكون الحقيقة مرآةً لذنبهم. فقال، وقد اشتدّت نبرته حتى بدت كالسوط :

أجل، وجدتموه في مخدع زوجتك اللعوب كاتيا. كانت هذه جريمته في أعينكم، أما عندي فهي جريمة عالمٍ لا يعرف الشرف إلا حين يتستر خلفه ليصنع الموت.

ثم التفتت الساحة كلها إلى الأمير ، فاشتعل وجهه حمرةً ثم اصفرارًا، كأنه وُضع بين لهيبين. صرخ في وجه رازين : أخرس، أيها الشركسي اللعين !

كانت الكلمات تقصد الإهانة ، لكنها في الحقيقة كشفت عجزًا عن المواجهة. والملك إذا عجز عن الحجة، احتمى بالسبّ، وإذا فقد السيف، احتمى بالغضب. أما رازين فابتسم ابتسامةً صغيرة لم تبلغ العين، وقال في نفسه :ها هو الكبرياء يتعرّى حين يُحاصر. كل رجلٍ يرى نفسه عظيمًا حتى تأتي ساعة الامتحان.

ثم تقدّم خطوة ، وأمسك بالخنجر كأنما يحدّثه، وقال بصوتٍ منخفض لكنه أشد رعبًا من الصراخ :

كان بودي أن أستل لسانك من فمك بهذا الخنجر ، لأخرسك كما تريد أن تخرسني ، وكما أخرستَ أخي مورين. لكنني لا أريد لك ميتةً سريعة ، ولا عقابًا يطيب لك. أريد لك ميتةً أبشع من هذه ، لأن الظلم لا يموت بطلقة ، بل بدرسٍ طويل في الذل.

كان في هذا القول ما يشبه حكم الزمن. فالرجل الذي عاش يرى المظالم لا يكتفي أن يقتصّ ، بل يريد أن يجعل من الخصم شاهدًا على ما صنع. ومع ذلك، لم يكن رازين في أعماقه وحشًا خالصًا؛ إذ كان يدرك، في لحظة صدقه الداخلي، أن الإنسان حين يخطو فوق عتبة الانتقام يفقد شيئًا من طهارته. لكنه كان قد اختار الطريق، ومن اختاره لا يعود بسهولة.

أحسّ الأمير بالخطر فحاول أن يعلي صوته بكبرياءٍ مكسور : افعل بي ما تشاء، ولكن دع زوجتي تعود إلى موسكو في أمان.

كان يطلب الأمان لامرأةٍ شاركته الصعود والسقوط ، ولم يكن يطلب لها الكرامة بقدر ما يطلب لنفسه أن يظلّ في عيون الناس زوجًا غيورًا ، لا أسيرًا فاقدًا لكل شيء. غير أن الأتامان لم يلتفت إلى توسلاته ، بل بدا كأن التوسل يزيده يقينًا بما ينوي. فأجاب ببرودٍ يقطر سخرية: لن أستل لسانك، ولن أسمل عينيك. أريدك أن ترانا جميعًا ، وتسمع جيدًا كيف تُهان من كنتَ تظنهم دونك.

ثم صرخ في أرجاء الساحة : أين الجندي سيمون أباتين ؟ أين أباتين ؟

وما هي إلا لحظات حتى خرج من الصفوف رجلٌ زريّ الهيئة، ضئيل الشأن، تغشاه شظايا الفقر كما تغشاه رائحة الأرصفة والرحلات الطويلة. كانت ثيابه تفوح منها روائح رديئة، كأنها لم تعرف إلا الخنادق والأوحال والليالي الرطبة. وقف أمام الأتامان بانكسار الجندي الذي لا يملك في الدنيا إلا الطاعة، وقال بصوتٍ خافت : ها أنذا يا أتامان.

حدّق رازين فيه طويلاً. لم يكن ينظر إلى الجسد فقط ، بل إلى ما خلفه: إلى الجوع الذي يصنع الرجال ويشوههم، إلى المسافة بين فارسٍ يولد في القصور وجنديٍّ ينام في الطين. ثم أشار إلى المرأة المقيّدة وقال : أنظر إلى هذه المرأة يا أباتين. أترضى بها خليلةً لك ؟ إنها جميلة ، رغم أنها من أفسق نساء الأرض. خذها إذا شئت.

سرت همهمةٌ في الساحة ، واختلط الخوف بالدهشة. كانت المرأة قد أطرقَت رأسها ، وما عادت الدموع تجد في عينيها مقامًا. أما الأمير فاسودّ وجهه ، ثم خارت قواه لحظةً ، وكأن الزمن انقلب على ظهره فجأة. وبدل أن يطلب النجدة من حرسه، لم يجد إلا أن يندفع راكعًا، غير عابئ بكرامةٍ سقطت قبل قدميه، وتوسل إلى خصمه بصوتٍ مرتجف : أتوسل إليك أيها الشركسي، لا تفعل هذا بابنة أخت القيصر.

كان هذا التوسل في ظاهره طلب رحمة ، وفي باطنه صرخة خوفٍ على الاسم والوجاهة والشرف العائلي. فالسلطة ، حين تصير أسيرة ، لا تبكي الإنسان بقدر ما تبكي رمزها. حينها ركل الأتامان الأمير بقدمه، لا قسوةً فحسب، بل إعلانًا بأن عهدًا قد كُسر، وأن الركبة التي كانت لا تنحني صارت الآن على تراب الساحة.

ثم عاد فصرخ في الجندي : هيا يا سيمون، خذ المرأة.

في تلك اللحظة ، ظنّ الجميع أن الرجل سيبتلع أمره صاغرًا، وأن الجندي سيقبل الغنيمة كما يقبل الفقراء فتات الموائد. لكن الحياة، في أقسى مفاجآتها، قد تُخرج من أفواه البسطاء ما يهدم لعبة الأقوياء. رفع سيمون رأسه، وظهرت في عينيه سحابةٌ من اشمئزازٍ وحزن، ثم قال بصوتٍ سمعه كل من في الساحة، حتى كأن المدينة كلها ألقت أذنها إلى كلماته : أتامان رازين، إنني لا أريد أن ألوث فراشي بمثل تلك الفاسقة.

ساد الصمت. لم يكن صمتًا عاديًا ، بل كان من ذلك الصمت الذي يسبق الإدراك. فقد انقلب المشهد كله في لحظةٍ واحدة ؛ إذ لم يعد الأمير وحده مهانًا، بل صارت المرأة أيضًا خارج منطق الغنيمة، وصار الجندي الفقير نفسه يرفض أن يكون أداةً للانتقام الرخيص. ارتبك الوجوم في وجوه الرجال، وأحس رازين أن الأرض تحت قدميه لم تعد ثابتة كما ظن. فقد أراد أن يجعل من المرأة عقابًا، فإذا بالجندي يردّ العقاب إلى رقبته، معلنًا أن الكرامة قد تسكن في أفقر القلوب.

تراجع رازين قليلًا ، وفي داخله دار حوارٌ صامت لا يسمعه أحد . ما الذي يعنيه هذا الرفض ؟ أهو تمرّد على أمري، أم شهادةٌ أخيرة على أن النفس البشرية لا تُشترى بالثأر ؟ ثم مرّ في خاطره وجه مورين من جديد. وتساءل :لو كان مورين هنا، أكان سيقبل هذه المهانة للمرأة ؟ أم كان سيرى في الرفض بقايا إنسانية لم تمت بعد ؟ كانت تلك الأسئلة تلسع ضميره ، لأنه لم يكن يطمح إلى أن يصبح قائدًا بلا قلب ، بل قائدًا يحمل قلبًا جريحًا يفاوض به التاريخ.

وعلى الطرف الآخر ، كان الأمير دولوجوركي ينهار في باطنه أكثر مما انهار في جسده. شعر لأول مرة أن القصور لا تنفع صاحبها حين يُنتزع من سريره ويُلقى في ساحة الناس. وتبدّت له صورة السلطة كقناعٍ جميلٍ لا يصمد إذا لم يسانده الخوف. قال في نفسه :أهذه هي النهايةُ؟ أكان مجدي كله مجرد ظلّ على جدار؟ ثم أدرك أن الإنسان لا يعرف وزنه الحقيقي إلا ساعة السقوط. وإن من الحكم القديمة ما يقول : الملك يجهل قلبه حتى يسقط تاجه.

وفي الساحة ، كان الشهود يتنفسون بحذر، بعضهم شامت ، وبعضهم خائف ، وبعضهم مأخوذٌ من هول المشهد. فالتاريخ لا يكتب نفسه بالسيوف وحدها ، بل أيضًا بالعيون التي ترى ، والقلوب التي تكتم ، والألسنة التي تعود إلى البيوت تحمل الحكاية على هيئة نار. من هناك، من هذه اللحظة، وُلدت في ذاكرة الناس صورةٌ جديدة لرازين: لا بوصفه رجل اقتحام فقط، بل بوصفه عقدةً إنسانية تجمع الغضب والعدالة والوحشية والشفقة في جمرٍ واحد.

وهكذا انتهت الليلة ، لا بانتصارٍ صافٍ ولا بهزيمةٍ خالصة. فقد غنم رازين بابًا ومكانًا ورأسًا من رؤوس السلطة، لكنه خسر في داخله شيئًا من سلامه، وخسر الأمير دولوجوركي وهمه القديم بأن النسب يحمي صاحبه إلى الأبد. أما الجندي الفقير سيمون أباتين، فقد خرج من

المشهد لا كأداةٍ للانتهاك، بل كشاهدٍ على أن الرجولة ليست في امتلاك المرأة ولا في إذلال الخصم، بل في أن يقول الإنسان لا حين يُدعى إلى القبح.

وهنا تنطق الحكمة القديمة بما يشبه التفسير الأخير:

السيف قد يفتح أبواب المدن ، لكنه لا يفتح أبواب القلوب. والظلم إذا طال ، أنجب من يقف في وجهه، لكن الردّ عليه لا يكتمل إلا إذا ظلّ في النفس قدرٌ من النبل.

ولعل الشاعر قد صدق حين قال :

إذا ما الجورُ أرخى الليلَ فوقَ ديارنا

فصوتُ الحقّ يولدُ من جراحِ الموجِ

وما المجدُ إلا صبرُ نفسٍ كريمةٍ

تُقاومُ في الردى، كي لا تكونَ الردى

ففي تلك الساحة، بين بابٍ انكسر وسيفٍ ارتفع ، انكشفت الطبيعة البشرية على حقيقتها: سلطانٌ ينهار، وجنديٌّ فقير يترفّع عن الدنس، وقائدٌ ثائرٌ يبحث عن معنى عدله بين نار الانتقام ووصية الضمير. وهكذا تظل الحكاية، مهما اختلفت الأزمنة، مرآةً لما في الإنسان من عطشٍ إلى الكرامة، ومن خوفٍ من السقوط، ومن حلمٍ قديم بأن التاريخ، في نهاية المطاف، لا ينتصر فيه الأقوى دائمًا، بل من بقي في قلبه شيء من نور.

الخيمة الحمراء
حين يُساوَم الشرف على الحياة

كانت الليلة تجرّ أذيالها الثقيلة فوق السهوب البعيدة ، والريح تمرّ على العشب اليابس كما تمرّ اليد المرتجفة على وجهٍ شاخ من كثرة ما رأى من الفواجع. في الأطراف الموحشة، حيث لا يُسمع إلا صهيل الخيل وصرير السيوف ووشوشة النار، ارتفعت خيمة الأتامان الحمراء كأنها قلبٌ نابض وسط ظلامٍ لا يعرف الرحمة. كانت تلك الخيمة تُرى من بعيد، فيرتجف لها بعضهم هيبةً، ويبتسم لها بعضهم خوفًا، ويقترب منها بعضهم طمعًا، أما هي، الأميرة اليتيمة المكسورة، فقد دخلتها وهي تحمل في صدرها عاصفةً لا تهدأ.

لم تكن الأميرة يومًا امرأةً عادية. كانت من سلالةٍ تُقاس بموازين المهابة لا بمقاييس النساء في الأسواق ، من آل رومانوف ، البيت الذي طالما التفّ حوله المجد كما يلتفّ الضباب حول القباب الذهبية في الصباح. غير أن المجد حين يختلط بدم الخوف، يصير مثل تاجٍ من نار؛ يلمع، لكنه يحرق من يضعه على رأسه. وقد وضعت القدر في كفّها امتحانًا أقسى من احتمال القلب البشري: إمّا أن تموت، وإمّا أن تنجو بثمنٍ أغلى من الحياة نفسها، ثمنٌ اسمه الكرامة، وثمنٌ آخر اسمه الشرف، وثالثٌ كان أوجعها: أن تُسلِّم نفسها إلى رجلٍ لم تردْه، بل كانت تجفل منه كما تجفل الظبية من زئير الذئب.

كانت قد سمعت عن الأتامان قبل أن تراه ، سمعته في المجالس الخافتة ، وفي أفواه الرّكبان ، وعلى ألسنة الخائفين والمفتونين معًا. قالوا إنه رجلٌ لا يَعرف الشفقة حين يطلبها، ولا يعرف التردد حين يضع يده على قدره. قالوا إنه إذا ضحك دوّى صوته في الفضاء، وإذا غضب سقطت العيون قبل الرؤوس. وكانت النساء تهمسن باسمه كما يُهمسن باسم عاصفةٍ بعيدة. أما هي فقد كانت تنظر إلى العالم بعينٍ تَعلّمت من البلاط أن كل شيء فيه ثمن، وكل نجاةٍ لا بدّ لها من بابٍ خفيّ، ولو كان ذلك الباب موصودًا بدمٍ أو عار.

وها هي الليلة تُحشر في زاوية التاريخ ، بين شرفٍ يتداعى وحياةٍ تتوسل. كانت قد شعرت بالموت يقترب منها في الأيام السابقة، يقترب في هيئةٍ لا تُرى: في نظرات الرجال، في صمت الخدم، في انكسار الأخبار، وفي انطفاء المصابيح التي كانت تظنها أبدية. ثم جاءها العرض القاسي، الذي يُشبه طعنةً مغلّفةً بالنجاة: أن تقبل أن تكون للأتامان، زوجةً أو أسيرةً أو شيئًا ثالثًا لا اسم له، لكي تظلّ حيّة، ولكي يبقى اسم آل رومانوف بعيدًا عن يد الفناء. عندها اشتعل داخلها صراعٌ لا يهدأ.

كانت تقول لنفسها في عتمة الليل : أأقبل ؟ أأهبُ حياتي ليدٍ لم أخترها ؟ أأصير شبحًا في قصرٍ غريب، أم جثةً في أرضٍ أعرفها ؟ ما أثقل هذا السؤال، وما أتعس قلب المرأة إذا ضاقت به السبل. أيكون شرفي كلُّه معلّقًا بكلمةٍ واحدة ؟ وهل الحياة نفسها إلا أمانة، أم أن النجاة حين تكون ملطّخة تفقد معناها ؟

ثم تعود فتسمع صوتًا آخر ، أعمق وأشدّ مراسًا : إن الملوك والملكات لا يموتون كما يموت عامة الناس. موتهم يترك أثرًا في الخرائط والذاكرة. ولكن هل النجاة بلا كرامة نجاة؟ هل يمكن للروح أن تبقى حيّة إذا وُطِئت مرارًا ؟

ظلّت هذه الأسئلة تمزّقها حتى دخلت الخيمة ، وهناك رأت الأتامان جالسًا كأنه صخرةٌ سوداء في قلب نارٍ مشتعلة. كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، وفي عينيه بريقٌ غريب، بريق رجلٍ يعرف أن العالم لا يهب شيئًا إلا مقابل نزفٍ أو تنازل. نهض حين رآها، ولم يكن في قيامته اللاتية شيءٌ من اللين، بل فيه شيءٌ من التحدي، كأنه يقول لها منذ اللحظة الأولى: ها أنتِ في أرضي، وما عليكِ إلا أن تختاري بين الخضوع والضياع.

تقدمت الأميرة بخطواتٍ ثابتة، مع أنّ قدميها كانتا ترتجفان. كانت تعرف أن الضعف في حضرة الأقوياء قد يُشبه السقوط، ولهذا لبست من الكبرياء ثوبًا، ومن الشجاعة قناعًا، ومن الانكسار سيفًا لا يراه أحد. رفعت رأسها وقالت، وقد بدا صوتها كأنه خرج من بئرٍ عميقة:

أنا مستعدة أن أضحي بكل شيء، حتى بكرامة دمي ، إن كان في ذلك ما ينجيني من الموت. إن رفضني أقلّ الرجال قدرًا ، فما قيمة أن أتمسك بما لم يعد لي ؟ سأكون لك، يا أتامان، حتى لو طلبت إليّ أن أقتل هذا الرجل دولغوروكي بيدي.

سكت الأتامان لحظة ، ثم لمعت في عينيه شرارة رضاٍ خفيّ ، كأنما وجد في قولها ما يشبهه : الجرأة حين تلبس وجه القسوة، والمرأة حين تضطرها الأقدار إلى أن تخلع عنها رهافة النساء لتلبس جلد الذئاب. تناول سيفه ، وأعطاه إياها قائلاً بصوتٍ خشن كصوت الحديد إذا احتكّ بالحجر :

حسنًا، خذي هذا السيف. اضربيه على عاتقه ، ولا تشغلي بالك بعدد الربات. يحسن بك أن تشوهي وجهه قبل أن تقطعي رقبته. هكذا فعل باخي.

ترددت كلماته في أذنها كأنها حكمٌ صادر من محكمة الظلام. أحسّت لحظةً أن الدم في عروقها تجمّد. لم تكن قد قتلت أحدًا من قبل، ولم تتخيل أن يدها، التي اعتادت حمل المروحة والكتاب، قد تُقبض يومًا على مقبض سيف مضرّج بمصير رجل. لكن الخوف، حين يلبس ثوب الضرورة، يصير معلّمًا قاسيًا. وأحيانًا لا يفتح الإنسان باب النجاة إلا بمفتاحٍ من نار.

خرجت من الخيمة بعد ساعاتٍ، وقد تغيّر فيها شيء لا يُرى. لم تكن هي نفسها التي دخلت. كانت تشبه زهرةً قُطفت من حقلها ووُضعت في ماءٍ غريب. وفي الليلة التي تلت، تمّ ما كان ينبغي له أن يتمّ، أو ما تصوره الجميع قدرًا لا مفرّ منه. قُتل زوجها، وارتُكبت الجريمة باسم النجاة، وارتجفت السماء في صمتها. بعضهم قال: قتلتْه بكبرياء امرأةٍ لم تجد في العالم منصفًا. وبعضهم قال: فقدت روحها يوم فقدت يدها رحمة التراجع. أما الحقيقة فكانت أعمق من رأي العابرين؛ الحقيقة أنها دخلت كهفًا من النزاع الداخلي، وخرجت منه وفي قلبها ندبةٌ لن تلتئم.

أخوها، الذي لم يكن أقلّ ارتباكًا من بقية الحاضرين، أدخلها إلى خيمة الأتامان مرةً أخرى. هناك زُيّنت كما تُزيَّن العروس في قصور الملوك، ولكن أي زينة تلك التي تلمع على وجه حزنٍ قديم؟ كيف للعطور أن تغسل رائحة الدم من الروح؟ كيف للحرير أن يمحو خشونة الخوف؟ ألبسوها ثياب العرس، ووضعوا في شعرها ما يشبه التاج، غير أن التاج هذه المرة كان من قلق، والذهب فيه لم يخفِ شحوب الوجه. ثلاثة أيامٍ وطبول الزفاف تدوي في الساحة أمام الخيمة الحمراء، وأناشيد العرس ترتفع ثم تهبط كأنها أمواجٌ فوق بحرٍ مضطرب. كان الناس يرقصون ويشربون ويهلّلون، لكن تحت أصواتهم كانت هناك طبقةٌ أخرى من

الصمت: صمتُ نفسٍ تحاول أن تصدّق أنها نجت، وصمتُ نفسٍ أخرى تعرف أن النجاة نفسها قد تكون نوعًا من العذاب.

في تلك الليالي الثلاث، كانت الأميرة وحيدة أكثر من أيّ وقتٍ مضى رغم الضجيج. جلست في الخيمة المزيّنة بالسجاد والشموع، وحدّقت طويلًا في لهيب المصباح. كان نور النار يتراقص على الجدران، فتشعر كأنه أرواح صغيرة ترقص على حواف قدرها. وسألت نفسها : أأنا عروسٌ حقًا أم أسيرةٌ في ثوب عرس ؟ أأنا امرأة اختارت ، أم ورقة دفعتها الريح إلى يد رجل قوي ؟

ثم سمعت في أعماقها صوتًا يشبه صوت أمٍّ بعيدة كانت تردد قديمًا : يا ابنتي، ليس كل ما ينقذك يكرمك، وليس كل ما يكسرك يقتلك.

وفي اليوم الرابع ، عند الغروب ، حين تلوّنت السماء بلونٍ بين الذهب والرماد، دخل الأتامان خيمة العروس. كان الليل قد بدأ يمدّ عباءته فوق السهوب، والقمر لم يظهر بعد، وكأن العالم كله ينتظر الجملة التالية من مسرح القدر. نظر إليها وقال بصوتٍ فيه غرور المحارب وهدوء من يملك زمام اللعبة : تعالي يا عروسي الجميلة.

تطلعت إليه بعينٍ فيها دلال النساء، لكن تحت الدلال كانت مرارةٌ لا تخطئها الروح. قالت، وقد تعمّدت أن تحافظ على ذلك التردد الناعم الذي يربك الرجال : إلى أين يا أتامان ؟

قال وهو يلوّح بيده نحو الخارج : إلى حيث عرسك.

عقدت حاجبيها ، كأنها لم تفهم. ثم قالت : ما هذا؟ لقد وهبت نفسي لك، أنت وحدك ، بعد مصرع زوجي. فلماذا تهبني لسواك ؟ لقد أحببتك يا أتامان. كنت أسمع عنك وعن شجاعتك وفتوتك، وكنت أنتظر الساعة التي أكون لك فيها. أنا التي أمرت قائد الأبواب أن يفتح لكم.

ابتسم الأتامان ابتسامةً غامضة ، لا يعرف إن كانت سخرية أم حكمة، ثم قال : سأزوجك بمن هو خير مني.

رفعت رأسها في دهشةٍ حقيقية، وقالت : ومن هو ؟

أشار إليها بيده في هدوءٍ مريب : سترينه بعد لحظات. هيا تعالي معي ، يا عروس.

عندها شعرت الأميرة أن الأرض تميد تحت قدميها. ما معنى أن يتنازل رجلٌ عن امرأةٍ اشتراها بالدم، ثم يدفعها إلى غيره ؟ أهو اختبار ؟

أهو عقاب ؟ أهو ازدراء لكرامتها أم تعظيمٌ لها على نحو لا تفهمه ؟ داخل رأسها بدأ صراعٌ آخر، أشدّ من الأول. قالت في نفسها : هل كنت لعبةً في يده منذ البداية ؟ هل أرادني لمجرد أن يرى إن كنتُ سأساوم على نفسي ؟ أم أنه يختبر قلبي، ليرى إن كنتُ أعيش بما بقي من شرفي أم بما تمنحه لي الحاجة ؟

ومع كل خطوةٍ خارج الخيمة، كانت تسمع في قلبها صريرًا يشبه انكسار السلاسل. ولأن النفس البشرية أعجب من التاريخ نفسه، فقد وجدت نفسها لا تكره الأتامان كما ينبغي، بل تحاربه وتعذره في الوقت نفسه. كانت تدرك أن فيه قسوة أهل البادية ، وفيه فخر الزعماء ، وفيه أيضًا شيءٌ من الفلسفة الخشنة التي تقول: الإنسان لا يُقاس بما يعلن، بل بما يفرضه زمنه عليه. ولهذا كان يُخضع الآخرين كما أُخضع هو من قبل لقوانين الدم والنجاة والسلطة.

سار بها عبر الممر المضاء بالمشاعل ، والطبول في الخارج لا تزال تضرب كقلبٍ كبير لا ينام. وكانت الخيام مصطفةً مثل شهودٍ صامتين على محكمة التاريخ. وكلما تقدمت، ازدادت حيرتها. قالت في سرها : أيكون الرجل خيرًا من الأتامان لأنه أضعف منه ؟ أم لأن القوة لا تصنع وحدها المروءة ؟ وهل الشجاعة أن تمتلك السيف أم أن تعرف متى تضعه ؟

ثم مرّت بخاطرها حكمةٌ قديمة سمعتها ذات يوم من عجوزٍ في قصر جدتها : ليس الكريم من يملك الكثير، بل من لا يفتش في الناس عن مصلحته.

تأملت الجملة في نفسها، ثم شعرت أن الحياة كلها تختصر أحيانًا في مثلٍ صغير. وما أضيق بين طرفي المصير حين يقف الإنسان على حافة قراره! لقد ظنت أنها ذهبت إلى الأتامان لتحيا، فإذا بالحياة نفسها تُعيد تعريفها من جديد. لعلها لم تكن تنجو من الموت، بل من وهمٍ أكبر : وهم أن الكرامة شيءٌ ثابت لا يتبدل. لكنها الآن تعلم أن الكرامة، مثل الماء، تأخذ شكل الإناء الذي توضع فيه، وأن النفس إذا أُجبرت على السير في طريقٍ موحش، فليس أمامها إلا أن تحوّل الوجع إلى معنى.

حين وصلا إلى نهاية الممر ، كانت تنتظرها مفاجأة لم تكن في حسابها. هناك، في الظل، ظهر الرجل الذي قال الأتامان إنه خيرٌ منه. لم يكن المظهر وحده هو الذي أدهشها ، بل النظرة. نظرةٌ ليست فيها الوحشية الصريحة ، ولا الخضوع الذليل ، بل فيها شيء من الاتزان ،

من الصبر، من الندم المكتوم. عندها فهمت أن الأتامان لم يكن يسلمها لخصم ، بل كان يدفعها إلى امتحانٍ آخر: أن تكتشف أن الرجال لا يتشابهون في القوة، وأن الفروق الكبرى لا تظهر في السيوف، بل في الضمائر.

توقفت، وأحست للحظة أن التاريخ نفسه قد انحنى ليستمع. ثم التفتت إلى الأتامان ، وعيناها تسألان أكثر مما تنطقان. فقال لها بصوتٍ منخفض، كأنه يخلع عن نفسه قناع القائد ويصير مجرد رجل يعرف حدود ما فعل :

لقد أردتُ أن أعرف هل تبيع المرأة نفسها خوفًا ، أم تختارها روحًا. أردتُ أن أعرف هل أنتِ أسيرة الحاجة وحدها، أم أن فيكِ بقايا قلبٍ لا يرضى بالهوان. لم أُرِدْكِ لي وحدي لأنني لم أرد أن أكون سكينًا أخرى في جسدك. كنتُ أختبر العالم فيكِ، كما يُختبر الحديد بالنار.

سكتت. وأحسّت أن الكلمات ، على قسوتها ، كانت أرحم من كثير من الوعود. ثم قالت ببطء، وكأنها تجرّ صوتها من قاعٍ بعيد :

وهل نجحتُ في امتحانك؟

أجاب : نجحتِ، لأنك لم تذوبي كليًا. بقي فيكِ شيءٌ يقاوم، حتى وأنتِ مكسورة.

في تلك اللحظة ، أدركت أن ما جرى لم يكن مجرد زواجٍ أو خدعةٍ أو حربٍ صغيرة بين رجالٍ ونساء، بل كان مواجهةً بين صورتين للحياة: صورةٍ تُنجي الجسد وتخون الروح، وصورةٍ تُنقذ الروح ولو جرحت الجسد. وربما كان التاريخ، في بعض لحظاته، لا يكتب بالمداد، بل بالندوب.

وأخذت تسير وهي تفكر : كم هو غريب هذا العالم ! يُرغمنا على الاختيار بين شرّين ، ثم يطالبنا أن نحمده على الأقلّ سوءًا. ولكن لعل المرء لا يُعرف عند الرخاء، بل عند البأس. ولعل القلب حين يُساق إلى ضفته البعيدة، يكتشف أن فيه من الصلابة ما لم يكن يعلم.

ثم انبعث في نفسها بيتٌ من الشعر كأنه جاء من بعيد، من فم جدٍّ مجهول أو شاعرٍ دفنته القرون :

ومن لم يذق مرّ القيود زمانهُ

رأى العزَّ لفظًا في الكتابِ بلا معنى

فابتسمت ابتسامةً شاحبة، ومضت. لقد أصبحت تعرف أن الحياة لا تمنح الإنسان ما يريد، بل ما يصنعه من المرّات التي لا يريدها. وأن المرأة، حين تضيق بها الدنيا، قد تتحول من ضحيةٍ إلى رواية، ومن روايةٍ إلى قدر، ومن قدرٍ إلى درسٍ لا يُنسى.

وهكذا انتهت لحظة ، لكنها لم تنتهِ في روحها. بقيت الخيمة الحمراء شاهدةً على ليلٍ طويلٍ لم يكن كله عرسًا، ولا كله مأساةً، بل شيئًا بينهما: امتحانًا للروح في زمنٍ لا يرحم، ومرآةً لحقبةٍ كان فيها الشرف يُسلب باسم النجاة، وتُكتب الأحكام على وجوه النساء بمداد الرجال. ومع ذلك، بقي في قلب الأميرة ما يشبه الغصن الأخضر وسط الحريق: أملٌ صغير، عنيد، لا يموت.

الصبر مفتاح الفرج، والدهر يومٌ لك ويومٌ عليك، وما بعد العسر إلا يُسر.

عرس الفولجا الأخير

المشهد الأخير في مأساة الأتامان رازين

ضربت الطبول ضرباتها الثقيلة ، كأنها نبضُ الأرض وهي تستعد لابتلاع أحد أبنائها. وتعالت صفارات القوزاك، تخترق فضاء السهول الواسعة، فتتماوج أصداؤها فوق مياه الفولجا كما تتماوج الريح في حقول القمح قبل العاصفة.

كان النهر يجري هادراً، مفعماً بقوة لا تعرف الرحمة، يحمل في جوفه تاريخاً من الدماء والأساطير، حتى خُيّل لمن ينظر إليه أن مياهه لا تجري، بل تزحف كجيشٍ لا ينتهي.

وقف الأتامان رازين عند الضفة، شامخ القامة، عابس الوجه، تتصارع في أعماقه نار الكبرياء مع جراح الخيانة. كانت عيناه تحدقان في الماء، لكنهما في الحقيقة كانتا تنظران إلى ماضٍ بعيد، إلى الأيام التي كان يظن فيها أن الدنيا قد دانت له، وأن الفولجا نفسه قد أقسم ألا يجري إلا بأمره.

أشار بيده إلى النهر، ثم التفت نحو كاتيا، وقد اصفرّ وجهها وارتجفت أطرافها.

قال بصوتٍ بارد، لا يعرف الشفقة: **هذا هو عريسكِ يا كاتيا... نهر الفولجا.**

ساد صمتٌ ثقيل، حتى الريح كأنها توقفت عن التنفس.

حدقت إليه كاتيا بعينين امتلأتا رعباً، ثم اندفعت نحوه تستجدي قلباً كان الحب قد غادره منذ زمن.

قالت وهي تبكي : يا رازين... أما بقي في قلبك شيء من الأيام التي جمعتنا ؟ أما تذكر الليالي التي أقسمت فيها أن الدنيا كلها لا تساوي دمعةً من عيني ؟

ظل صامتاً.

اقتربت أكثر ، وألقت بنفسها على صدره ، تبحث عن دفء الرجل الذي أحبته يوماً. لكن صدره كان أصلب من صخور الفولجا.

دفعها عنه بعنف.

تراجعت مترنحة ، ثم حاولت الفرار ، غير أن رماح القوزاك والشركس ارتفعت كجدارٍ من الفولاذ، تحاصرها من كل جانب ، تدفعها في صمتٍ لا يعرف الرحمة، حتى أصبحت خطواتها كلها تتجه نحو الماء.

ابتسم رازين ابتسامةً مريرة، وقال في تشفٍ : **آخر عشاقكِ... هو الفولجا. فهيا، ادخلي إليه، فقد طال انتظار عرسك.**

صرخت صرخةً شقت السماء ، ثم ابتلعها هدير النهر.

واختلط صوت سقوطها بزئير المياه ، حتى لم يعد أحد يعرف: أكان الذي سقط امرأةً، أم آخر ما بقي في قلب رازين من إنسانية ؟

>

بلغت أخبار الأتامان رازين أسوار الكرملين.

جلس القيصر إليكسي ميخايلوفتش يستمع إلى الرسل ، وقد ازدادت ملامحه صلابة.

قال أحد القادة : لقد تجاوز رازين كل الحدود يا صاحب الجلالة. لم يعد الأمر تمرداً، بل صار حلماً بإقامة دولة تنازع عرش روسيا.

نهض القيصر ببطء. اقترب من النافذة، وأخذ يتأمل سماء موسكو الرمادية.

ثم قال : إذن... لن يبقى في روسيا عرشان.

صدرت الأوامر. فتحَت المخازن العسكرية. ودقت أجراس الكنائس. وتحركت الفرق الروسية النظامية، تحمل المدافع الثقيلة، وتسير في صفوفٍ منتظمة كأنها نهرٌ من الحديد يتقدم نحو الجنوب.

>

أما رازين، فقد كان يدرك أن الريح بدأت تهب في غير صالحه. راح يراقب الأخبار تتوالى، والأنباء تزداد سوءاً. بعث الرسل إلى السلطان العثماني، يرجو المدد والسلاح.

لكن السلطان، المثقل بحروبه ومصالحه، آثر الصمت. كان الصمت هذه المرة أشد وقعاً من الهزيمة.

تمتم رازين : حين تكون قوياً، يتقاطر الحلفاء إلى خيمتك... فإذا ضعفت، نسوا حتى اسمك.

وهكذا بدأت القبائل تتفرق. وتراجع كثير ممن كانوا يهتفون باسمه.

فالناس كما يقول الحكماء :

إذا أقبلت الدنيا على رجلٍ أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته حتى محاسن نفسه.

>

مرت الأعوام الأربعة ثقيلةً كأنها أربعة قرون. لم تكن حرباً واحدة. بل سلسلةً من المطاردات، والكر والفر، والتحالفات المنهارة، والوعود الكاذبة.

وفي سبيل المحافظة على جيشه، أعلن رازين إسلامه أملاً في كسب تأييد السلطان العثماني وحلفائه. لكن ذلك الإعلان لم يكن كافياً.

فقد أثار اضطراباً داخل صفوف أتباعه، وانقسم الرجال بين مؤيد ومعارض، بينما استغل خصومه ذلك لإضعاف وحدته.

وكان رازين يجلس ليلاً وحده، يحدق في النار، ويتمتم :

أيعقل أن يكون الإنسان مضطراً لأن يغيّر وجهه كلما تغيرت الريح ؟ أم أن السياسة مقبرة المبادئ ؟

ثم يضحك ضحكةً موجعة.

كلنا نرتدي الأقنعة... غير أن أقنعة الملوك من ذهب، وأقنعة الثوار من دم.

>

وتتابعت الخيبات. انسحبت قبائل. وتفرقت جموع. وخانت عهود.

حتى صار الرجل الذي كان يقود عشرات الآلاف، لا يحيط به إلا نفرٌ قليل، بقوا معه لا طمعاً في نصر، بل وفاءً لذكريات الطريق.

وفي إحدى الليالي، نظر إلى رفاقه. كانت النار تضيء وجوهاً أنهكها التعب.

قال لهم : من أراد النجاة، فليرحل الليلة. لن ألوم أحداً.

ساد الصمت.

ثم قال شيخٌ من القوزاك : يا أتامان... نحن لم نتبعك لأنك لا تُهزم، بل لأنك كنت أشجع من عرفنا.

خفض رازين رأسه. ولأول مرة منذ سنوات، شعرت عيناه بثقل الدموع.

>

لكن عجلة التاريخ لا ترحم. حاصرتهم القوات الروسية من كل صوب. قاتلوا حتى نفدت الذخيرة. ثم حتى انكسرت السيوف. ثم حتى صار الحجر سلاحاً.

وأخيراً وقع رازين، ومعه رفيقه الوفي أوتار أودينوف، في الأسر. قُيدت أيديهما بالسلاسل. وسِيقَا إلى موسكو.

كانت الجماهير تصطف على جانبي الطريق. منهم من شتم. ومنهم من بصق. ومنهم من اكتفى بالنظر إلى الرجل الذي كاد يغيّر وجه روسيا.

أما رازين، فظل يسير مرفوع الرأس. كان يعلم أن المنتصر يملك كتابة التاريخ، لكنه كان يؤمن أيضاً أن الشجاعة لا تحتاج إلى كاتب.

وفي الطريق، همس أوتار : هل انتهى كل شيء يا أتامان ؟

ابتسم رازين.

وقال : تنتهي المعارك... ولا تنتهي الأفكار.

>

وحين وصلا إلى ساحة الإعدام ، ارتفعت المشنقة أمامهما كأنها إصبعٌ يشير إلى السماء.

اجتمع الناس. وقف الجنود. وصعد أوتار أولاً. هناك، خانه قلبه. ارتجفت ركبتاه.

ثم صرخ : مولاي القيصر... أرجوك... ارحمني...

وقبل أن يكمل، دوّى صوت رازين في الساحة :

اصمت يا أوتار... مُتْ رجلاً!

ساد الصمت.

حتى الجنود نظر بعضهم إلى بعض في دهشة. أما أوتار، فقد أغلق عينيه، واستسلم لقدره.

ثم جاء دور رازين. رفع رأسه نحو السماء. لم يطلب عفواً. ولم يلعن أحداً.

أضاف بصوتٍ خافت : قد يُقتل الرجل... لكن الحلم لا يُشنق.

تقدّم الجلاد. واشتدت الريح. وتحرك الحبل.

وفي تلك اللحظة، بدا كأن الفولجا البعيد قد أرسل هديره إلى موسكو، ليودع آخر رجاله.

>

وهكذا انتهت ثورة الأتامان رازين على أعواد المشنقة في قلب موسكو؛ المدينة التي حلم يوماً أن يدخلها فاتحاً، فإذا به يدخلها أسيراً.

لقد خسر المعركة ، لكن سيرته بقيت تتردد في الأغاني الشعبية، وفي حكايات القوزاك ، وفي ذاكرة التاريخ التي لا تحفظ أسماء المنتصرين وحدهم، بل تحفظ أيضاً أولئك الذين تجرؤوا على الحلم، وإن دفعوا ثمن أحلامهم حياتهم.

ولعل أصدق ما يُختتم به هذا المشهد قول العرب:

وما نيلُ المطالبِ بالتمني ولكن تؤخذُ الدنيا غلابا.

غير أن الغلاب قد يمنح صاحبه مجداً، ولا يضمن له البقاء؛ فالتاريخ يبتسم للشجعان، لكنه لا يعفيهم من دفع ثمن الشجاعة كاملاً.